رجال مفترى عليهم ..



إعداد
إيهاب كمال محمد

الحرية للنشر والتوزيع
٣ ميدان عرابى وسط البلد القاهرة
ت/ ٥٧٤٥٦٧٩ _ ٠١٢٢٣٨٧٧٩٢١ _ ٢٦١٥٦٤٦


الحرب على
الصحابة

اسم الكتاب : الحرب على الصحابة

تأليف : ايهاب كمال محمد

الناشر : الحرية للنشر والتوزيع

٣ ميدان عرابى وسط البلد - القاهرة

ت : ٢٦١٥٦٤٦ - ٥٧٤٥٦٧٩ - ٦٠٩٣٢٧٠ - ٠١٢٢٣٨٧٧٩٢١

رقم الإيداع : ٢١٣٥ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى : ٢ - ٢٠ - ٢٠ - ٢٣ - ٩١٥

مقـدمـة

الحرب على الصحابة

إن الحرب على الإسلام وعلى رموزه لا تكاد تفتر أو يهدأ إوارها وخصوصاً فى السنوات الأخيرة..

فى البداية كانت حرباً بالسلاح وعناصر القوة وكان ذلك فى بداية الدعوة فى مكة المكرمة. وكم عانى الرسول ﷺ وأتباعه من هذه الحرب الشعواء.. وكم تعذب كثير من الصحابة على يد المشركين والكفار.. وحين انتقل المسلمون إلى مجتمع المدينة لتبدأ إرهاصات أول دولة فى الإسلام حتى ووجهوا بحرب من نوع جديد وكانت الحرب هذه المرة من قبل اليهود.. وكانت من نوع جديد حرب الإشاعات أو الحرب النفسية.. وفى كل مرة كان الله تعالى ينصر المسلمين ويدحض أعدائهم.. ثم مات الرسول عليه الصلاة والسلام. وعمّت الأمة محنة من أعظم المحن وهى محنة الردّة ومانعى الزكاة. وقيض الله لهذه المحنة رجلاً من أعظم الرجال بل أفضل الرجال بعد الأنبياء وهو الصدّيق أبى بكر رضى الله عنه.. ثم إنتهت المحنة على يديه بفضل الله تعالى لتبدأ الدولة الإسلامية مرحلة جديدة على يد الفاروق «عمر بن الخطاب» حيث توسعت رقعة الدولة الإسلامية واسترد المسلمون القدس وهكذا راح التاريخ يسجل الإنتصار تلو الإنتصار. إلى أن حدثت الفرقة فى صفوف المسلمين عقب مقتل عثمان بن عفان رضوان الله عليه وتولية على بن أبى طالب كرم الله وجهه أميراً للمؤمنين. لتظهر فرق عديدة تنتمى للإسلام إسماً وشكلاً ولكنها ظلت بعيدة عنه روحاً ومضموناً ووجدنا على الساحة الخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة والإباضية وغيرهم كثير[1].

وأستمرت الحرب.. لتعود بعد ذلك أقوى وأشد ضراوة وباستخدام كل أنواع الأسلحة المادية منها والمعنوية. وان كانت الأسلحة المعنوية والنفسية ستظل هى الأكثر ضراوة

---

(١) راجع كتابنا «الفرق الإسلامية».

والأطول أمداً.

وكانت الحروب الصليبية القديمة منها والحديثة. وهجمه التتار الشهيرة وأخيراً ذلك الكيان السرطانى المسمى «إسرائيل».. وتواكبت مع هذه الهجمات البربرية على ديار المسلمين حرباً نفسية ودعائية وإعلامية وبدءت الحرب على رموز الأمة.. فى البداية كانت هذه الحرب ضد الدعاة المحدثين ثم تحولت رويداً رويداً للتشكيك فى رموز كبرى من صحابة رسول الله ﷺ.. ومن المؤسف أن تنطلق هذه الحرب من قلب وأبواق فرقة تدعى الإنتماء للإسلام وهم «الرافضة» أو ما يعرفون الآن باسم الشيعة.. والغريب فى الأمر أنهم يستخدمون منطق «من كلامك أدينك» فهم يستشهدون بنصوص من كتب كبار علماء السلف ومحدثيهم من أهل السنة والجماعة.. ولكنهم وكما هو مُتوقع «يلوون ذراع الحقيقة» وبمنطق «الحق الذى أريد به باطل».. وأول من طعنوا فيه وفى خلافته هو صديق هذه الأمة «أبى بكر الصديق» رفيق النبى وأقرب أصحابه إليه بل وأحب الناس إليه من الرجال. بل هم لم يكتفوا بذلك بل راحوا يطعنون فى فاروق هذه الأمة «عمر بن الخطّاب» ونعتوه بأفزع الألفاظ بل ووصفوه بأنه شيطان.. وليت الأمر إقتصر على ذلك وهو أمر عظيم.. بل تطرقوا إلى كثير من صحابة رسول الله ﷺ أمثال «أبى هريرة» ذلك الصحابى الجليل ونعتوه بالكذب والبهتان فيما رواه عن سول الله ﷺ.

والحقيقة أنهم وصفوا كثيرا من مشاهير الصحابة بالردّة والنفاق بل وبالجهل بالقرآن وأحكامه.. حتى أنهم إتهموا «عمر بن الخطاب» بالجهل.

والشاهد أن الكثير من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام لم يسلموا من شرهم.. لدرجة السب والتكفير.. وكان هذا يصدر من قدمائهم ومحدثيهم.. ولم يقتصر الأمر على الشيعة. بل تطرق إلى بعض المستشرقين بل وبعض أولئك الذين يدّعون العلم والمعرفة من مَن ينتسبون إلى تيارات أخرى غير الشيعة.

والهجوم على الصحابة هو فى واقع الأمر هجوم على الدين. إذ أنهم هم الذين نقلوا إلينا الدين وحملوا أمانته ومسؤولية تبليغه بعد رسول الله.. فالتشكيك فيهم هو فى واقع الأمر محاولة لهدم الدين بالكلية. وفى هذا الكتاب والذى يُعد محاولة متواضعة لبيان حجج المهاجمين وردود المدافعين على وعن صحابة رسول الله ﷺ. نقدم إسهاما متواضعاً لتبيان الحق ودحض الباطل. راجين من الله عز وجل التوفيق والسداد.

(٢)

رد حديث أصحابى كالنجوم

سؤال:

إنّ الذين عاصروا رسول الله ﷺ هم الصحابة من المهاجرين والأنصار، وما تفضّلتم به عن «إرتداد بعض هؤلاء الصحابة يردّة الحديث المروى فى كتب أهل السنّة «أصحابى كالنجوم بأيّهم إقتديتم إهتديتم»؟

هذ السؤال وُجه من قبل أحد الحاضرين فى إحدى الندوات إلى «محمد الموسوى» والذى يلقب عند الشيعة المُعاصرين بـ «سلطان الواعظين الشيرازى» وكان جوابه.

– الجواب أولاً: إنّ هذا الحديث لم يتسالمه أهل العلم والتحقيق بالقبول فهو حديث موضوع وأوّل من صرّح بذلك – فضلاً عن علماء الإمامية – «يقصد علماء الشيعة» – أكابر علماء أهل السنّة وذلك بالخدش فى سند هذا الحديث ومن جملتهم الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى الشافعى حيث قال: على الرغم من شهرة هذا الحديث إلا أن سنده ضعيف ومضى «محمد الموسوى» فى سرد حججه من واقع كتب أهل السنة فى برهنته على ردّ هذا الحديث.. متناسياً أن هناك الكثير من الأحاديث النبوية قوية الإسناد والتى تُأصّل لفضل الصحابة وترسخ مكانتهم.

(٣)

منهج الشيعة فى صحابة الرسول

فى كتابه «شبهات حول الشيعة» كتب «عباس عَلى الموسوى» وفى فصل تحت عنوان «الآثار السيئة للقول بعدالة جميع الصحابة».

«إن القول بعدالة الصحابة قد ترك آثاراً سيئة ومداليل لا يمكن رفعها. فقد فتحت على الدين أبواباً أساءت من خلالها لنبى الإسلام وللإسلام وللصحابة وقد تكثّرت الحملات وتكشفت من فى قلوبهم مرض للنيل من هذا الدين ويمكن أن أذكر بعض تلك الخلفيات السيئة التى تركها القول بعدالة جميع الصحابة».

ومضى عباس الموسوى يسرد المساوئ الناتجة عن القول بعدالة جميع الصحابة. ثم يمضى فى هجومه على هذا القول «عدالة جميع الصحابة» لينتقل بعد ذلك إلى إيراد بعض النماذج من صحابة رسول الله ﷺ ليدلّل على كلامه. وقد أوردنا كل كلامه جملة وتفصيلاً كنموذج لمنهج الشيعة فى الصحابة بل ومنهج الكثيرين غيرهم فى أفضل ثُلة بعد الأنبياء - وقد أوردنا بعض الردود الفاحمة على منهجهم.

(٤)

موقف الشيعة من صحابة النبى (ﷺ)

الصحابة

إن قضية الصحابة هى إحدى القضايا المهمة التى اتخذ فيها الخط الشيعى رأياً معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، لم يشذ بمسلكه ذاك عن الطريق السوى أو ينفرد وحده بهذا الرأى، بل هناك من المسلمين - من غير الشيعة - من تبنى رأيهم فى الصحابة دون أن تأخذه فى الله لومة لائم سيراً وراء الحق واقتفاء للدليل والبرهان وقبل البدء بما ذكره القوم من تعديل الصحابة جميعاً يحسن بنا أن نطوى بعض المقدمات التى يتوقف عليها البحث بصورة مرضية مقبولة، من تحديد معنى الصحابى، وبيان معنى العدالة التى أعطيت لهؤلاء الصحابة الكرام، ثم نستعرض أدلة القائلين بأن كل الصحابة عدول؛ تلك الأدلة التى أوردوها من الكتاب والسنة وغيرهما ثم نذكر ردها وبعد ذلك نأتى إلى النتيجة التى بها نثبت الحق فى المسألة ونهتدى إلى الرأى الصائب فيها.

من هو الصحابى

الصحابى فى اللغة مشتق من الصحبة ويوصف بها كل من صحب غيره طالت المدة أم قصرت.

وأما فى اصطلاح المحدِّثين - والذى عليه يدور الحديث هنا - فقد عرَّف الصحابى بعدة تعاريف نأخذ بعضها.

١- عرَّف ابن حجر فى كتابه (الإصابة فى تمييز[١] الصحابة) عرَّف الصحابى بقوله الصحابى من لقى النبى (ﷺ) مؤمناً به ومات على الإسلام فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أم قصرت ومن روى عنه أو لم يرو ومن غزا معه أو لم يغز من رآه رؤية ولو لم

(١) الإصابة جـ ١ ص٧ طبعة مكتبة المثنى ببغداد.

يجالسه و من لم يره لعارض كالعمى.

٢- عرّفه البخارى فى صحيحه بقوله: (من صحب النبى (ﷺ)[١] أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه).

ويبدو من هذين التعريفين التوسعة فى مؤدى كلمة الصحابى وأنها أكثر سعة من غيرها لأن فى هذين التعريفين تنطبق على من رأى النبى ولو لحظة فيستحق عندها جميع حقوق الصحبة التى ستترتب على هذا الإسم والانتساب كما سيأتى. ولكن يبدو أن هذا الرقى لم يكن هو الرأى المجمع عليه والمتفق على صحته فإن القاضى الباقلانى ذكر «أن الصحبة لا يوصف بها إلا من كثرت صحبته واتصل لقاؤه ولا يجرى هذا الوصف على من لقى النبى ساعة ومشى[٢] معه خطاً أو سمع منه حديثاً والرأى الأول هو المشهور بين السنة والمعتمد لديهم فيجب أن تكون على ذكر دائم منه كى نرى مقدار صحة ما أعطوه من الصفات وما حملوا من الكرامات لمن اتصف بهذه الصحبة التى لم تدم سوى لحظة رأى فيها إنسانٌ النبى أو سمع منه حديثاً، يجب أن تكون على ذُكر مستمر وإحاطة كاملة بهذا التعريف كى نرى البركات والخيرات التى أعطيت لمن حمل اسم الصحبة واكتسبها فى لحظة واحدة لأن هذه اللحظة سترد كل الاشكالات التى توضع على أى إنسان مرّت فى حياته هذه اللحظة، واكتسب شرف الصحبة، إن هذه اللحظة سترفع قوماً من الناس عن سائر الناس ويكون لهم شأن أى شأن، إنه شأن يطوى الحديث عنهم إلا بالخير مهما فعلوا ومهما ظهرت منهم أمور منكرة أو مستهجنة.

عدالة الصحابة

إن هؤلاء الصحابة الذين عرفنا متى ينطبق عليهم هذا العنوان - وقد تقدم أنه يكفى رؤية النبى ولو لحظة أو سماعه ولو حديثاً واحداً - هؤلاء الصحابة قد أعطوا من الحصانة ما لا يجوز معه أن يُذكروا إلا بالتقدير والتعظيم والمدح والثناء ولا يجوز أن يقترب أحد من ساحتهم بأية علامة استفهام أو سؤال عن تصرف يُشْعَر منه أنه يحط من كرامة أحدهم أو يمس بعدالته. هؤلاء الصحابة قد أعطاهم أخواننا السنة ميزة زائدة عن جميع المسلمين، إنها ميزة العدالة المطلقة لكل من اتصف أنه صحابى مهما عمل من الموبقات وارتكب من الجرائم والمخازى، إن الصحبة قد هدمت كل شائنة وغفرت كل جرم فلا يجوز فى المنطق أن

(١) الإصابة ج٩ فى بيان حال الصحابة من العدالة.

(٢) الكفاية: ٥١.

تقول لماذا؟ لمن اتصف بالصحبة، أو لِمَ لمن حمل اسم الصحبة إنها اسم لإنسان مبرّأ من جميع الذنوب معدّل بصيغة اللحظة التى اكتسبها أو بحديث الذى سمعه من النبى..

ولذا قال ابن حجر[1] فى الإصابة: اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف فى ذلك إلا شذوذ من المبتدعة.

وقال الآمدى فى الأحكام: اتفق الجمهور من الأئمة على عدالة الصحابة وقال قوم حكمهم فى العدالة حكم من بعدهم فى لزوم البحث عن عدالتهم عند الرواية.

فالرأى المشهور والأكثر شيوعاً الذى عليه يبنى الجمهور من السنة «إن الصحابة عدول» وإن خالف بعضهم فى ذلك ووافق الشيعة فى عدم إعطاء هذه الصفة للجميع.

والعدالة التى أعطيت لهؤلاء الصحابة هى عبارة عن الملكة التى تمنع الإنسان من ارتكاب المحرمات وتدفعه إلى القيام بالواجبات يعنى حالة نفسانية تجعل من هذا الإنسان دائم المراقبة على نفسه متطلعاً بحذر عن الوقوع فى الحرام غير مقصر فى أداء الواجبات.

وإذا تنزلنا عن كونها ملكة فلابد من القول إن العدالة هى السير فى جادة الشريعة الإسلامية المقدسة وعدم الانحراف عنها يميناً أو شمالاً بأن لا يرتكب معصية بترك واجب أو فعل حرام.

هذه هى العدالة التى أعطيت للصحابة جميع الصحابة بدون استثناء - حتى لمن رأى النبى ولو مرة واحدة أو سمع منه ولو حديثاً واحداً - فهل هذا شىء صحيح؟ وهل كان الصحابة كلهم كذلك؟ هذا ما يكشفه البحث بعد ذلك ويحدده الدليل.

ثم إنه بعد إعطائهم هذه العدالة ترتبت أمور واعطيت لهم امتيازات لم تعط لأحد من الناس.

فقد ترتب على القول بعدالتهم أمور منها:

١- عدم جواز البحث عن حالهم فإذا وصلت الرواية إلى أحدهم انكسر القلم وخرس المنطق فلا يجرى عليهم قانون الجرح والتعديل.

٢- حمل كل ما صدر منهم من هفوات وعثرات ومذلات ومخالفات على الإجتهاد فإنه أحسن علاج لجميع المصائب والويلات.

٣- من يجرح أحدهم فهو خارج عن الدين زنديق يريد أن يجرح الشهود ليبطل

(١) الإصابة ج١ ص٩ فى بيان الصحابة من العدالة.

الكتاب والسنة لأنهم هم الذين حملوها إلينا..

وهناك دعاوى أخر ألقيت جزافاً دون مستند أو دليل فالأجدر بنا أن نعرض أدلة القوم وما استدلوا به على عدالة جميع الصحابة لنرى هل تنهض بما ادعوه أو أنها براهين فاشلة لا تثبت شيئاً من ذلك..

أدلة القوم من الكتاب:

لقد استُدل على عدالة الصحابة جميعاً - حتى من رأى النبى مرة أو سمع منه حديثاً - بعدة آيات خارجة عن الموضوع لا صلة لها بما ادعوه.

قال ابن حجر فى الإصابة ناقلاً عن الخطيب فى الكفاية قوله:

عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وأخباره عن طهارتهم واختياره لهم فمن ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[2] وقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[6] إلى قوله: ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وفى آيات كثيرة يطول ذكرها وأحاديث شهيرة يكثر تعدادها وجميع ذلك يقتضى القطع بتعديلهم ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله إلى تعديل أحد من الخلق.. إلى أن يقول.. وإنهم كافة - الصحابة - أفضل من جميع المخالفين بعدهم والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم..

هذه هى الآيات التى استُدل بها على عدالة الصحابة وهناك آيات أخرى بروحها وعلى نسقها وهذه الآيات لو دققنا النظر فيها لوجدنا أنها لا تدل على المطلوب ولا تفى بإثبات المراد فإن هذا الاستدلال غير تام لعدة أمور.

١- إن هذه الآيات لم ترد فى جميع الصحابة ولا تشملهم كلهم بل هى خاصة فى

---

(١) آل عمران: ١١٠. (٢) البقرة: ١٤٣.
(٣) الفتح: ١٨. (٤) التوبة: ١٠٠.
(٥) الأنفال: ٦٤. (٦) الحشر: ٨.

البعض منهم ويدلنا على ذلك أن نلقى نظرة أخرى نحو كتاب الله لنجد الحشد الكبير من الآيات التى تتعرض للصحابة - ليس كلهم - فإن الصورة التى يمكن أن نكوّنها عنهم وتكشف حقيقة بعضهم بجلاء بل انظر إلى سورة براءة المسماة بالفاضحة وضع كل آية موضعها فإنك تجدُ التنديد بمن لم يطع الله ورسوله وتحمل بشدة وعنف على أولئك المنافقين الذين يلبسون من الأقنعة ما طاب لهم ووافق هواهم، وهذا نموذج من تلك الآيات فانظر لمن خاطبت وبمن نزلت:

قال تعالى: ﴿لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[2].

قال تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[3].

بمن نزلت هذه الآيات إلى عشرات أمثالها؟ ألم تنزل فى أولئك الذين عاشوا مع النبى وسموا على مسلك القوم (صحابة) فأين نضع هذه الآيات وقد كان سبب نزولها أولئك الذين عاشوا عصر النبوة فأبوا الإيمان الحقيقى بل أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر والنفاق.

هل يمكن أن نقول إن هذه الآيات نزلت بدون سبب؟ وهذا إنكار لما هو ضرورى.

هل يمكن أن نقول إنها نزلت بقوم لم يخلقوا؟ وهذا بهتان ودجل.

هل يمكن أن نقول إنها آيات لم تتحقق مصاديقها؟! هذا يكذبه الواقع ويرفضه الوجدان.

نعم إنها نزلت فى قوم عاشوا مع النبى، إنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا كسالى إنهم

(١) التوبة: ٤٤- ٤٦. (٢) التوبة: ٥٣، ٥٦.

(٣) الحجرات: ١٤.

قوم ممن استسلموا ولم يسلموا ممن أظهروا الإيمان وأبطنوا النفاق انظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

بمن نزلن هذه الآية؟ ألم تنزل بجماعة ممن عاش مع النبى وتسمى باسم (الصحابة) ولمن خاطب الله تعالى بقوله ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ ألم يخاطب جماعة معينين؟.. ألم يتلق التى هذا الوحى ليبلغه المسلمين ويعرف أولئك الذين أنفقوا رياء وكذباً ودجلاً أنهم قد وسموا بسمة لا تمحى آثارها ويبقى عارها.

وانظر إلى فرارهم يوم حنين وكيف نزل الوحى مصوراً حالهم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

إنهم كانوا أكثر من عشرة آلاف شخص لم يبق مع النبى منهم إلا سبعة نفر على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب والفضل ابنه وغيرهم وأما الباقون فإنهم فروا دون حياء أو خجل فروا عن رسول الله وتركوه فى المعركة، أسلموه للأعداء ولاذوا بالفرار.

ويشهد لفرارهم هذا ما رواه البخارى فى صحيحه الذى صحّح القوم كل ما فيه: عن أنس قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع النبى عشرة آلاف من الطلقاء فأدبروا عنه حتى بقى وحده، ولم يبق معه غير على ونفر ممن خلصت نياتهم لله.

فأين جموع المسلمين والصحابة العدول، كيف فروا؟ لماذا فروا؟ كيف تركوا رسولهم وحده مع على وخلص أصحابه؟ إنها أسئلة تحتاج إلى أجوبة.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

إن هذا الخطاب فى هذه الآية المباركة والتى يذكر فيها الارتداد بهذه الصورة التى تكون عقيب موت النبى إنما هو خطاب موجّه إلى أولئك الصحابة الذين وسموا بالصحبة والذين نزههم الناس عن كل عيب أو دنس فإذا كان قولهم صحيحاً فى عدالة الصحابة فأين يضعون هذه الآية؟ ولماذا أنزلت؟ وبمن نزلت؟

إن النظر إلى الآيات المادحة فقط دون الآيات الذامة نظر بعين واحدة مع إغماض الأخرى عمداً وهو نظر مرفوض فى لسان الإسلام مخالف لدين الله وكتابه، إنه يكون من

الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر وهذا غير جائز ولا سائغ فما ارتآه الشيعة من قوله: إن بعض الصحابة عدول أمناء ثقاة لهم أجر الجهاد والبذل والعطاء والتضحية وأن هناك بعضاً آخر منافقون فاسقون كاذبون هذا الرأى هو الصحيح المعتمد الذى يوافق كتاب الله ووحيه المنزل على رسوله الكريم.

٢- إن هذه الآيات المادحة والمشيدة بفضل هذه المجموعة التى عاشت مع النبى كلها مقيدة ومشروطة بعدم ظهور شىء منهم يخالف الدين أو يتنافى وشريعة الله يعنى إن آيات المدح والثناء لهؤلاء الجماعة مشروطة بثباتهم على ما هم عليه من الإيمان والالتزام بالتقوى والورع والعمل الصالح وإلا لو قام أحد هؤلاء بقتل النفوس البريئة وإزهاق الأنفس المعصومة هل من عاقل يتفوه وينطق ويعتذر عنهم بأن آيات المدح والثناء تشملهم فلا تثريب عليهم ولا حرج فيما فعلوا بعد ذلك من الموبقات والجرائم إن هذا إلا خبل ودجل.

فانظر إن شئت أن تتأكد من ذلك إلى خطاب الله لنبيه الكريم الذى قال له: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[1] انظر كيف يخاطبه الله بقوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2].

انظر إنه رسول الله أفضل خلق الله وخيرهم، اصطفاه الله بعلمه وارتضاه لرسالته وجعله أميناً على وحيه ومع ذلك يهدده بهذا البيان القوى الذى لا يريد به شخصه – لأنه بحسب معتقدنا وإن توجه الخطاب إليه فإن المراد سواه من أمته، إن رسول الله وسفير وحيه مع منزلته التى لا يدانيه فيها أحد يهدده الله تعالى بهذا التهديد الفظيع. بل انظر إلى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[3] فمع أنه رسول الله وصفوة البشر المعصوم من الخطأ والزلل يهدده الله بأنه ترك حكماً واحداً لم يبلغه فكأنه لم يفعل شيئاً ويكون العقاب كبيراً.

فإذا كان الله تعالى قد شرط هذا الشرط على رسوله فهو فى حق أصحابه أحق وأولى فإن الإشادة والإكبار والمدح والثناء أعطى لهم ذلك كله مشروطاً بالثبات على الإيمان وعدم ظهور ما ينافى الإسلام، وهذا شىء لم يثبت الجميع عليه بل هناك فريق من الصحابة قد ارتد بعد إسلامه ومنهم من شرب الخمر عمداً وجلد حداً فى الإسلام ومنهم المنافق الفاسق ومنهم الذى خالف دين الله فى كثير من أحكامه إلى غير ذلك من الأمور التى تنفى ثبات

---

(١) الفتح: ١، ٢.   (٢) الزمر: ٦٥.

(٣) المائدة: ٦٧.

الجميع فإذا كان منهم من بقى على حب الله ورسوله وجهاد فى سبيل الله يبغى بعمله الله والدار الآخرة فإن منهم من لم يثبت على ذلك وهذا هو رأى الشيعة ومسلكهم الصحيح، فإن الشيعة لا تجحد فضل الصحابة المجاهدين ولا تطعن فى الجميع فإن الطاعن فى الجميع كافر فاسق مائن إذ فيهم النخبة الممتازة التى صدقت ما عاهدت الله عليه ووفت بعهد الله وبذلت مهجها فى سبيله لم تؤثر عمى على هدى ولم تمل من حق إلى باطل وإنما الشيعة تقول: إن الصحابة ليسوا كلهم كذلك وهذا هو ما ذهب إليه بعض المحققين من علماء السنة قديماً وحديثاً ومنهم فى عصرنا هذا الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا والشيخ المحقق محمود أبو ريه صاحب كتاب (أضواء على السنة المحمدية) الذى حقق فيه أعلى وأغلى تحقيق فى هذا الباب وخرج مجلياً فائزاً بقصبة السبق فى هذا المضمار حيث برهن بأجلى الأدلة وأوضحها ما ذهب إليه الشيعة ووافقهم نصاً وروحاً فيما ذهبوا إليه وإن لم يكن منهم وأفرد لأبى هريرة كتاباً مستقلاً بين فيه دجل وكذب شيخ المضيرة بشكل لا يمكن دفعه أو رده - وهو ممن سموه صحابياً - وأعطوه كل ما للصحابة من صفات وكرامات..

٣- ونقول ثالثاً إن هذه الآيات وردت فى مواطن خاصة وظروف خاصة ولا تتنافى مع ارتكاب أصحابها لما يخالفها فهى بمثابة ما لو فعل ابنك شيئاً حسناً فمدحته على ذلك الشىء فإن مدحك له لفعله ذاك لا يستدعى أن تكون كل أفعاله الآخر المستقبلية ممدوحة فقد يبقى مثابراً على الأفعال الحسنة والطيبة وقد لا يبقى.

فإن قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] مرهونة هذه الخيرية بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حيث أن تمام الآية هو قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فلو أن المسلمين لم يعملوا ذلك هل تبقى هذه الخيرية لهم؟! كلا ثم كلا وإنما اكتسبت هذه الأمة خيريتها من القيام بهذا الواجب فإذا أهملته سقطت. يضاف إلى ذلك أن هذه الخيرية للمجموع لا للجميع فلا تنافى بين أن تكون الأمة خيرة ويكون بعض الأفراد شريرين فاسدين.

٤- إن استفادة العدالة بمعناها الواسع العريض من هذه الأيات الكريمة يتنافى مع ما صدر من هؤلاء الصحابة، سواء ما صدر بينهم خاصة أو بينهم وبين المسلمين وسنأتى على ذكر بعض تلك الأحداث والمخالفات اللاشرعية وهذا يكشف عن أن هذه الآيات ليست بصدد تعديلهم أو إعطائهم الثقة حتى فى مستقبل الأيام التى بعدُ لم تأت.

(١) آل عمران: ١١٠.

٥- إن هذه الآيات المادحة للصحابة والمثنية عليهم لو كانت بمعنى العدالة التى أثبتها لهم من تأخر عنهم لاحتج بعضهم بها على الآخر ورس ـتقبرته معتذراً بهذه العدالة ولكن لم نجد أحداً اعتذر أو جعله غطاء شرعياً لكل ما فعل، وهذا بنفسه يكشف عن كون هذا المدح والثناء ليس تعديلاً لهم بالمعنى الذى نحته لهم المتأخرون.

هذه بعض الإشكالات التى تدفع الاستدلال بالآيات على المطلوب من تعديل الصحابة جميعاً.

أدلة القوم من السنة:

هناك روايات مادحة للصحابة مطرية لهم ترفع من شأنهم وتثنى عليهم هذه الروايات فيها الغث والسمين والضعيف والهزيل والمراسيل والمقاطيع ولاشك فى صدور بعضها عن النبى كما لا إشكال فى أن بعض الصحابة يستحقون ذلك وهم له أهل فإن مدح النبى لشخص لا يكون جزافاً وتقييمه لفرد ينبع من استحقاق وكفاءة الممدوح فإن النبى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى وإنما الخلاف والنزاع فى أن هذا المدح هل يشمل جميع الصحابة بما فيهم من رأى النبى ولو لحظة واحدة ثم فارقه فلم يره بعد ذلك أبداً أو أن هذا المدح يختص ببعض الصحابة فقط ولا يشمل الجميع.

ثم أن هناك سؤالاً يُطرح: ما مدى دلالة هذا الثناء والمدح هل يراد به الإشادة والتنويه بما قدموه أو يراد به العدالة؟ التى تقدم معناها؟

ونحن نستعرض بعض تلك الأخبار لنرى مقدار دلالتها ووجه الحق فيها.

استدل القوم على عدالة الصحابة من السنة الشريفة بعدة أخبار.

١- ما روى عن النبى (ﷺ): أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم والرد على هذا الحديث بخصوصه واضح فإن إشارات الوضع ظاهرة عليه وبطلانه تحملها عناصر عباراته فإن رؤى الحقيقة ومسحة العطر النبوى خالية عنه وذلك لعدة أمور.

الأول: لو صح الحديث لدل على عصمة الصحابة وأنهم قوم لا يطرأ عليهم حتى السهو والنسيان فإن مفاد الحديث ذلك ومؤداه ما قلناه وهذا خلاف الإجماع من المسلمين ولم يدعه أحد منهم.

الثانى: إن فى الصحابة من ظهر فسقه وبان جوره وتحدث الناس بمنكراته واستهتاره ويكفيك ما ذكره القرآن فى سورة براءة التى سميت الفاضحة لأنها كشفت أسرارهم

وهتكت نواياهم وأبانت ما هم عليه من الجشع والطمع وعدم الإيمان الصحيح.

الثالث: لو كان هذا الحديث صحيحاً وكان كل من اقتدى بأحد من الصحابة اهتدى لكان قاتل عثمان وناصره سيان لأن إجماع الصحابة تم على التخلص منه وتلك أقوالهم مسطورة وكلماتهم منثورة فى التواريخ والسير والكتب المعتبرة، ولكان المتمسك بعرى الخلافة الإسلامية وقائدها الإمام على مع من توقف عن بيعته أو حاربه كلهم على حق وهدى، وخير وصلاح وهذا من عجائب الأمور وغرائبها بل من مستحيلاتها التى تحققت بالإعجاز. يضاف إلى ذلك أن الصحابة قد اختلفت طريقتهم وتعددت مشاربهم حتى فى أمور الدين التى عاشوا تطبيقاتها فى ظلال النبوة وتحت رعايتها، بل كان الإختلاف يصدر من أحدهم إذا تعدد الوقت أو المكان فقد يفتى بحكم ثم ينقضه وقد يقول قولاً ثم يقول بضده وخلافه كما وقع ذلك للخليفة عمر بن الخطاب يذكر ابن أبى الحديد فى شرحه: كان عمر يفتى كثيراً بالحكم ثم ينقضه ويفتى بضده وخلافه قضى فى الجد[1] مع الأخوة قضايا كثيرة مختلفة ثم خاف من الحكم فى هذه المسألة فقال: من أراد أن يقتحم جراثيم جهنم فليقل فى الجد برأيه.

فإذا كان الإختلاف فى القول والحكم يحدث عند شخص واحد وهو من الرعيل الأول فهيّا إلى مجموع الصحابة لترى الغرائب والعجائب. إنك ستذهل ستقف مدهوشاً مأخوذاً من تضارب الآراء واختلافها، إنها آراء متعددة فى مسألة واحدة وكلها قد لا يكون لها فى الإسلام نسب ولا صلة، فكيف نهتدى مع هذه الإختلافات الكثيرة وهذه الحرب الضروس فى الآراء والأفكار كيف نهتدى وهى لا تنسجم مع روح الإسلام وعدالة السماء، فالحق واحد والشريعة واحدة وما حكم به محمد (ﷺ) رسول السماء لا يتعدد فالمسألة لا تحتمل فى منطق السماء أكثر من رأى واحد فكيف تشبعت الآراء وتعددت وكيف تكون الهداية بالاقتداء بالجميع بجميع الآراء المتناقضة المتضاربة.

ثم إن بعضهم كان يدرك أنه فى معرض الخطأ والزلل وهذا يؤدى به إلى الخطر فكان يتراجع، كان يدرك أنه ليس على الحق وهذه تصريحات الخليفة عمر تفصح عن ذلك وتشير إليه وما قوله (لولا على لهلك عمر) إلا شاهد صدق على أن الإهتداء لا يكون بالإقتداء بأى صحابى كان بل هناك قوم من خاصة النبى الذين عصمهم الله من الزلل وآمنهم من الفتن وأوضح بهم الطريق فأبان فضلهم للناس أجمعين، هؤلاء هم المعصومون، هم وحدهم

---

(١) شرح النهج لابن أبى الحديد ج١، ص١٨١.

الذين نزل القرآن فيهم نزل بتطهيرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ هؤلاء هم الذين يقول فيهم النبي: النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الإختلاف[1] فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس، وهم الذين قال فيهم رسول السماء (إنما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل[2] باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له) إذن فحديث أصحابي قد حرِّف عن واقعه وأزيح عن مواضعه، قد لعبت فيه أيدي الأمويين بأمر طاغيتهم معاوية الذي لا يرد له أمر وليست هذه هي أول قارورة تكسر في الإسلام ولا أول حديث تختلق العثمانية مقابله حديثاً يوافق ميولها وشهواتها... فانظر إلى الحديث الصحيح المسند المعنعن الذي قاله النبي في حق الإمام: (أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها) انظر إلى هذا الحديث الذي اتفقت عليه الأمة وصدقة الواقع كيف اختلقت الأيدي الخبيثة مقابله حديث (أنا مدينة العلم وعلي بابها وأبو بكر أساسها وعمر حيطانها) لقد راق للمضللين أن يكذبوا على رسول الله ويحرفوا الحديث عن واقعه لقد أقلق مضجعهم أن ينفرد عليٌّ بهذا الشرف الرفيع والعز المنيع فأرادوا إشراك الخليفتين فأكملوا الحديث من عندياتهم تبرعاً ونافلة. وهناك غير هذا من المواضيع التي لم تكن بصدد التعرض لها هنا ولها محلها والمعد لها...

الرابع: إن هذا الحديث معارض بما رواه البخاري - وهو أصح الكتب عند القوم ويعدّ تالي القرآن بل عدله، وأنا لا أريد أن استوعب كل ما جاء في الصحيح في هذا الباب وإنما أكتفي بنقل بعضها لتقف عليه وتحكم بنفسك هل أن جميع الصحابة عدول ثقات؟

وهل أن الإقتداء بأي واحد منهم يؤدي إلى الهداية ويعصم من الضلالة أو أن هذا الكلام لا أصل له ولا أساس بل ابتدعه المحبون والمعجبون بالصحابة أو الذين يريدون ستر عورات بعضهم بخلق ما يهين السنة ويوهن كلام رسول الله وحديثه.

١- روى البخاري عن ابن عباس عن النبي (ﷺ) قال: إنكم تحشرون حفاة عراة وأن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي! أصحابي! فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح (وكنت عليهم

(١) مستدرك الصحيحين ج٣ ص٤٩.

(٢) الهيثمي في مجمعه ج٩ ص١٦٨.

شهيداً ما دمت فيهم).

أنظر إلى هذا الحديث فهل عليه غبار؟ إنهم من صحابة النبى أولاً؛ وأنهم قد ارتدوا متى فارقهم ثانياً؛ فإنهم من أهل النار عاقبة ونتيجة فهل يدين الشيعة بغير ما يؤدى إليه الحق والسنة الصحيحة!...

٢- روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى (ﷺ) قال: بينا أنا قائم فإذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم قال: هلم، قلت أين؟ قال: إلى النار والله، قلت وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم، قال: هلم، قلت: أين؟ ... قال: إلى النار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم وفى رواية أخرى أن النبى قال: يرد علىّ يوم القيامة رهط من أصحابى فيحلأون علىّ الحوض فأقول: يارب أصحابى؛ فيقول: (إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى...) فهذه الروايات بمفاد الأولى إلا أنه لا يسلم من أصحابه رلا مثل همل النعم إنهم قلة قليلة بقيت ثابتة على المبدأ الذى فارقها عليه رسول الله، إنهم خلص أصحابه وأهل بيته ومن أطاعه فى أوامره ووصاياه وأما أولئك الذين نبذوا الكتاب وقتلوا العترة وأزالوها عن مراتبها إنهم من أصحاب النار إنهم مصاديق هذا الحديث الشريف وما قبله ولا تنفعهم الهالات المقدسة التى صاغها لهم أتباعهم ومحبوهم.

٣- روى البخارى عن عبد الله عن النبى: أنا فرطكم على الحوض وليرفعن رجال منكم ثم ليختلجن دونى فأقول: يارب أصحابى، فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك.

بربّك أعد قراءة هذا الحديث وقف أمامه مفكراً هل يقودك فكرك إلا أن تقول كما هو نص الحديث؛ أصحابى: إنهم صحابة النبى لا غيرهم ممن يأتى بعدهم، وإنهم أحدثوا ولابد أحداثاً ضخمة كبيرة ومعاصى أوجبت دخولهم النار فهل إلى غير هذا يقودنا الحديث وهو نص فى ذلك لا يحتمل معنى آخر أو دلالة ثانية. إنه كذلك...

٤- يروى البخارى عن حذيفة: أن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبى كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون.

هذه بعض الأحاديث التى أوردها البخارى وهو فى نظر القوم مما لا يجوز التشكيك فى مروياته بل يجب العمل بها والإيمان بمضمونها. نقول لهؤلاء القوم كيف تعملون بهذه الروايات وهى فى البخارى وأنك أيها المسلم لابد أن تكون ممن يستمعون القول فيتبعون

أحسنه وأحقه وأقربه إلى الصواب فانظر إلى هاتين الطائفتين واحكم فإن سنة الله جارية في المجتمع أن يكون فيهم الطيب النقي التقي وأن يكون فيهم المجرم العاصي الشقي ولم تتخلف هذه السنة في صحابة رسول الله الذين عاشوا معه ورأوه مضافاً إلى أن الكتاب والسنة يشهدان بذلك ويؤيدانه. واستدل أيضاً على عدالة الصحابة بما في صحيح البخاري من قول النبي (ﷺ): خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

وعن عبد الله بن عمر: أن النبي قال: خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته.

وهذا المضمون غيره في الطائفة الأولى التي استدل بها على عدالة الصحابة وهذه الطائفة يمكن أن نجيب عنها...

أولاً: إن الخيرية باعتبار المجموع وليس باعتبار الأفراد فليس معنى قولنا: العرب حملوا رسالة الإسلام إن كل واحد منهم حملها بل أن هناك من وقف في وجهها وحاربها وقتل المؤمنين بها فكذلك قوله خير الناس قرني ليس نصاً في الأفراد حتى نجمد عليه.

وثانياً: إن الأحداث التي جرت في ذلك القرن تدلل على خلاف ذلك إذ كان شر قرن، فما ذكر إلا وتبادرت إلى أذهاننا تلك المآسي والمظالم ومر شريط الأحداث ناقلاً أفظع وأقسى الأيام والساعات.

ففيه قد ابتدأ النزاع بين المسلمين وتفرق الناس شيعاً وأحزاباً فبعد الإجتماع بقيادة النبي فرّقتهم سقيفة بني ساعده التي اغتصب فيها حق سيد الوصيين علي بن أبي طالب فأزيحت الخلافة عن رواسيها وأبعدوها عن أهلها وكانت هذه أول الهنات وأعظم المشكلات ومنها تفرع كل ما حدث وجرى من مصائب وويلات وأحداث وحزازات.

وفي ذلك القرن - الذي هو خير القرون عندهم - استشهد سيد المسلمين وإمام المتقين علي بن أبي طالب بسيف الشقي ابن ملجم، وفيه طعن عمر وقتل عثمان واستشهد سبط رسول الله وسيد الشهداء الحسين بن علي بطل كربلاء وفيه استبيحت المدينة الطيبة مدينة رسول الله ﷺ وأفتضت الابكار بغير حق وذبحت الشيوخ والأطفال وانتهبت الأموال وهدمت الدور، ولو جئنا لنعدد المحن والمآسي لسودنا مجلدات وأتلفنا أوراقاً كباراً ويكفي أن نلقي نظرة على ولاية معاوية وما حدث فيها من قتل وصلب وتشريد ونعطي لمحة قصيرة على دور الجلادين والمجرمين كبسر بن أرطأة بن عقبة وزياد بن أبيه لنرى التاريخ المظلم والقرن السيء بحالة تؤهله للفوز على سائر القرون سوءاً وقبحاً.

وثالثاً: إن هذه الأحادث معرضة بما هو مروى فى الصحاح بل وغيرها مما هو حسن يرتقى إلى سلم الصحة. ففى البخارى، فى خلق أفعال العباد من حديث أبى جمعة ولفظه: كنا مع رسول الله (ﷺ) ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة، فقلنا يا رسول الله هل من أحد أعظم منا أجراً. آمنا بك واتبعناك، قال (ﷺ): وما يمنعكم من ذلك ورسول الله (ﷺ) بين أظهركم يأتيكم بالوحى من السماء بل قوم يأتون من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين فيؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجراً. ومنها قوله (ص) مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره. ومنها ما رواه أحمد والطبرانى من حديث أبى جمعة قال: قال أبو عبيدة يا رسول الله أأحد خير منا، أسلمنا معك وجاهدنا معك، قال: قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى؛ وقد صحّح الحاكم هذا الحديث وهو المتفق مع روح الإسلام وتعاليمه الذى يرهن الثواب بما يقدمه الإنسان من أعمال وخيرات وما يسديه للناس من معروف وصلاح وإن الإيمان بما فى الكتب من خلال البحث والفحص أشق بكثير من الإيمان والرسول بين أظهرهم والحجج أمامهم ومعجزات الرسول تترى فى كل وقت تحت أبصارهم.

وهكذا يكون جميع ما استدل به القوم من السنة باطلاً إما لوهنه وضعفه أو لوجود معارض له أقوى منه أو لأن الواقع يكذبه ويناقضه.

الصحابة بين العادة والإعتبار

توفى النبى (ﷺ) عن عدد ضخم من الصحابة يمنع عادة استقامة الجميع ولا تقبل دعوى عدالتهم كلهم فإنه صلوات الله عليه قد قضى ربع قرن من الزمن يدعو إلى الله ويبشر الذين يخافون ربهم فبلغ رسالة ربه وكان فى مطلع كل شمس ومغربها يرى وجوها جديدة حتى تكاثر العدد بحيث لايمكن حصرهم إذ رب إنسان أسلم قد رجع إلى قبيلته وعشيرته وآخر قد مرّ عليه النبى (ﷺ) فأسلم وبقى فى مكانه وثالث قد أدرك النبى آخر أيام حياته ولم يتمتع بطول صحبته وخصوصاً إذا لاحظنا الأيام الأخيرة من سنى الدعوة حيث خرج مع النبى فى حجة الوداع مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً على بعض التقادير يضاف إليهم من خرج من قبائل العرب وأفناء الناس للحج مع رسول الله وقد عم الإسلام سائر القبائل والعشائر وغزا جميع أطراف الجزيرة العربية حتى لم يبق حى إلا وللإسلام فيه صوت وللإيمان فى أركانه صدى، وأن هذه الأرقام الضخمة الكبيرة لتعداد الصحابة لم يجر فى العادة عدالتهم كلهم فإن السير جارية على عدم صفاء مثل هذا الجمع واستقامتهم فإنه بحسب الأحوال الإعتيادية لابد وأن يحوى هذا العدد ما هب ودب، ممن هو خير طيب وآخر

ضال فاسد، وهذا الرأى ليس غريباً فإننا نجد فى قرية صغيرة لا يتجاوز تعدادها ألف نسمة نجد فيها البر التقى والمحسن المتدين والد ' "عارف ونجد فى نفس البلدة المجرم المسىء والخائن المائن والفاسق الفاجر، نجد فيها أطهر الناس وأقدسهم ونجد إلى جانبه الحقود الفاسد مع أن التربة واحدة والماء واحد والهداية متوفرة لكلا الرجلين. ولكن أحدهما اختار الضلال على الهدى والباطل على الحق أو انحرف بعد الهداية وفسق بعد الطاعة والإيمان بينما نجد الآخر اختار عكس ذلك وخلافه وإذا كان هذا الإختلاف يجرى فى بلدة صغيرة تتوالى عليها النذر ويكثر فيها المبشرون والعلماء والدعاة إلى الله، فكيف بك إذا تكاثر العدد وتضخم حتى شمل أمة بأسرها وبلغ عدد الصحابة فوق الحصر والإحصاء كيف يمكن أن نحكم بعدالة الجميع ووثاقتهم مع أن العادة جارية على خلاف هذا الرأى وضده؟

ثم أن المدرك بالوجدان أن كثيراً من الأشخاص يدخلون فى أمر من الأمور لأجل غاية فى أنفسهم فعندما يعجزون عن إدراكها تراهم يرتدون القهقرى وينكصون على الأعقاب ونحن نبصر من خلال الأحداث التى أعقبت فتح مكة أن كثيراً من الناس قد استسلم ولم يسلم، استسلم خوف حد السيف أن يناله فأعلنها كلمة على اللسان دون أن تدخل الجنان وأن منهم من أراد بدخوله فى الإسلام تقدماً وجاهاً ورفعة وسلطاناً فلما أفلس من هذه الجهة رجع إلى عبادة اللات والعزى ومناة وما ارتداد من ارتد إلا شاهد صدق على ما أقول.

مضافاً إلى أن هداية جميع الصحابة وعدالة كل من رأى النبى ليس من معجزات رسول الله (ﷺ) حتى نقول: بأن هذه المعجزات غيرت العادة وأبدلت السيرة والسنة الجارية.

لم يذكر فى السير ولا السنن أن من معجزاته صلوات الله عليه «أن كل من رأى النبى أو سمع منه ولو حديثاً واحداً صار صالحاً عدلاً» فإن معجزاته معدودة مذكورة قد سردها وحصرها المؤلفون فى السير والتاريخ ويذكرون منها انشقاق القمر، وإطعام الطعام القليل للجمع الغفير وحنين الجذع ونطق الجمادات له، ومن أظهر معجزاته وأوثقها كتاب الله الخالد الذى خشعت لبلاغته الفصحاء وسجدت له الأدباء والحكماء ولم يذكروا أن هداية أصحابه كلهم كانت من معجزاته، فالإعتبار يقود الإنسان إلى القول بأن فى الصحابة من لا هم له فى الدين ولا قدم صدق له فى الإيمان كأبى سفيان ومعاوية وكثير من الأمويين وصنائعهم وأذيالهم. ولو كان تعديل الصحابة جميعاً رأياً للشيعة لوجدت الحرب الشعواء عليهم ووجدت وصمهم بالغلو من أجل ذلك ورميهم بالإنحراف عن الإسلام لدعواهم تلك ولأحتجوا عليهم بالاعتبار والعادة الجارية بين الناس وسائر البشر ولكن بما

أن العامة هم القائلون بتعديل الصحابة كلهم فيجب تغير العادة ويجب أن نخرج عن حد الإعتبار ونعدل الجميع وتنعكس الصورة تماماً فيصبح من يذهب إلى خلافهم من أهل الأهواء والبدع وإن كان رأيه حقاً وقوله صدقاً. فتأمل وتعجب..

سيرة الصحابة مع بعضهم:

إذا كان الإقرار من الإنسان الواعي الكامل المختار من أقوى الحجج لإدانته فإن أظهر الأدلة وأقوى البراهين على عدم كون الصحابة في المرتبة التي جُعلت لهم من العدالة، ما صدر من بعضهم ضد البعض الآخر، فإن كلماتهم وما جرى بينهم يكشف بوضوح أنهم قوم كبقية الناس تحكمهم طبائع البشر وغرائزهم وتتحكم في بعضهم الميول والرغبات وتسيطر عليهم لحظات من الضعف البشري والهبوط حتى صدر من بعضهم ما لا يصدر من بعض المسلمين في زماننا هذا، وليس ما نقوله مجرد دعوى ينقصها البرهان أو يعوزها الدليل بل باستطاعتنا أن نأتي بالشواهد الكثيرة التي بها نثبت ما نقول وهذه هي بعض أقوالهم وما جرى بينهم أذكرها كشواهد لإثبات ما أقول.

المشهد الأول: موقف الخليفة الأول من سيدة النساء فاطمة:

فاطمة الزهراء هي البنت الوحيدة التي خلفها النبي وأوصى المسلمين بها، إن مودتها وكسب رضاها هو مطلب أجر الرسالة بقوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ وقد مثلت الزهراء (ع) أفراد هذه الآية المباركة فحق على المسلمين أن يحفظوا وصية رسولهم بوحيدته ويرعوها إكراماً لرسول الله الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور وهداهم بعد الضلال والعمى. وهذه بعض النصوص التي وردت عن رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى في حق بضعته الزهراء.

قال النبي (ﷺ): يا فاطمة إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك.

قال النبي (ﷺ): كما في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما: فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها.

قال النبي (ﷺ) لفاطمة: إن الله يغضب لغضبك[1] ويرضى لرضاك.

قال النبي (ﷺ): فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني[2].

(1) مستدرك الحاكم والصواعق المحرقة وغيرها. (2) صحيح البخاري.

قال ابن حجر: وفيه تحريم أذى من يتأذى المصطفى (ﷺ) بتأذيه فكل من وقع منه في حق فاطمة شيء فتأذت به فالنبي يتأذى به بشهادة هذا الخبر.

إن هذه الأخبار قد وردت في أصح كتاب بعد كاتب الله في نظر القوم وهو صحيح البخاري وهي تفصح بأعلى صوتها أن في أذية الزهراء أذية لرسول الله وأن كل ما يغضبها يغضب رسول الله وإذا ثبت ذلك فلنأتي إلى الخليفة الأول لنرى هل أرضى فاطمة أم أسخطها؟ هل آذاها أم لم يؤذها؟ إذا أردنا نعرف ذلك فهيّا بنا إلى قصة (فدك) ميراث الزهراء من أبيها حيث طالبت بها فمنعها الخليفة بحجة أنه سمع حديثاً من رسول الله - نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة - حديث لم يروه إلا الخليفة ولم يسمعه إلا هو مع أن آيات الميراث عامة تشمل كل المسلمين بما فيهم النبي والزهراء فلو كان للنبي خصوصية لأرشد أهله إليها أو لأخبر بها المسلمين أو بعضهم ولكن لم يحصل كل ذلك بل انفرد الخليفة بنقل هذا الحديث ومنع الزهراء ميراثها من أبيها رسول الله فأغضب الزهراء وآذاها وأبكى عينها فقد أخرج البخاري في باب فرض الخمس عن أم المؤمنين عائشة: أن فاطمة عليها السلام ابنة رسول الله (ﷺ) سألت أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله (ﷺ) أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله (ﷺ) مما فاء الله عليه. فقال لها أبو بكر! إن رسول الله (ﷺ) قال: لا نورث ما تركناه صدقة، فغضبت فاطمة بنت رسول الله فهجرت أبا بكر فلم تزل مهاجرة حتى توفيت. وقد شعر الخليفة وأحسّ بعقدة الذنب اتجاه الزهراء فأراد استرضاءها فلم ترض يقول ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة - إن عمر قال لأبي بكر رضي الله عنهما: انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها فانطلقا جميعاً فاستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما فأتيا علياً فأدخلهما عليها فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلّما عليها فلم ترد عليهما السلام فتكلم أبو بكر فقال: يا حبيبة رسول الله! والله إن قرابة رسول الله أحب إليّ من قرابتي وأنك لأحب إليّ من عائشة ابنتي ولوددت يوم مات أبوك أني متُّ ولا أبقى بعده أفتراني أعرفك فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله إلا إني سمعت أباك رسول الله (ﷺ) يقول: لا نورث ما تركناه فهو صدقة.

فقالت: أرأيتما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله (ﷺ) تعرفانه وتفعلان به؟ فقال: نعم قالت ناشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله (ﷺ) يقول: رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ومن

أسخط فاطمة فقد أسخطنى؟

قالا: نعم سمعناه من رسول الله (ﷺ).

قالت: فإنى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ولئن لقيت النبى لأشكونكما إليه.

فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة ثم انتحب أبو بكر يبكى حتى كادت نفسه أن تزهق وهى تقول: والله لأدعون عليك فى كل صلاة أصليها ثم خرج باكياً فاجتمع الناس إليه فقال لهم: يبيت كل رجل معانقاً حليلته مسروراً بأهله وتركتمونى وما أنا فيه لا حاجة لى فى بيعتكم أقيلونى بيعتى.

وقد بقيت الزهراء غاضبة على أبى بكر متأذية منه ساخطة عليه حتى وصل بها الأمر أن أوصت علياً زوجها أن يدفنها ليلاً دون أن يُعلم الخليفة بذلك وهذا ما وردت به الصحاح ورووته الثقاة وهنا يقال:

ولأى الأمور تدفن ليلاً بضعة المصطفى ويعفى ثراها

وأنت أيها المنصف العادل أنظر واحكم واجمع بين المقدم والتالى والكبرى والصغرى واستخرج النتيجة فهل يمكن أن نقول أن الصحابة كلهم عدول، فماذا نعمل بهذه الأخبار الواردة فى الصحاح فتأمل..

المشهد الثانى

موقف الصحابة العدول من عثمان العادل:

هذا موقف آخر من مواقف الصحابة يمثل أروع مشهد على مسرح الخلافة إنه ينقل إلينا صورة الصحابة العدول من عثمان العادل - طبعاً بنظر القوم - إنه مشهد مرّ فى تاريخ الإسلام مرة ثم اختفى بعد أن ترك صوره وآثاره إلى يومنا هذا، إن هذه الوثائق التاريخية تعرب بكل جلاء أن الصحابة أناس كسائر الناس ولعل أبرز مستند لذلك يوضح هذا المعنى ويجليه هو موقفهم من عثمان إبان الفتنة وموقف عثمان نفسه من الأحداث التى وقعت منه أيام خلافته، فقد ارتكب الخليفة الخاطىء أموراً تتنافى والشريعة الإسلامية وما جاء به النبى محمد (ﷺ) .

إنها أخطاء لو حاسبه المجتمع المسلم على واحدة منها لاستحق الجزاء العادل الذى لقيه عندما حاسبه عليها كلها ولا أريد أن استوعبها جميعاً أو أدخل فى تفصيلاتها فإن

لها المكان المعد لذلك وإنما أشير إلى بعضها كما روتها كتب التاريخ والسير وأجمع المؤرخون عليها وهي:

١ - الأعطيات التى كان يدفعها إلى أتباعه:

الأول: ما كان يدفعه إلى بنى أمية دون استحقاق أو جدارة فقد افتتحت أفريقيا فى أيامه فأخذ الخمس[١] كله فوهبه لمروان بن الحكم الوزغ بن الوزغ وأقطعه (فدك) وقد كانت سيدة النساء فاطمة الزهراء طلبتها بعد وفاة أبيها رسول الله (ﷺ) تارة بالميراث وأخرى بالنحلة فدفعت عنها.

الثانى: طلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة فأعطاه أربعمائة ألف درهم.

الثالث: أعطى عبد الله بن أبى سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح أفريقيا بالمغرب من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين وعبد الله هذا كان كاتباً للوحى لدى النبى فارتد عن الإسلام وأهدر النبى دمه يوم فتح مكة حتى لو كان متعلقاً بأستار الكعبة ولكن شفع فيه عثمان وتركه رسول الله لمصلحة هناك وقد نزل القرآن بكفره فى قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾[٢]. فقد أطبق المفسرون على أن القائل سأنزل مثل ما أنزل الله هو عبد الله بن أبى سرح عندما تعرضوا لتفسيرها.

الرابع: أعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال فى اليوم الذى أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال.

الخامس: أتى أبو موسى الأشعرى بأموال جليلة من العراق فقسّمها كلها فى بنى أمية وأعطى غيرهم الكثير من أموال المسلمين دون استحقاق أو كفاءة.

٢ - أعاد الحكم بن أبى العاص مخالفة لرسول الله فقد كان النبى (ﷺ) سيره طيلة حياته ثم لم يرده أبو بكر ولا عمر، ولاشك أنك تريد أن تعرف من هو الحكم وماهى الأسباب التى دعت النبى (ﷺ) إلى تغريبه ولعنه.

أما اسمه فالحكم بن أبى العاص عم الخليفة عثمان - وهو من الصحابة - وتترتب عليه آثار الصحبة بنظر القوم - قد كان جاراً لرسول الله (ﷺ) فى مكة شديد الإيذاء له

---

(١) تاريخ الخلفاء ص١٥٦ مطبعة السعادة بمصر.

(٢) الأنعام: ٩٣ وذكر الزمخشرى فى كشافه هذا المعنى عند تفسيره للآية المباركة ج٢ ص٣٥.

على شاكلة أبى لهب وكان أشد جيرانه أذى له فى الإسلام فقد كان يحاكى رسول الله فى مشيته (يستهزء به فى ممشاه) وقد اطلع على رسول الله وهو عند بعض نسائة بالمدينة فخرج إليه النبى (ﷺ) بالعنزة (عصى) وقيل بمدرى فى يده وقال: من عذيرى من هذه الوزغة لو أدركته لفقأت عينه وقد لعنه النبى وما ولد حيث استأذن الحكم يوماً على النبى (ﷺ) فعرف صوته فقال: ائذنوا له لعنه الله عليه وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين وقليل ما هم ذو مكر وخديعة يعطون الدنيا وما لهم فى الآخرة من خلاق وقد تعرض لقصة لعنه كل من تعرض للتفسير كالرازى والزمخشرى وابن كثير وكذلك كتب السير والتراجم كالسيرة الحلبية وأسد الغابة والصواعق وغيرهم.

وقد كانت عائشة تقول لمروان: لعن الله أباك[1] وأنت فى صلبه فأنت بعض من لعنه الله. وقد غرّبه النبى إلى الطائف وقال: لا يساكننى ولا ولده ومكث هناك حياة رسول الله (ﷺ) ولما تولى الخلافة أبو بكر كلّمه عثمان فى رده وإدخاله المدينة فأبى فقال له عثمان عمى: فقال: عمك إلى النار هيهات، هيهات، أن أغيّر شيئاً فعله رسول الله (ﷺ) والله لا رددته أبداً فلما توفى أبو بكر وولى عمر كلمة عثمان فى ذلك.

فقال له عمر: ويحك يا عثمان[2] تتكلم فى لعين رسول الله وطريده وعدو الله وعدو رسوله فلما ولى عثمان رده إلى المدينة وقد دخلها وهو بحالة سيئة تشمئز منها النفوس دخل المدينة وعليه[3] فزر - ثوب بالى مشقق - خلق وهو يسوق تيساً والناس ينظرون إلى سوء حاله وحال من معه حتى دخل دار الخليفة ثم خرج وعليه جبة خز وطيلسان ولم يكتف الخليفة بذلك بل «ولاه[4] صدقات قضاعة فبلغت ثلاث مائة ألف درهم فوهبها له حين أتاه بها» فاشتد ذلك على المهاجرين والأنصار وأنكروا عليه فعله.

٣- تسييره لأبى ذر الغفارى صاحب رسول الله (ﷺ) إلى الربذة حتى مات فيها وحيداً غريباً لأنه أنكر عليه بعض أفعاله ومظالمه إن أبا ذر من طليعة المسلمين الخيرة، من الثلة السابقة إلى الإسلام التى أبلت البلاء الحسن والجهاد الميمون المبارك، وعلى عاتقه وعاتق المجاهدين الأولين قامت دولة الإسلام وارتفعت أعلام الدين؛ هذا الإنسان العظيم قد كان جزاؤه بعد ذلك الجهاد أن نفاه عثمان إلى أرض ليس فيها أنيس ولا حسيس وهو فى المنزلة والمقام الرفيع مما دعا النبى أن يقول فيه: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على

(١) تاريخ الخلفاء ص٢٠٣. اليعقوبى ج٢ ص١٦٤.
(٢) السيرة الحلبية.
(٣) تاريخ اليعقوبى.
(٤) البلاذرى فى الأنساب.

ذي لهجة أصدق من أبي ذر وقال فيه كما جاء عن بريدة: إن الله عزّ وجلّ أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم: علي[1] وأبو ذر والمقداد وسلمان.

وهناك الكثير مما ورد في حق هذا العظيم فقد كان أبو ذر مسلماً تشبع العقيدة والإيمان فلما رأى جور عثمان وظلمه وأغدق به على بني أمية بدون استحقاق أو كفاءة ثار عليه وعليهم من أجل الله والإسلام الذي ملك عليه كل ما عنده وما يملك ولكن عثمان منع الناس عن مجالسته ثم نفاه إلى الشام فقدم على معاوية فوجد كسرى العرب في الظلم والجور والبذخ والترف والتوسعة والاستئثار بالمال فثار في وجه معاوية بأشد من ثورته على عثمان فكتب عندها إلى عثمان بذلك فاستدعاه الخليفة الخاطيء إلى المدينة على مركب خشن - من الجمال - حتى تساقط لحم فخذيه ثم لم يطل به المجال في المدينة حتى نفاه إلى الربذة وعندما أراد الرجل إليها منع عثمان الناس من توديعه فلم يخرج إليه إلا الإمام علي والحسن والحسين وعمار وعقيل رغماً عن عثمان ومنعه وخاطبه الإمام بتلك الكلمات العظيمة الكبيرة مودعاً قائلاً: يا أبا ذر إنك غضبت لله فارجع[2] من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فاترك في أيديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه فما أحوجهم إلى ما منعتهم وما أغناك عما منعوك.. وتكلم بقية من ودعه فأشجى كلامهم أبا ذر فبكى وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله (ﷺ) ما لي بالمدينة سكنٌ ولا شجن غيركم إني ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام وكره أن أجاور أخاه وابن خاله المصرين فأفسد الناس عليهما فسيرني إلى بلد ليس به ناصر ولا دافع إلا الله، والله ما أريد إلا الله صاحباً وما أخشى مع الله وحشة وخرج أبو ذر إلى الربذة وبقي بها وحيداً حتى مات في بلاد قفر رحمه الله وأرضاه فماذا تقول أيها المسلم في طريقة عثمان وتسييره لهذا الصحابي العظيم هل كان أبو ذر مصيباً في استنكاره - ونحن نراه مصيباً - أم كان عثمان مصيباً في نفيه - ولا نراه مصيباً - مع أنهما من الصحابة العدول.

ما هذه العدالة التي تمدد كيف شاء المحبون وأرادوا، ومن أين جاؤوا بها وكيف حصلوا عليها؟ إنها معجزة خارقة للعادة!.

٤- ضرب عثمان ابن مسعود حتى كسر أضلاعه وقد كان في المرتبة العالية من الصحبة والفضل حتى مات من جراء ذلك في قصة طويلة نرى الأغماض عنها أولى

(١) تاريخ الخلفاء ص١٦٩.

(٢) نهج البلاغة لصبحي الصالح خطبة/ ١٣٠.

والصفح عن ذكرها أجمل من أرادها فليعد إليها فى كتب السير والتاريخ.

هذه بعض من تلك المظالم الكثيرة التى ارتكبها عثمان، إنها بعض تلك الإنحرافات وليس كلها إذ ليس من شأننا هنا تعدادها أو الإتيان على ذكرها وقد كانت هذه الأفعال هى التى دفعت بأسرهم - ما عدا الأمويين - إلى الإجماع على التخلص منه ولو بالقتل وهذه بعض آراء وجوه الصحابة وما أبدوا إتجاهه وقالوه فيه:

١ - رأى أم المؤمنين عائشة:

أ- لما اشتد الأمر على عثمان أمر مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فأتيا عائشة وهى تريد الحج فقالا لها: لو أقمت فلعل الله يدفع بك عن هذا الرجل، فقالت: قد قرنت ركابى وأوجبت الحج على نفسى ووالله لا أفعل[1] فنهض مروان وصاحبه ومروان يقول:

وحـــرق قـــيس على الـبـــلاد حـــتى إذا اضـطرمت أجـــذمـــا

فقالت عائشة: يا مروان وددت والله أنه فى غرارة من غرائرى هذه وأنى طوّقت حمله حتى ألقيه فى البحر.

ب- مرّ عبد الله بن عباس بعائشة وقد ولاه عثمان[2] الموسم وهى بمنزلة من منازل طريقها فقالت: يا ابن عباس. إن الله قد أتاك عقلاً وفهماً وبياناً فإياك أن ترد الناس عن هذا الطاغية.

ج- قال ابن أبى الحديد فى شرح النهج: قال كل من صنف فى السير والأخبار: أن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان حتى أنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله (ﷺ) فنصبته فى منزلها وكانت تقول للداخلين إليها: هذا ثوب رسول الله (ﷺ) لم يبل وعثمان قد أبلى سنته، قالوا: أول من سمى عثمان نعثلاً عائشة وكانت تقول: اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً.

رأى الخليفة عمر:

إن عمر كان يعرف واقع عثمان وهو أدرى الناس به فلذا عندما ضُرب قال له وهو يشير إليه بولاية العهد: هيهاً إليك كأنى فيك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك فحملت بنى أمية وبنى أبى معيط على رقاب الناس وآثرتهم[3] بالفيء (وهو معنى آخر عن ظلمه) فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك والله لئن فعلوا لتفعلن ولئن فعلت ليفعلن.

(١، ٢) البلاذرى. (٣) ابن أبى الحديد فى شرح النهج ج١ ص١٨٦.

رأى طلحة بن عبيد الله:

أما طلحة فقد كان من أشد المؤلبين على عثمان والكارهين لوجوده روى البلاذرى من طريق ابن سيرين أنه قال: لم يكن من أصحاب النبى أشد على عثمان من طلحة.

رأى الزبير:

نقل ابن أبى الحديد فى شرح المنهج: كان طلحة من أشد الناس تحريضاً عليه - على عثمان - وكان الزبير دونه فى ذلك رووا أن الزبير كان يقول: اقتلوه فقد بدل دينكم فقالوا له: إن ابنك يحامى عنه بالباب، فقال: ما أكره أن يقتل عثمان ولو بدىء بابنى إن عثمان لجيفة على الصراط غداً.

رأى عمرو بن العاص - ابن النابغة:

أما عمرو بن العاص فقد ذكر الطبرى[١] أنه لما بلغ عمرواً قتل عثمان قال: أنا أبو عبد الله قتلته وأنا بوادى السباع.

هذه بعض الآراء من بعض الصحابة ويمكن أن نقف بصورة أوضح على آرائهم وما أجمعوا عليه من خلال الكتب التى بثوها إلى أصحابهم من المسلمين فى الآفاق فقد أخرج الطبرى من طريق عبد الرحمن بن يسار أنه قال: لما رأى الناس ما صنع عثمان كتب من المدينة من أصحاب النبى(ﷺ) إلى من بالآفاق منهم وكانوا قد تفرقوا فى الثغور.

إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا[٢] فى سبيل الله عزَّ وجلّ تطلبون دين محمد فإن دين محمد قد أفسده من خلفكم وترك فهلموا فأقيموا دين محمد (ﷺ) وفى تاريخ ابن الأثير: فإن دين محمد قد أفسده خليفتكم فأقيموه وفى شرح ابن أبى الحديد: قد أفسده خليفتكم فاخلعوه فاختلفت عليه القلوب فأقبلوا من كل أفق حتى قتلوه ومن أراد تتبع آرائهم والوقوف عليها فليرجع إلى موسوعة الغدير القيّمة لشيخنا المغفور له الحجة الأمينى فإنه قد استوعب فيها آراء الجميع وكشف أنه لم يتم إجماع على مسألة كما تم على قتل عثمان والتخلص منه ثم أن مواقفهم العملية من الخليفة أقوى الحجج على أنهم كانوا عليه ولم يرضوا بعمله، وهذا وحده كاف للقول أن الصحابة كسائر الناس يخطئون ويعصون منهم التقى البر الوفى ومنهم العاصى الشقى، منهم المؤمن العظيم ومنهم الصعلوك الوضيع.

(١) الطبرى ج٣ ص٣٩٢ طبعه الأعمى (حتى مر به - بابن العاص رجل آخر فناداه عمرو ما فعل الرجل - يعنى عثمان - قال: قُتل، قال: أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها إن كنتُ لأحرض عليه حتى إنى لأحرض عليه الراعى فى غنمه فى رأس الجبل/ وأيضا فى تاريخ ابن الأثير ج٣ ص١٦٣.

(٢) الطبرانى ج٣ ص٤٠٠ طبعة مؤسسة الأعلمى/ وتاريخ ابن الأثير ج٣ ص١٦٨..

عيّنات من ضلال الصحابة

سيرة ثلاثة من صحابة النبى (ﷺ) ملك وأمير وراوية تعطينا الأضواء الكاشفة على عدم كفاية الصحبة بنفسها لرفع إنسان وخفض آخر وفى هذه الترجمة اليسيرة كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

معاوية بن أبى سفيان

هذا معاوية طاغية الأمويين نموذج للصحابة المنحرفين، إنه من الصحابة الذين عاشوا عصر النبوة الزاهر وقد كان وأبوه من ألد أعداء النبى المصطفى ولم يسلم إلا عام فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة، عفواً بل استسلم للأمر الواقع حفاظاً على خيط رقبته دون أن يدخل الإيمان قلبه فهو الطليق ابن الطليق من الذين منَّ عليهم النبى بقوله: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وكان من المؤلفة قلوبهم الذين رضخ لهم الإسلام رضخاً على إيمانهم. إن هذا الطليق - ولا تحل الإمرة لطليق - قد وقف لحرب الإمام على إمام الحق والهدى فأعلن له العداء وبغى بغير حق. هذا الطاغية قد عده بعضهم من الصحابة العدول الذين لا يجوز تفسيقهم أو الكلام بما يُشعر الحط من قدرهم، ولكن لو لم يكن لمعاوية من الموبقات إلا حربه لعلى لكفى بذلك خزياً وكفراً.

ومن عجائب الدهر وصروفه أن يقف عدو الإسلام معاوية على أعواد الخلافة الإسلامية نيابة عن النبى ﷺ ليحكم المسلمين الذين دجنوه وعشيرته وأدخلوهم فى الإسلام كرهاً عنهم.

ومن عجائب القدر وسيئات الزمن أن يقف عدو الإسلام فى الصف إزاء على بن أبى طالب بانى بناء الإسلام ورافع صرحه العظيم، إن معاوية معروف السيرة قبل الإسلام وبعده صعلوكاً لئيماً ومنافقاً خبيثاً ومع ذلك راق للمضللين والمنحرفين أن ينحتوا لمعاوية فضيلة فعدوه من الصحابة وألزموا الناس بطى بساطهم عن البحث خوفاً من يد الباحثين أن يعثروا على ما ينكشف به معاوية ويظهر وجهه المقنع المخفى تحته الكفر واللؤم والفسق والخزى ولعداء الله ورسوله.

إن من رضى بعمل معاوية وصحّح أفعاله وإسلامه فهو شريكه فى حرب على بن أبى طالب وإن باعد بينهما الزمن وفرّق بينهما الوقت فإن من رضى بعمل قوم كان معهم.

إن هذا الطاغية قد نصب الحرب للإمام على وثار عليه بعد أن تمت البيعة الشرعية له من المسلمين واتفق عليه المهاجرون والأنصار.

إن معاوية يعلم أن علياً على الحق وأن حربه كحرب رسول الله ولكنه أغمض عينيه

وتغاضى عن كل تلك النصوص المتواترة والأخبار المتظافرة التى أرسلها النبى فى حق الإمام، تغاضى معاوية عنها ليعلنها حرباً ضروساً تطيح بالخلافة الشرعية ليبنى محلها ملكاً أموياً غضوضاً أساسه الجور والظلم والعداء للحق والإسلام.

نعم إن معاوية لا يخفى عليه ما نص النبى فى حق على أنه سمعها كلها ولكنه جحدها وأنكرها بل كفر بها وبمن قالها بل لم يكن يؤمن أصلا بمن قالها فكيف يعمل بها الآن وقد لاحت بوارق الخلافة وتحرك شبح عبد شمس يدعوه من بعيد من بين أطلال الجاهلية ليعيدها حفيده معاوية حرباً ضروساً على حفيد هاشم الذى سبقه فى جميع المكارم والمحاسن.

إن معاوية قد قرعت أسماعه تلك الكلمات القدسية الحكيمة التى أرسلها النبى لتقرر واقع الإمام على وماهو عليه من حق وسداد.

إن النصوص النبوية لا يمكن تأويلها أو تحريفها إذ هى أعلام فى الطريق تهدى الناس نحو منارة الحق والعدل الإمام على بن أبى طالب فمن حاد عنها أو انحرف فإلى غير الحق والهدى قد اتجه ومن اقتفى أثرها ونهج منهاجها أمن عثرات الطريق ووحشتها، وإذا وجدت تلك النصوص الصحيحة يكون الوقوف ضدها كفراً بما أنزل الله على محمد وهذا ما صرحت به كثير من الأحاديث وتبناه الكثير من المسلمين.

وهذه نبذة من الأحاديث التى تقرر فضل الإمام وأنه على الحق، وأن من حاربه كافر محارب لله ورسوله.

وهذه الأحاديث قد روتها كتب الصحاح وصححها النقاد.

١- عن زيد بن أرقم أن رسول الله (ﷺ) قال لعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام: أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم[١].

٢- عن أبى هريرة قال: نظر النبى (ﷺ) إلى على والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام فقال: أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم[٢].

٣- عن أبى ثابت مولى أبى ذر قال: دخلتُ على أم سلمة فرأيتها تبكى وتذكر علياً (ع) وقالت: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: على مع الحق والحق مع على ولن يفترقا حتى

(١) رواه الترمذى وابن ماجة. ورواه كنز العمال وأسد الغابة وغيرهم.

(٢) أحمد فى مسنده، والحاكم فى مستدرك الصحيحين وغيرهما.

يردا عليّ الحوض يوم القيامة.

٤- ذكر الفخر الرازى فى ذيل تفسير البسملة فقال: أما إن على بن أبى طالب كان يجهر بالتسمية فقد ثبت بالتواتر ومن أقتدى فى دينه بعلى بن أبى طالب (ع) فقد اهتدى ثم قال والدليل عليه قوله: يعنى النبى (ﷺ): اللهم أدر الحق مع على حيث دار.

٥- مستدرك الصحيحين روى بسند عن أبى عبد الله الجدلى قال: دخلت على أم سلمة فقالت: أيسب رسول الله (ﷺ) فيكم؟ فقلت معاذ الله، أو سبحان الله أو كلمة نحوها فقالت: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول[1]: من سب علياً فقد سبنى.

هذه نبذة قليلة من كثير مما ورد فى حق الإمام على وهى تكشف بوضوح أن حرب على هو حرب رسول الله وأن من سب علياً فقد سب رسول الله وبدون شك حسب هذه النصوص أن معاوية فى رأس قائمة الكافرين المنابذين لله ورسوله، فقد حارب علياً فى صفين وذهبت عشرات الألوف من الأنفس البريئة التى قتلها معاوية دون حق.

وسنّ سب[2] الإمام على على منابر المسلمين التى شيدت أعوادها بسيفه وجهاده حتى جعلها وصيته الوحيدة التى لم تسمح له نفسه بتجاوزها عندما ولى المغيرة بن شعبة الكوفة فقد قال له:

«قد أردت إيصاءك[3] بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتماداً على بصرك ولست تاركاً إيصاءك بخصلة: لا تترك شتم على وذمّه والترحم على عثمان والإستغفار له والعيب على أصحاب على والإقصاء لهم».

هذه هى وصية معاوية إلى أحد عماله فانظر إليها وحلل مغزاها فإنها ستقف بك على كفر الرجل الذى أمر بسبّ على وجعله سنة يتداولها بنو أمية إلا ما كان من عمر بن عبدالعزيز الذى رفع السبّ بعد لئى من عمر الدهر.

(١) قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد.

(٢) يقول خالد محمد خالد:

وحسبنا لهذا المهين لمقيم الدين والحياة أن نرى منابر المساجد فى كل الاقطار الإسلامية الرازحة تحت حكم الأمويين يلعن من فوقها بطل الإسلام العظيم وابنه البار وإمامه الأواب على بن أبى طالب ويفرض على الخطباء أن يلعنوه.. ومتى؟ فى خطبة الجمعة التى يستهلونها قائلين «اللهم صلى على محمد وآل محمد» الذين يأخذ «على» فيهم مكان الدرة الفريدة فى العقد المنظوم. (كتاب عمر بن عبدالعزيز)

(٣) الطبرى حوادث سنة ٥١.

انظر إليها وخذ قول النبى المروى عن أم سلمة حيث قالت: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: من سبّ علياً فقد سبنى وهو حديث صحيح لا غمز فيه.

انظر إلى ما أمر به معاوية وما قاله النبى واستخرج النتيجة التى ستدمغ معاوية بالكفر دون غمغمة أو إشكال إنك ستطلقها صريحة لا تأخذك فيها لومة لائم أو عذل حسود أو حقود.

إن معاوية قد حارب إمام الحق والهدى وحربه كحرب رسول الله.

إن معاوية قد سب إمام الهدى وجعلها سنة وسبّ علىّ كسب رسول الله.

إن معاوية قد قتل عماراً، وعمار تقتله الفئة الباغية حسب الأخبار الصحيحة فمعاوية من البغاة الخارجين على الخلافة الشرعية.

وهذه أيضاً جملة من الأخبار التى تدين معاوية بقتله لعمار وتعين الحق وأهله وتفرد الباطل وأهله.

١- عن أبى هريرة قال: «قال رسول الله (ﷺ) ابشر ياعمار تقتلك الفئة الباغية.

٢- عن خالد العرنى قال: دخلت أنا وأبو سعيد الخدرى على حذيفة فقلنا: يا أبا عبد الله حدثنا ما سمعت من رسول الله (ﷺ) فى الفتنة؟

قال حذيفة: قال رسول الله (ﷺ): دوروا مع كتاب الله حيثما دار، فقلنا: فإذا اختلف الناس فمع من نكون؟ فقال: انظروا الفئة التى فيها ابن سمية فألزموها فإنه يدور مع كتاب الله، قلت: ومن ابن سمية قال: أو ما تعرفه؟ قلت: بيّنه لى، قال: عمّار بن ياسر، سمعت رسول الله (ﷺ) يقول لعمار: يا أبا اليقظان لن تموت حتى تقتلك الفئة الباغية. قال الحاكم عند استعراضه لهذا الحديث.. هذا حديث له طرق بأسانيد صحيحة.

فكر أيها المسلم واحكم على معاوية بعد هذا بما شئت ولاشك أنك ستصل إلى ما وصل إليه الجاحظ من الحكم بكفر معاوية فإنه ذكر وهو فى مقام تعداد المآسى والمظالم التى لحقت بالمسلمين قال:

فعندما استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين فى العام الذى سموه عام الجماعة وما كان عام جماعة بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة والعام الذى تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً والخلافة غصباً قيصرياً.. ثم مازالت معاصيه من جنس ما حكينا وعلى منازل ما رتبنا حتى رد قضية

رسول الله (ﷺ) رداً مكشوفاً وجحد حكمه جحداً ظاهراً فى ولد الفراش وما يجب للعاهر مع اجتماع الأمة أن سمية لم تكن لأبى سفيان فراشاً وأنه كان بها عاهراً فخرج بذلك من الفجار إلى الكفار.. انتهى..

إن النتيجة التى توصل إليها الجاحظ من الحكم بكفر معاوية هى النتيجة الطبيعية التى يتوصل إليها كل ذى لب لم يأخذه هوى أو تجرفه عاطفة، إنها أفعال معاوية التى شهد بخستها كل الناس حتى أنها على كثرتها يتجافى القلم عن ذكرها واللسان عن التحدث بها ويكفى ما تقدم من كلام الجاحظ مع ضمه إلى ما قاله الحسن البصرى فيه حيث قال كما فى تاريخ الطبرى: أربع خصال[1] كن فى معاوية ولو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة.

انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب الطنابير وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله (ﷺ) الولد للفراش وللعاهر الحجر وقتله حجراً وأصحابه.

إن هذه الخصال التى ذكرها الحسن البصرى هى بعض جرائم معاوية ومما أنه وردت قصة استلحاق زياد بن أبيه فى كلام هذين الرجلين يحسن بنا أن نتعرض لها ليقف القارىء على تفاصيلها.

مأساة الاستلحاق:

إن زياد بن أبيه، أو زياد بن سمية، أو زياد بن عبيد (ما أكثر الأسماء وما أحقر المسمى) هو الذى سمى بزياد بن أبى سفيان عندما استلحقه معاوية بأبيه رغبة منه فى تقوية ملكه ودعم سلطانه فإنه كان مع الإمام وهو أعرف بأعيان الشيعة وشخصياتهم من أى إنسان آخر، لقد استلحقه معاوية كى يعضده فى القضاء على كل نفس شيعية يمكن أن تقف فى وجه الطاغية أو تثور على ملكه وهذا الإستلحاق هو أول قضية غيّر فيها حكم النبى على حد قول السيوطى[2] فى تاريخ الخلفاء.

إن زياداً بن أبيه هو ابن سمية هذه كانت من البغايا المشهورات بالطائف ذات الراية

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج٣ ص٤٨٧ وفى نفس الصفحة: وكان الناس يقولون: أول ذل دخل الكوفة موت الحسن بن على وقتل حجر ودعوة زياد.

(٢) تاريخ الخلفاء ص١٩٦ مطبعة دار السعادة بمصر.

وكانت لدهقان من دهاقين الفرس فمرض الدهقان فدعا الحارث بن كلدة الطبيب الثقفي فعالجه حتى برأ فوهبه سمية وكان للحارث غلاماً رومياً فزوجه منها فولدت زياداً على فراشه فلما بلغ أشده اشترى أباه بألف درهم وأعتقه.

إن زياداً ولد على فراش عبيد ولم تكن سمية فراشاً لأبى سفيان فزياد يلحق بعبيد ولا يلحق بغيره وهذا ما جاء عن النبى صحيحاً ولم يختلف فيه أحد أنه قال (ﷺ) (الولد للفراش وللعاهر الحجر).

ولكن معاوية قد رد قول النبى فى سبيل أطماعه الدنيئة كى يأمن زياداً ويتخذه عضداً فى حرب شيعة على ويستحسن أن ننقل قصة الإستلحاق كما رواها[1] ابن الأثير لنقف على ذلك الشرف الرفيع والنسب العالى المنيع.

قال: إنها من الأمور المشهورة الكبيرة فى الإسلام ولا ينبغى إهمالها وقال: فلما قتل على وكان من أمر زياد ومصالحته معاوية ما ذكرنا واضع زيادُ مصقلة بن هُبيرة الشيبانى وضمن له عشرين ألف درهم يقول لمعاوية: إن زياداً قد أكل فارس براً وبحراً وصالحك على ألفى ألف درهم والله ما أرى الذى يقال إلا حقاً فإذا قال لك: وما يقال؟ فقال: يقال: إنه ابن أبى سفيان، ففعل مصقلة ذلك ورأى معاوية أن يستميل زياداً واستصفى مودته باستلحاقه فاتفقا على ذلك وأحضر الناس وحضر من يشهد لزياد وكان فيمن حضر أبو مريم السلولى فقال له معاوية: بم تشهد يا أبا مريم؟ فقال: أنا أشهد أن أبا سفيان حضر عندى وطلب منى بغياً فقلت له: ليس عندى إلا سمية فقال: إيتنى بها على قذرها ووضرها فأتيته بها فخلا معها ثم خرجت من عنده وإن أسكتيها لتقطران منياً. فقال له زياد: مهلاً يا أبا مريم! إنما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً فإستلحقه معاوية وكان استلحاقه أول ما[2] ردت أحكام الشريعة علانية فإن رسول الله (ﷺ) قضى بالولد للفراش وللعاهر الحجر.

وكتب زياد إلى عائشة «من زياد بن أبى سفيان وهو يريد أن تكتب له: إلى زياد بن أبى سفيان فيحتج بذلك فكتبت: من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد وعظم ذلك على المسلمين وعلى بنى أمية خاصة وجرى أقاصيص يطول بذكرها الكتاب ضربنا عنها.. انتهى.

وهذا الإنحراف الغاشم من معاوية عن شريعة الإسلام قد لاقى استنكاراً عاماً من

---

(١) الكامل فى التاريخ ج٣ ص٤٤٣ دار صادر بيروت.

(٢) الكامل فى التاريخ ج٣ ص٤٤٤ طبعة دار صادر بيروت. والمسعودى فى مروجه ج٣ ص٦ وفيه تفاصيل وافية.

المسلمين - كما ذكر ابن الأثير - حتى سار الشعراء في تسجيله استهجاناً واستنكاراً فهذا ابن مفرغ الحميري يقول في ذلك:

ألا أبلغ معاوية بن صخر	مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف	وترضى أن يقال أبوك زان
فأشهد أن رحمك من زياد	كرحم الفيل من ولد الأتان

ثم أن زياداً لم ينس هذه اليد البيضاء التي أسداها معاوية له فلذا أراد أن يرد له جميله وقد فعل فقد قتل شيعة علي تحت كل حجر ومدر وشردهم في البراري والقفار ولم يعديأمن أحدهم من دمه وعرضه و ماله.

يذكر المدائني مدى الظلم الذي مارسه ابن سمية على الشيعة وما حفظ من وصايا الطاغية معاوية يقول:

كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي (ع) فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضم إليه البصرة فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي (ع) فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم.. انتهى.

هكذا يكون التجار وباعة الضمير كيل بكيل وعير بعير. لقد اتفق الطاغيتان في سبيل نصب المقصلة لشيعة علي وقد فعلا ما أمكنهما، ولكن من بين تلك الأشلاء وبحور الدماء تنفس الفجر ليصوغ أمة ويخلق جيلاً يتحدى جبروت الطغاة والظلمة ويقلق مضاجع الحكام والأمراء.

لقد خُلِقَ الشيعي من العذاب وتعمد بالآلام فجمع إلى الثورة ناراً وأعصاراً ليحرق عروش الظالمين ويدك صروح المفسدين.

من بين آهات الثكالى وحزن الأرامل، من بين مطامير ابن زياد وسراديب التعذيب الأموية خرج الشيعي مسلماً عقائدياً رفض الذل بكل أشكاله وألوانه إذ صهرته المأساة فخلقت منه ثورة دائمة لا تموت ولن تموت وهي باقية في أصلاب رجاله إلى قيام الساعة.

لأن دين الشيعي يرفض الذل ويأبى الجبن، يحب الموت عزيزاً يحبه من أجل تحقيق أهداف الإسلام التي هي أعز عليه من نفسه ووجوده..

فيا رياح معاوية اندفعي ويا سجون ابن سمية امتلئي ويا سيوف الحجاج اشهري ويا حقد أمية انفثي ويا رايات أبي سفيان انتشري، ويا كل الظالمين جوروا واظلموا فإنكم لن تقضوا على عنفوان الشيعي ومآثره ولن تنقصوا من مكارمه وشموخه فإنه أقوى من كل ذلك وأعظم ويتحداكم وأحفادكم قديماً وحديثاً لأن جذوة الإمامة لا تنطفيء ودماء الحسين تستصرخ حتى تأتي على كل الظالمين والمفسدين.

افتعال المناقب لمعاوية:

إن الغريق يتشبث ولو بالطحلب، هكذا الحال مع أنصار معاوية لم يجدوا له منقبة ولا مكرمة فحاولوا خلق المناقب بوضع بعض الأحاديث على لسان رسول الله (ﷺ).

ولكن صيارفة الحديث ونقاده عروا معاوية عن كل منقبة ونفوا كل ما ورد في حقه من المدح والثناء وقالوا بكذبها جميعاً.

- قال السيوطي في كتابه اللآليء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة بعد أن ذكر أحاديث في فضل (الطاغية معاوية) قال: كلها موضوعة لا أصل لها ثم قال: قال الحاكم: سمعت أبا العباس محمد بن يعقوب بن يوسف يقول: سمعت أبي يقول: سمعت إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يقول: لا يصح في فضل معاوية حديث:

- وأخرج ابن الجوزي عن طريق عبد الله بن أحمد بن[1] حنبل قال سألت أبي ما تقول في علي ومعاوية فأطرق ثم قال: أي شيء أقول فيهما أعلم أن علياً كان كثير الاعداء ففتش أعداؤه له عيباً فلم يجدوا فعمدوا إلى رجل قد حاربه فأطروه كياداً منهم لعلي قال: فأشار بهذا إلى ما اختلقوا لمعاوية من الفضائل مما لا أصل له.

- روى محمد بن إسحاق الأصبهاني عن مشايخه أن الإمام النسائي رحمه الله خرج إلى دمشق فسئل عن معاوية ما يروى من فضائله فقال: (ما أعرف له فضيلة إلا لا أشبع الله بطنه)[2].

---

١) تاريخ الخلفاء ص١٩٩.

(٢) هذا إشارة إلى ما أخرجه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان يلعب مع الصبيان فجاء له النبي (ﷺ) فهرب وتوارى فجاءه النبي وضربه بين كتفيه ثم قال: اذهب فادع لي معاوية قال: فجئت فقلت: هو يأكل ثم قال: اذهب فادع لي معاوية قال: فجئت فقلت هو يأكل فقال (ﷺ): لا أشبع الله بطنه. =

إننا لا نريد أن ندخل فى سيرة هذا الملك الطاغية وليس من شأننا هنا التعرض لكل جرائمه وبوائقه فإنك كيف قلبته انبعثت منه رائحة الظلم والجور ومن أى الجهات جئته وجدته رأى رأس الكفر وقائد الضلال والنفاق وأن واحدة من بوائقه تكفى لإخراجه عن ربقة الإيمان وتدخله فى زمرة الكافرين الملحدين[1]. فخذ مثلاً:

١- وقوفه فى وجه الخليفة الشرعى إمام الحق والهدى بعد أن انعقدت له البيعة

= وقد استجيبت دعوة النبى فكان يأكل فلا يشبع وسيرته فى ذلك مروية حتى أصبح مضرب الأمثال فقال لعضهم:

وصاحب لى بطنه كالهاوية كأن فى أمعائه معاوية

(١) يقول المسعودى فى مروجه ج٣ ص٣:

وفى سنة ثلاث وخمسين قتل معاوية حُجرَ بن عدى الكندى وهو أول من قُتل صبراً فى الإسلام حمله زياد من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها ولما صار إلى مرج عذراء على اثنى عشر ميلاً من دمشق تقدم البريد بإخبارهم إلى معاوية فبعث برجل أعور فلما أشرف على حجر وأصحابه قال رجل منهم: إن صدق الزجر فإنه سيقتل منا النصف وينجو الباقون.

فقيل له وكيف ذلك؟

قال: أما ترون الرجل المقبل معاباً بإحدى عينيه فلما وصل إليهم قال لحجر: إن أمير المؤمنين قد أمرنى بقتلك يا رأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان والمتولى لأبى تراب وقتل أصحابك إلا أن ترجعوا عن كفركم وتلعنوا صاحبكم وتتبرأوا منه.

فقال حجر وجماعة ممن كان معه: إن الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعونا إليه ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيه أحب إلينا من دخول النار وأجاب نصف من كان معه إلى البراءة من على فلما قدم حجر ليقتل قال: دعونى أصلى ركعتين فجعل يطول فى صلاته فقيل له: أجزعاً من الموت فقال: لا ولكنى ما تطهرت للصلاة قط إلا صليت وما صليت قط أخف من هذه، وكيف لا أجزع وإنى لأرى قبراً محفوراً وسيفاً مشهوراً وكفناً منشوراً ثم تقدم فنحر وألحق به من وافقه على قوله من أصحابه.

وفى الكامل فى التاريخ ج٣ ص٤٨٧ قال: فلقيت عائشة معاوية فقالت له: أين كان حلمك عن حجر قال: لم يحضرنى رشيد قال ابن سيرين: بلغنا أن معاوية لما حضرته الوفاة جعل يقول: يومى منك يا حجر طويل.. وقالت عائشة أيضاً فى التاريخ المذكور صفحة ٤٨٧: لولا أنا لم نغير شيئاً إلا صارت بنا الأمور إلى ما هو أشد منه لغيّرنا قتل حجر أما والله إن كان ما علمت لمسلماً حجاجاً معتمراً.

وفى تاريخ اليعقوبى ص٢٣١ طبعة دار صعب.

قالت عائشة لمعاوية لما حج وعاتبته على قتل حجر: أما أنى سمعت رسول الله يقول: يقتل بمرج عذراء نفر يغضب لهم أهل السموات.

قال: لم يحضرنى رجل رشيد يا أم المؤمنين.

باتفاق المسلمين.

٢- ما سنه من سب الإمام على على منابر المسلمين وهى وحدها تخرجه من الإسلام ومن أكبر الكبائر التى طولب بتركها فقال: لا والله حتى يربوا عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلاً.

٣- قتله حجر بن عدى الكندى وصحبه فى مرج عذراء صبراً لحبهم علياً.

٤- قتله عمرو بن الحمقى الخزاعى بعدما أعطاه من العهود والمواثيق ما لو أعطاه لبهم الطيور لنزلت من أوكارها.

٥- دسه السم لسيد شباب أهل الجنة الحسن بن على واستبشاره بذلك وإظهاره الفرح لما وصله نعيه.

٦- استخلافه ابنه يزيد بن معاوية سكيراً خميراً على رؤوس المسلمين بالقهر والقوة دون رضى منهم ولا مشورة.

واختم الحديث عن هذا الطاغية بما أورده الشيخ محمود أبو رية فى كتابه شيخ المضيرة حيث قال: حسبنا ما قدمنا من أدلة على بيان حقيقة معاوية وكيف كان يحكم وما جناه حكمه الظالم على الناس وعلى الإسلام إلى يوم القيامة وكان لنا أن نجتزى بما دون ذلك من بيان لأن كتابنا لم يفرد لتاريخ هذا الملك الباغى ولكننا اضطررنا إلى شىء من الإطالة والاستطراد لأنه لم يزل يوجد أناس فى عصرنا تحطب فى حبله وتمارى فى بغية وظلمه وتتبجح بالقول بأن دولته كانت أعظم دولة عرفها الإسلام وإذا نهض منصف ليبين شيئاً من صحيح تاريخه تصدوا له بالشتم والسب ووصفوه بأنه شيعى والتشيع فى رأى هذه الفئة[1] الحمقاء نبذ لقوم ليسوا بمسلمين.

ومن أراد استيعاب بعض جرائم هذا الطاغية فما عليه إلا أن يرجع إلى موسوعة الغدير القيمة وكتاب النصائح الكافية لمن يتولى معاوية وغيرهما من الكتب العلمية والتاريخية لتقف منذهولاً كيف تولى هذا الطاغية عرش الخلافة الإسلامية وما جناه من الجرائم والجنايات ومع هذا عدّوه من الصحابة العدول (فلهم أصحابهم ولنا أصحابنا).

(١) شيخ المضيرة ص١٩٠.(١) شيخ المضيرة ص١٩٠.

أبو هريرة[1]

وهذا صحابى آخر من صحابة النبى وأول رواية اتهم فى الإسلام ألا وهو شيخ المضيرة أبو هريرة الدوسى الذى رأى النبى وصحبه لمدة سنة وتسعة أشهر فقد أنتجت هذه المدة من الأحاديث والروايات ما لم ينتجه من عاش من النبى مع أول أيام الدعوة إلى إنتقاله صلوات الله عليه إلى ربه لم ينتجه من عاش مع النبى ربع قرن أو يزيد، إذ تفتقت ذهنية شيخ المضيرة عن أعداد ضخمة مما اختلق حيث اختلق لكل حادثة تطرأ حديثاً يناسبها، فإن أحبها أخرج لها من جرابه ما يؤيدها وينبىء بأنها مما أخبر به النبى وبشر وإن كان بخلاف مراده ولم توافق هواه وذوقه عكس الأمر واختلق لها حديثاً ينفر.

إن هذه الأعداد الضخمة التى تعد بالألاف لم تجر العادة من أحد من الناس أن يستوعيها حفظاً أو إلقاءاً وخصوصاً من مثل أبى هريرة الذى كان يصرع من الجوع ويتبع

---

(١) ذكر صاحب شذرات الذهب الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ فى أحداث سنة ٥٧ج١ ص٦٣ ما نصه بالحرف الواحد:

وفيها توفى أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسى.. وأكمل حديثه قائلاً قال الحافظ الذهبى:

المكثرون من رواية الحديث من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين أبو هريرة خمسة آلاف وثلثمائة وأربعة وسبعون وابن عمر ألفان وستمائة وثلاثون.. إلى أن يقول وعلى خمسمائة وستة وثمانون وعمر خمسمائة وسبعة وثلاثون.. أبو بكر الصديق مائة واثنان وثلاثون..

قال صاحب شذرات الذهب فى حوادث سنة ٥٧ج١ ص٦٤:

وكان فى أبى هريرة دعابة وكان يخطب ويقول... وكان يصلى خلف على ويأكل على سماط معاوية ويعتزف القتال ويقول: الصلاة خلف على أتم وسماط معاوية أدسم وترك القتال أسلم.

واسمع واضحك: واسلم عام خيبر سنة سبع وصدقه الشيطان ونصحه فقد ثبت فى الصحيح عن النبى (ﷺ) فى حديث أبى هريرة لما وكله النبى (ﷺ) بحفظ زكاة الفطر فسرق منه الشيطان ليلة بعد أخري وهو يمسكه فيتوب فيطلقه فيقول له النبى (ﷺ): «ما فعل أسيرك البارحة» فيقول زعم أنه لا يعود فيقول: «إنه سيعود فلما كان فى المرة الثالثة قال له: دعنى أعلمك ما ينفعك إذا أويت إلي فراشك فاقرأ آية الكرسي {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} إلى آخرها فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتي تصبح فلما أخبر النبى (ﷺ) قال: صدقك وهو كذوب وأخبره أنه شيطان.. لا أدرى هل أبو هريرة الذي سرق أم الشيطان لعل عند القارئ معرفة بذلك...

الناس ليخدمهم بملء بطنه على حد قوله نفسه أنه كان فى شغل عن تلقى الحديث وحفظه بجوع بطنه والتفكير بتحصيل قوته ومع ذلك فقد أخرج له البخارى من بين الآلاف التى رواها وذكرت فى المجامع أخرج له مقدار ٤٤٦ حديثاً. ولم يخرج لأى صاحب آخر مثل هذا العدد فإن الإمام على وعظمته وعلو منزلته وشدة مصاحبته لرسول الله وملازمته له يُخرج له البخارى ومسلم فى صحيحيهما سوى ٢٠ حديثاً ويضاف إلى ذلك العدد الذى روى عن أبى هريرة أن كثيراً من أحاديثه التى ابتدعها لا يوافق عليها العقل السليم ولا الطبع المستقيم إذ تنافى دين الله المنزل من الحكيم العليم، فقد كان بمهارة فائقة وقدرة على الاختراع يستطيع أن تتفتق عبقريته لإختراع ما يريد.

فانظر رحمك الله إلى مضحكات الليالى ومهازل الأقدار كيف تلاعب هذا الشيخ المنحرف بسنة رسول الله وافترى وامترى واختلق ما ينبو عنه الدين وتنكره شريعة سيد المرسلين مع أنه دُوِّن فيما يُسمى بالصحاح التى تُعد تالية لكتاب الله عند القوم، ولو بُحث ما فيها لبان الزيف وتكشفت الأمور عن أشياء توجب طرح كثير مما حوته أوراقها وسودته صحائفها، هلمّ معى إلى نماذج من تلك المفتريات والأكاذيب واستعمل عقلك وحكّم وجدانك دون مراعاة لهوى أو ميل لغرض، استعمل عقلك رعاك الله واحكم بميزان العدل وانبذ ما يشد الإنسان من تعصب مذهبى أو منطق ملتوٍ بل ليكن الحق رائدك والإخلاص دليلك لترى هل ما نقوله فى حق هذا الرجل حق أم باطل.

١- روى البخارى عن أبى هريرة: افتتحنا[1] خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع..).

هذه إحدى غزوات النبى التى لم يحضر أبو هريرة أثراً لها بالإجماع وإنما جاء بعد الفتح. فكيف يروى ذلك وينسب الفتح ويرويه كأنه يشهده.

٢- فى مستدرك الحاكم عن أبى هريرة: دخلت على رقية بنت رسول الله امرأة عثمان وبيدها مشط فقالت: خرج رسول الله من عندى آنفاً رجلت شعره فقال: كيف تجدين أبا عبد الله (يعنى عثمان) قالت: بخير.

قال: اكرميه فإنه من أشبه أصحابى بى خُلقاً.

قال الحاكم: هذا الحديث صحيح الإسناد واهى المتن فإن رقية ماتت سنة ٣ للهجرة عند فتح بدر وأبو هريرة أسلم بعد فتح خيبر فى سنة ٧ من الهجرة.

(١) البخارى ج٥ ص١٧٦ طبعة دار إحياء التراث العربى بيروت.

نعم إن أبا هريرة أراد أن يكرم عثمان ولو باختلاق الكذب على رسول الله أراد أن يطيع معاوية صاحب الملك الذي يغدق عليه من أعطياته وهباته ويرفع من شأنه ومنزلته ولو كان ذلك بالكذب على رسول الله.

إن أبا هريرة يمتثل أوامر الطاغية معاوية بجميع حذافيرها لأن فيها رضى له ومعصية الله وهو يحافظ على اكتساب ود معاوية مهما كان الطلب غالياً وعزيزاً فلأجل معاوية فليسهل الكذب والدجل وليكثر سماسرة الباطل فإن معاوية قد كتب إلى عماله في جميع الآفاق أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته الذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا إليّ بكل ما يروى كل رجل منهم و اسمه واسم أبيه وعشيرته ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه في العرب منهم والموالي فكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا فليس يجلد امرؤ من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه فلبثوا في ذلك حيناً.. انتهى.

إذا كانت هذه العطايا والهبات والقربى والإكرام والكساء والصلات والحباء والقطائع إذا كانت كل هذه لمن كان بعيداً عن معاوية في أطراف البلاد الإسلامية وإذا كان التنافس في تعداد مناقب عثمان لأجل هذه الحظوة الرفيعة قد ازداد وتكثر فكيف بمن هو تحت أجنحة معاوية وسلطانه المباشر كيف بأبي هريرة يتنازل عن كل ذلك العز والجاه وقد أتته الدنيا بما فيها واحتاج إليه مليكها الجبار العنيد، فلينزل شيخ المضيرة وليخلق هذا الحديث إكراماً لمعاوية وعطاياه فإن الفرص تمر مر السحاب..

٣- عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري ومسلم أنه قال: جاء ملك الموت إلى موسى فقال له: أجب ربك! فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها فرجع الملك إلى الله تعالى فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ففقأ عيني! فرد الله عليه عينه وقال: ارجع إلى عبدي فقل له: إن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما توارث بيدك من شعره فإنك تعيش بها سنة.

قال الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ في كتاب المضاف والمنسوب أن هذا الحديث من أساطير الأولين.

إنك أيها المسلم لاشك يعتريك الذهول وتأخذك الأفكار مرة ذات اليمين وأخرى ذات

الشمال فى وضع هذا الحديث وصحته مع أنه روى فى أصح الكتب عند القوم ولكن حدّق تجد سمات اليهودية عليه تجد آثار كعب الأحبار على معناه، إنك مسلم تؤمن بعصمة الأنبياء، ونزاهتهم وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق ولا ينطقون إلا بالصدق فكيف يصدر ذلك من نبى يعد من أولى العزم من الرسل ومما يزيد الطين بلة أن مشكلة موسى كانت مع ملك من ملائكة الله مع ملك الموت الذى يغفل ما أمره الله به ولا يعصيه نعم إن اليهودية، يهودية كعب الأحبار هى التى لقنت أبا هريرة هذا الحديث ليشوه سنة رسول الله ويشكك الناس فيها، فانظر واحكم..

٤- يروى البخارى وغيره عن أبى هريرة - أنه قال: إنكم تقولون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ويقولون ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله بمثل حديث أبو هريرة، وإن أخوتى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق - وكنت ألزم رسول الله على ملء بطنى فأشهد إذا غابوا واحفظ إذا نسوا وكان يشغل إخوتى من الأنصار عمل أموالهم وكنت أمرأ مسكيناً من مساكين الصفة أعى حين ينسون وقد قال رسول الله (ﷺ) فى حديث يحدثه: أنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى مقالتى هذه ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعى ما أقول فبسطت نمرة علىّ حتى إذا قضى رسول الله مقالته جمعتها إلى صدرى فيما نسيت من مقالة رسول الله تلك من شىء.

ما أروع العلم وأعظمه إذا حصل بمعجزة، وما أجمل وأكبر حامله إذا كان مثل أبى هريرة، إن العلم هكذا يجمع.. وبهذا الأسلوب يتسوق، كما يتسوق الثوم والباذنجان والخيار.

أرأيت علماً فى تاريخ حياتك أو تاريخ الإنسانية من عرب وعجم يجمع بهذا الأسلوب ويحفظ بهذه الطريقة الفريدة!..

لماذا انفرد شيخ المضيرة بهذه المعجزة؟

وهل كان المسلمون بغفلة عن هذه النعمة الكبرى التى لا تحصل لهم فى كل وقت؟. أم أنهم كانوا يشكّون فيما قاله النبى؟.. حاشاهم ثم حاشاهم، إنهم أتقى لله من ذلك وأحرص على تلقى أحاديث النبى والعناية بها، كيف وهم قد بذلوا المهج وخاضوا اللجج لإعلاء كلمة الله وتطبيقاً لأمر رسول الله، إنهم حاربوا الأهل والأقارب وفارقوا الدور والأوطان من أجل الله ورسوله. نعم إن أبا هريرة يختلق هذا الحديث ليدفع عن نفسه تهمة التزوير والكذب من جراء الكثرة التى رواها فأوجبت تهمته من قبل المسلمين فلذا صدّر

كلامه بأن الناس يقولون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله.

لقد اشتهرت وذاعت قصة إكثار الحديث عن أبى هريرة حتى وصلت أنباؤها إلى مسامعه وقرعت رائحتها صمّام قلبه وشعر أن وضعه فى خطر وهو على شفى حفر، شعر أنه سيسقط ويُكف كذبه علناً وعندها الطامة الكبرى والمصيبة العظمى فسارع لإنقاذ نفسه فاختلق هذا الحديث المعجز وكأن هذا يستر عواره ويسدل الستر على عاره.

لقد كان شيخ المضيرة إنساناً مهملاً زمن النبى من صعاليك الناس وضعفائهم لم ينهض به نسب ولم يرفعه علم أو صحبة ولم يعلم عنه شجاعة أو بسالة أو جرأة وإقدام. ولكن تشاء الأقدار ويقف الباغى معاوية لحرب إمام الهدى على بن أبى طالب فتثير رائحة الموائد اللذيذة عند معاوية شهية الشيخ الذى كان يصرع من الجوع زمن النبى ويبحث عن لقمة فلا يجدها، لقد انفتحت الدنيا أمام أبى هريرة بزخارفها وملذاتها وشهرتها إنها كانت تحت ظلال الملك الأموي فانحدر الشيخ بكل قواه وبما يملك من عزم وتصميم للإقتداء بمعاوية فإن فى جواره عزاً وشبعاً وشهرة وفوق ذلك فإن معاوية بأمسّ الحاجة إليه لتأييده معنوياً بخلق الأحاديث فى حقه وحق أهل بيته والأسرة الأموية التى تنازع صاحب الحق حقه وهنا قد باع أبو هريرة كل شيء فى سبيل الوصول إلى هدفه وهو قهر الفقر المدقع الذى عاشه أيام النبى ومن بعده، إنه أراد أن يرفع الخمول عن نفسه والوصول إلى سلم الشهرة التى ترضى طموحه الذى لم يتحقق أيام كان رسول الله وأصحابه الطيبون.

انضم أبو هريرة إلى تيار معاوية – و هو تيار يجرف ولا يرحم أمثال أبى هريرة ممن فى نفوسهم مرض – فأخذ بتأييد الدولة الأموية بخلق الأحاديث على لسان رسول الله وكان أستاذه ورائده معاوية يمنحه من متع الدنيا ما طاب له شريطة أن لا يكف عن ابتداع الأحاديث فى حق معاوية شخصياً وحق الأسرة الأموية بشكل عام. ولكن طالما أن الصحبة للمنفعة ولأجل الغنيمة فكان عندما يقلل له معاوية العطاء أو يقف عن منحه المنح كان الشيخ يقف عن الحديث فى كرامات الأمويين بل كان يذكر الأحاديث الصحيحة الواردة عن رسول الله فى ذم الأمويين وظلمهم ومدح العلويين وشيعتهم، وما تلك الروايات الواردة عن أبى هريرة فى أهل البيت إلا من بركات ذلك الخلاف بينه وبين معاوية. يروى عن ابن المسيب (وهو زوج ابنة أبى هريرة) قال: كان أبو هريرة إذا أعطاه معاوية سكت وإذا أمسك عنه تكلم يعنى كان معاوية يقطع لسان أبى هريرة عن إملاء ما حدث به عن رسول الله فى ذم الأمويين بما يمنحه من العطايا فإذا توقف معاوية عن ذلك تكلم الشيخ فى ذم بنى أمية.

٥- روى البخارى وابن ماجة عن أبى هريرة: أن النبى (ﷺ) قال: إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه كله فإن فى أحد جناحيه داء والآخر شفاء..! لابد أن أبا هريرة عندما اختلق هذا الحديث كان أمامه جفنة لذيذة الطعام شهية الريح عز عليه مفارقتها ولم يتقزز منها أو يتنفر فخاف من عيون الحضار أن يتهموه فبادر إلى خلق العذر له كى يقدّمه أمام طبقة ليكمل شوطه فى الإتيان عليه وحق لأبى هريرة ذلك فإن من عاش فى صرعاته من الجوع وكان القمل يدب فى طيات جبته لا يتنفر من ذبابة سقطت فى طعامه وإلا فإن رسول الله الذى يمثل منتهى الكمال وصاحب النفس الكبيرة الذى وضع للطعام آداباً من غسل اليدين قبل الجلوس على المائدة وعند الختام منها وكيف يكون البدء بها وغير ذلك مما شرعه وسنه حتى أصبح ديننا دين النظافة والإيمان يترفع أن يأتى بتشريع غمس الذباب. ألا يكتفى شيخ المضيرة برمى الذبابة جانباً بل يريد أن يغمسها لتزيد شهيته وتقبل نفسه نحو الطعام، إن هذا التشريع لا يصدر عن رسول الله لأنه مخالف للعلم الذى بيّن مضار الذباب وسمومه وفتكه بالإنسان، مضافاً إلى تقزز الإنسان عند وقوعه فى طعامه فكيف إذا غمسه بنفسه وبملىء اختياره، إنه تشريع صدر من أبى هريرة ويُرد عليه وليدافع أنصاره عنه فى هذا الحديث المكذوب ما شاء لهم أن يدافعوا.

هذه نماذج مما فاضت به قريحة الدوسى ولسنا بصدد فضح مسنده وكل ما أتى به بل نكتفى بهذا القدر فإنه وحده يكفى لكشف هويته أنه من الكذّبة الذين افتروا على رسول الله ولم يكن له دور أو سوق فى عهد الخلفاء ولكن بعد أن طمع فيما بأيدى معاوية من الدنيا أسرع بكل ما أوتى من قوة لدعم سلطان الطاغية وشد إزره بما اختلقه من الأحاديث الكاذبة على لسان رسول الله ومن أراد الوقوف على حقيقة هذا الرجل جملة وتفصيلاً فما عليه إلا أن يرجع إلى العلمين المحققين آية الله السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوى فى كتابه (أبو هريرة) وإلى كتاب (شيخ المضيرة) للعالم المحقق والبارع المدقق الشيخ محمود أبو رية من إخواننا السنة فقد استوفيا البحث بحذافيره وأتيا على أبى هريرة فجعلاه كالهشيم تذروه الرياح فجزاهما الله خيراً وأعقبهما أجراً إذ أبانا الحق فى هذا الرجل.

ثم إن أبا هريرة كذّبه الصحابة العدول.

فهذا أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال فيه كما فى شرح النهج ألا إن أكذب الناس- أو قال أكذب الأحياء- على رسول الله (ﷺ) لأبى هريرة الدوسى وقال مرة: لا أحد أكذب من هذا الدوسى على رسول الله.

وهذا عمر قد غضب عليه بإكثاره على رسول الله (ﷺ) فضربه بالدرة ردعاً له وهو يوبخه بقوله: أكثرت يا أبا هريرة وأحرِ بك أن تكون كاذباً على رسوله الله. ومرة أخرى زجره وقال له: لتتركن الحديث عن رسول الله (ﷺ) أو لألحقنك بأرض دوس أو بأرض القردة.

وهذه أم المؤمنين عائشة قد كذبته في حديث رواه وهو حديث من أصبح جنباً فلا صيام له، فرجع واعتذر عن قوله عندما عاتبته بأنه لم يسمع ذلك من رسول الله وإنما سمعه من الفضل بن العباس وكان الفضل يومئذ ميتاً - فقد رمى السند برقبة من مات خوفاً من ملاحقته في كذبه فينفضح.

وعلى كل حال إن صحبة شيخ المضيرة مع معاوية أثمرت ثمراتها المرة على الأمة الإسلامية وجنت أمة محمد (ﷺ) أفظع المآسي والمظالم من خلال تلك الصحبة المشؤومة إذ خلق لمعاوية غطاء شرعياً ضلل به كثيراً من الناس وستر بذلك جنايات معاوية وظلمه وقتله الأبرياء بما اختلقه من أحاديث الزور وبما افتراه من الأقوال والأعمال.

لقد برّر أبو هريرة كل مظالم الملوك والأمراء بما اختلقه من الأحاديث وخدّر الناس عن مقاومتهم والتصدي لهم بما أخرجه من وعائه الخاص ونسبه إلى رسول الله ورسوله الله منه بريء. يذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج قال: قال أبو جعفر الأسكافي رحمه الله: إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي (ع) تقتضي الطعن فيه والبراءة منه وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله فاختلقوا ما أرضاه منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة مرحباً بصحبة توظف في ديوان معاوية من أجل وضع الكذب وخلق الباطل من القول، مرحباً بالتجارة الرابحة التي تباع فيها الضمائر بجعل لا بأس به يجعله سيدهم معاوية، مرحباً بمن لا يرعون بالمؤمنين إلا ولا ذمة ولا يحفظون لهم عهداً ولا وداداً.

أهكذا صحابة يقال أنهم عدول وهل يطمئن إنسان يطلق عليهم ولا يخاف الإثم والوزر، لا أحسب إنساناً عنده مسكة من دين يقول ذلك.

الوليد بن عقبة بن أبى معيط

وهذا هو الوليد بن عقبة أخو الخليفة عثمان لأمه ممن عاش فى عصر النبوة وصح على مسلك القوم أنه من الصحابة هل تريد أن تعرف عنه شيئاً؟ هل تريد أن تطلع على بعض صفات هذا الرجل الذى نزل فيه من لدن البارى قرآن يرتله المسلمون فيتذكرون تلك الحادثة التى كانت السبب فى نزول القرآن فيها، إنها حادثة احتاج الأمر فيها أن تتدخل آيات الله لجلاتها وبيان حقائقها يذكر المفسرون عندما يتعرضون لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾[1] يذكرون أسباب نزولها والدواعى التى دعت لذلك كما هو عند عامة المفسرين وكما استفيض بين السنة والشيعة ورواه المحدثون الثقاة فعن الحارث[2] بن ضرار الخزاعى قال: قدمت على رسول الله (ﷺ) فدعانى إلى الإسلام[3] فدخلت فيه وأقررت به ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها، قلت يا رسول الله ارجع إلى قومى فادعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ممن استجاب لى وترسل إلىّ يا رسول الله رسولاً أبّان كذا وكذا ما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الأبان الذى أراد رسول الله أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول الله (ﷺ) كان وقت لى وقتاً يرسل إلىّ رسوله وليقبض ما كان عندى من الزكاة وليس من رسول الله الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة فانطلقوا فنأتى رسول الله (ﷺ).

وبعث رسول الله (ﷺ) الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطرق (فرق)[4] فرجع فأتى رسول الله (ﷺ) فقال: إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى فضرب رسول الله البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: إن هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم:

١) الحجرات ٦.

(٢) ذكر ذلك الزمخشرى فى كشافه ج٤ عند تفسيره للآية المباركة.

(٣) عن الغدير.

(٤) فرق = فزع وخاف.

إلى من بعثتم؟

قالوا: إليك.

قال: ولم؟

قالوا: إن رسول الله (ﷺ) بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله.

قال: لا والذى بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتانى فلما دخل الحارث على رسول الله (ﷺ).

قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولى.

قال: لا والذى بعثك بالحق ما رأيته ولا رأنى وما أقبلت إلا حين احتبس. علىّ رسول رسول الله(ﷺ) فخشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله فنزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا .. ﴾ .

وقد قال ابن عبد البر فى الاستيعاب: ولا خلاف[1] بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عزّ وجل: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا .. ﴾ نزلت فى الوليد بن عقبة.

إن هذه الآية تكشف الوليد عن حقيقته وتهتك الستر عنه فتبرزه كما هو، إنه الفاسق - وإن عاش أيام النبوة - الذى لا يرتدع عن قول الزور والبهتان فيفتعل حادثاً وهمياً لقتل أناس أبرياء آمنوا بالله ورسوله وصدقوا بما جاء به النبى.

نعم لم يحسب الوليد إن الله أنزل فيه قرآناً يسميه فيه (الفاسق) هذا اللقب الذى يضم بين كل حرف من حروفه خيانة وغدراً ولؤماً وجبانة، هكذا أراد الوليد الوقيعة بالمسلمين والكيد للإسلام فارتد سهمه إلى نحره ووصمه الله وصمة عار ستبقى إلى يوم الدين.

وهناك آية أخرى نزلت فى الوليد وهى قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾[2] حيث ورد أن الوليد افتخر[3] على الإمام علىّ فأنزل الله فيه هذه الآية وسمته فاسقاً وهو وسام من الخزى الذى يلاحق الوليد ويتابعه حتى كأن الفسق مختص به وما ذلك إلا ليبين للمجتمع المسلم عدم أهليته لتولى أى عمل من أعمال المسلمين لكونه فاسقاً غير ثقة ولا مؤتمن.

---

(١) نقلاً عن تفسير الآية من كتاب الميزان.

(٢) السجدة/ ١٢.

(٣) ذكره الزمخشرى فى كشافه فى ذيل تفسير الآية المباركة ج٣، ص٢٤٤.

ولكن عثمان بعد أن تولى الخلافة ولاه الكوفة ثغر الإسلام النابض وقلبه الحى وكأنه لم يسمع بهذه الآيات ولم يعرف بمن نزلت، لقد أراد عز أخيه ورفعته ولو بهوان أمة محمد وإذلالها.

ودخل الوليد الكوفة وكان عليها سعد بن أبى وقاص أميراً وابن مسعود خازناً لبيت المال فما أن وقعت عينا سعد على الوليد حتى قال له: أكست بعدنا أم حمقنا بعدك؟ فقال الوليد: لا تجزعن يا أبا إسحاق كل ذلك لم يكن وإنما هو الملك يتغذاه قوم ويتعشاه آخرون.

فقال له سعد: أراكم جعلتموها ملكاً.

ونحن إذا أردنا أن نحلل السؤال والجواب من هذين الأميرين لأمكننا استنتاج عدة أمور أهمها: أن المسلمين يعرفون من هو الوليد إنه ذلك الفاسق الفاجر المائن الذى سود تاريخه بالخيانة والرذيلة فلذا كان استنكاراً سعد عليه بقوله: أكست بعدنا أم حمقنا بعدك ومنها أن الأمر فى نظر الوليد إنما هو الملك بكل ما يحمله من سطوة وظلم وجبروت وإسفاف واحتقار، إنه التعالى الأموى الذى نفخ فيه وجدد ضرامه عثمان بتوليه هذا الفاجر المائن ومنها ما يستفاد من كلمة سعد (أراكم جعلتموها ملكاً) إنها الكلمة التى تعبر عنما يختلج فى نفوس المسلمين ويدور فى أوساطهم.

إن الوليد وهو أمير الكوفة قد ارتكب أموراً يخجل القلم عن تدوينها لأن بها العار الدائم والسمعة الرديئة التى تمس شرف وكرامة الولاة إن الوالى هو الحافظ للشرع والدين والمدافع عن شريعة سيد المرسلين يقيم الحدود المعطلة ويردع الضالين ويهدى التائهين فكيف إذا انعكس الأمر فارتكب الوالى من الموبقات ما يوجب الحد، فهل يعود للدين حرمة فى نفوس أتباعه وقد استباح حرامه الكبير فيهم، وولى الأمر من بينهم، إن هذا الوليد قد شرب الخمر وهو والٍ من قبل ابن أمه خليفة المسلمين عثمان.

حكى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى أن الوليد بن عقبة كان زانياً شريب خمر فشرب الخمر بالكوفة وقام ليصلى بهم الصبح فى المسجد الجامع فصلى بهم أربع ركعات ثم التفت إليهم وقال أزيدكم؟ وتقيأ فى المحراب وقرأ بهم فى الصلاة وهو رافع صوته[1]:

(١) قصة الوليد وصلاة الصبح أربعاً وانشاده الشعر وعمل السحر:

١- قال اليعقوبى فى تاريخ ج٢ ص١٦٤ ما نصه بالحرف الواحد:

وفيها (فى سنة ٢٦) ولى (عثمان) الوليد بن عقبة بن أبى معيط الكوفة مكان سعد وصلى بالناس=

علق القلب الربابا ... بعد ما شابت وشابا

وهذا ما دفع الحطيئة إلى أن يقول:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... إن الوليد أحق بالعذر

نادى وقد نفدت صلاتهم ... أأزيدكم ثملاً وما يدرى

ليزيدهم خيراً ولو قبلوا ... منه لزادهم على عشر

فأبوا أبا وهب ولو فعلوا ... لقرنت بين الشفع والوتر

حبسوا عنانك إذ جريت ولو ... خلوا سبيلك لم تزل تجرى

وعندما صدر منه ذلك خرج فى أمره إلى عثمان أربعة نفر وعندما وصلوا إليه أوعدهم وتهددهم وقال الواقدى أن عثمان ضرب بعض الشهود أسواطاً فأتوا علياً فشكوا ذلك إليه فأتى عثمان فقال له: عطلت الحدود وضربت قوماً شهوداً على أخيك فقلبت الحكم وقد قال عمر، لا تحمل بنى أمية وآل أبى معيط خاصة على رقاب الناس. وبعد إلحاح شديد وطلب أكيد من الإمام استدعى عثمان الوليد فلما شُهد عليه فى وجهه وأراد عثمان أن يجده لم يجرؤ أحد أن يحده خوفاً من غضب عثمان حتى قام الإمام بنفسه وأخذ السوط وفى لفظ الأغانى قال له الوليد نشدتك بالله وبالقرابة فقال له على: اسكت أبا

= الغداة وهو سكران أربع ركعات ثم تهوع فى المحراب والتفت إلى مَنْ كان خلفه فقال: أزيدكم.. ثم جلس فى صحن المسجد وأتى بساحر يدعى بطروى من الكوفة فاجتمع الناس عليه فجعل يدخل من دبر الناقة ويخرج من فيها ويعمل أعاجيب فرآه جندب بن كعب الأزدى فخرج إلى بعض العياقلة فأخذ منه سيفاً ثم أقبل فى الزحام وقد ستر السيف حتى ضرب عنقه ثم قال له: أحى نفسك إن كنت صادقاً فأخذ الوليد فأراد أن يضرب عنقه.

فقام قوم من الأزد فقالوا: لا تقتل والله صاحبنا فصيره فى السجن.. والقصة لها تكملة موجودة فى المصدر المذكور أعلاه..

وذكرها صاحب تاريخ الخلفاء، ص١٥٥.

٢- وحكى أن الوليد صلى بهم الصبح أربعاً وهو سكران ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟..

٣- وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف ج٤ ص٥٥٩ عند مروره بتفسير آية - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا.. ﴾ قال: الوليد بن عقبة أخا عثمان لأمه وهو الذى ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً ثم قال: هل أزيدكم؟..

٤- ذكرها ابن الأثير فى تاريخه ج٣ ص١٠٧.

وهب فإنما هلكت بنو إسرائيل بتعطيلهم الحدود فضربه وقال: لتدعونى قريش بعد هذا جلادها.

هذه صورة تمر أمام الملأ الإسلامى ويشاهدها كل مسلم بأم عينه فهل يحق لنا بعد هذا أن نقول أن الصحابة بمجردها دون أن ترافقها التقوى والصلاح بنفسها مجردة تُكسب المرء حصانة ذاتية تمنع أى إنسان أن يتفوه بكلمة اتجاه من يتشرف بالنسبة إليها، هذا خلاف ما جاء به الإسلام وحكم به العقل فإن الستر على أمثال هؤلاء من الصحابة المستهترين يجعل أبناءنا يشككون بكل الصحابة حيث يسرى الشك منهم إلى غيرهم ولا يمكن أن نقول للشاب المثقف اقفل أبواب تفكيرك ولا تشغّل عقلك وآمن بأن الصحابة كلهم ثقاة عدول، لا يمكن ذلك لأنه إن سلّم حياء وخجلاً ولبعض الدواعى الأخرى فى الظاهر فإنه يضحك علينا فى السر ويفشى هذا السر القلبى عندما يطمئن بعدم الرقيب ممن يتبنى هذه الآراء السخيفة. إذ هو يجد بكل وضوح تسافل بعض الصحابة واستهتارهم وقلة مبالاتهم فى الدين، بل الأجدر بنا حفاظا على ديننا وسمعة الصحابة الطيبين وإمساكاً منا لشبابنا الغيور المثقف أن نقول بصراحة أن بعض الصحابة تخضع الرقاب لهم وتنحنى الجباه إجلالاً لهم بما قدموا وبذلوا وجاهدوا وضحوا هؤلاء هم أعلام الإسلام بهم قامت عمد الإسلام وعلى سواعدهم ارتفعت راياته هؤلاء هم صحابة محمد الأخيار الذين لم يبدلوا ولم يغيروا أحبوا الإسلام وآثروه على أنفسهم فكانوا فى الذروة من المجد عند الله وفى مقابل هؤلاء يرجد بعض الصحابة الذين لم يستوعبوا الإسلام ولم يدخل نور الإيمان فى قلوبهم فعصوا وانحرفوا واتخذوا غير دين الله ديناً وغير تشريعه مسلكاً وطريقاً. إن قلنا بذلك نكون قد نطقنا بالحقيقة وأنصفنا عقولنا وربحنا شبابنا وإلا فنحن نساوم على ديننا وإن كنا نريد خلاف ذلك.



عيّنات من أوفياء الصحابة

هذه سيرة عملاقين من طليعة الصحابة أيسر ما نقول فيهما أنهما من الأوفياء للمبدأ والأمناء على شريعة الله، رعيا حق الصحبة المحمدية، فقدما نفسيهما فى سبيل الحق شهداء صدق ورجال إيمان..

عمار بن ياسر

هذا عمار من طليعة المجاهدين الذين قام الإسلام على عواتقهم، إنه البطل الذى صنعه الإسلام فكان نموذجاً حياً لإرادة السماء. جاء صامداً صمود الرواسى التى لا يأتى عليها الزمن إلا لتزداد صلابة وقوة وترتفع شموخاً وجلالاً، إنه عبقة من شذى الأريحية وعطر من أنفاس الخلود، مرّ فى مطلع الرسالة مرة ليؤرخ على جبين الدهر أحرف النصر ويكسب إكليل الغار الذى يتلى عند كل ثغر بالدعاء للأبطال والمجاهدين والعظماء الرساليين إنه رمز لمضمون الرسالة وعنوان وفاء ونضال لكل الشرفاء فى دنيانا حينما تعقم عن إنجاب الأوفياء والمناضلين، سمح به الزمن صياغة فريدة جاءت لتحمل رسالة الأنبياء ووصية الأوصياء فكان ابن الرسالة البار المجاهد ورفيق الإمامة فى مسيرها النضالى الشريف ضد الكفرة والملحدين أو الباغين والمنحرفين.

لقد عهدنا البطولة والتضحية والوفاء والجهاد والخصال الحميدة فى فرد واحد يجود به الزمن ليتّخذ رمزاً ومثلاً يأخذه الثوار المناضلون فى مسيرة الجهاد المقدس فى دروب الحياة الملوءة بالأحداث المزدحمة بالآلام والظلم.

لقد عهدنا أن يفوز بالجهاد والتضحية والفداء والشهادة من كل أمة فرد يمثل مطمحاً لكل آمال الأمة وتطلعاتها، لقد عهدنا ذلك كله ولكن لم نعهد أن يطل علينا فى وقت واحد ومن بيت واحد ثالوث يعبر عنه والدان وولد.

إنه الإسلام الذى دخل النفوس فأنعشها والجوارح فحركها والأفكار فأخذ بها تصعيداً نحو الرقى والكمال، إنه الإسلام الذى صنع عماراً ووالديه قرابين من أجل الحق والعدالة ورفضاً للظلم والجور.

إنه عمار ابن ياسر ووالداه.

جهاد وكفاح مجد ونضال تضحية وفداء حب وإخاء وختامها الشهادة حلقات تواصلت بين العائلة الواحدة فخلقت الأب العظيم والأم الشهيدة - بل أول شهيدة فى الإسلام - والابن المجاهد فى سبيل عزة الإسلام ورفعة شأنه.

إنها أسرة واحدة خطت فى درب الجهاد فلم ترجع إلا بالشهادة شهادة الأم تحت سياط

الجلادين وحراب الطواغيت المجرمين، شهادة فريدة سجلتها فى قائمة الخالدين الرساليين، إنها سمية التى تقاطرت دماؤها لتزرع محل كل قطرة سقطت شهيداً يرفع علم الإسلام خفاقاً.

إنها المرأة التى قالت ربى الله فأبى الكافرون ذلك النداء فسلطوا حرابهم وسياطهم لإخماد ذلك الصوت وقتله، فانبعث لحناً متعدد النغمات متموج الحركات متنقلاً عبر الحياة إلى آخر الحياة.

إنها المرأة التى أعطت أعظم دروس التضحية فى سبيل عقيدتها وإيماناً ولم تساوم عليهما، إنه درس لكل امرأة مسلمة عاصرت سمية ومن بعدها إلى زماننا هذا بل إلى آخر الدهر، ليس للمرأة أن تقول نعم لكل شىء جديد وافق الإسلام أم خالفه ناقضة أو عاكسه بل لها أن تقول نعم للإسلام عقيدة وتشريعاً وأحكاماً وفى جميع المجالات ولها أن تقول لا. لا لشىء من مبادىء الأرض خالف تعاليم السماء، لا ليس لغير الإسلام وإن كلفها ذلك كل غالٍ ونفيس هذه هى أم عمار.

أما الأب ياسر الذى لاقى الكثير من عذاب قريش فكان أقوى من كل قوى الشر والبغى فتحدى جبروت الطغاة وظلمهم بعزة الإسلام وعنفوانه وأعلن أمام الملأ من قريش أنه لن يعطيهم من دينه شيئاً، لن يعطيهم ولو بلسانه ما يرضيهم، إنه الشموخ والعزة بالمبدأ الذى ملك عليه كل شعوره فكأن كل سوط يلسع جسده يد حالمه تمر عليه برفق ولين لتعطيه الدفء وتغدق عليه الإيمان وتبعث فى جسده الحياة من جديد براحة نفس واطمئنان ضمير.

ما أروع العذاب وأطيب طعم السياط، ما أجمل الدماء المترقرقة والأجساد المضرجة والأشلاء الممزقة إذا كانت فى سبيل الله، إنها أمنية كل الأحرار المبدئيين الذين ينادون بالإسلام شعاراً يمضمونه عملاً، إن دمعة العذاب فى سبيل الله ستخلق بحوراً تغرق الطغاة والظلمة وكل قطرة تسقط على الأرض من الشهداء ستُسقط طاغوتاً من طواغيت الأرض تحكّم فى رقاب الناس ودمائهم بغير حق.

ما أروع الشهادة فى سبيل الله إنها النهاية السعيدة وأكرم بها من نهاية، إنها أمنية تراود كل المؤمنين فى شرق الأرض وغربها لأن بها العزة لكلمة الله والرفعة والسمو لكل شرائع السماء وتعاليمها.

إنه مجد ناله الأب ياسر على أيدى جلاديه، لقد عذب بسياطهم ونالوا منه ما يشفى حقدهم وغرورهم حتى أتوا على نفسه فمات شهيداً طليعياً من طلائع الفتح الإسلامى

وركناً من أركان تثبيت قواعد الحق والإيمان.

هكذا كان والدا عمار بهذه الروح التضحوية والنفس العالية استطاعا الصمود تحت السياط حتى النفس الأخير فماتا شهيدين فى سبيل الإسلام وكانت دماؤهما هى التى روت شجرة الإسلام حتى غدت قوية صلبة تتمتع بالقوة القاهرة والعزم الثابت المتين.

نعم من هذين الأبوين ولد بطلنا عمار ومعهما تعذب وناله ما نالهما من الآلام والاضطهاد، وعلى درب أبويه سار فى طريقه الجهادى المبارك.

إن عمار بن ياسر طليعى من طلائع المسلمين المجاهدين قد عذبته قريش وتفننت فى تعذيبه وناله مع أبويه ما نال المستضعفين من العتاة الطواغيت كانوا يُخرجون عماراً وأباه وأماه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحرها فيمر بهم النبى (ﷺ) ويقول: صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة. فمات ياسر من العذاب وكذلك امرأته سمية فكانت أول شهيدة فى الإسلام، وأما عمار[1] فشددوا العذاب عليه بالحر تارة وبوضع الصخر على صدره أخرى وبالتغريق ثالثة.. وهكذا. إنهم أهل بيت قد عذبوا فى سبيل الله فكانت كلمات النبى بسلماً لكل جرحاتهم وتعويضاً كبيراً عن كل ما لاقوه ونالهم من العذاب، إنها كلمات القائد العظيم التى تعطى الزخم والقوة والراحة والطمأنينة وتهون الخطب مهما كان فادحاً والعذاب مهما كان شديداً، ويشاء الله أن ينجو الابن عمار ليكمل شوط الجهاد المقدس فكان رفيق النبوة فى كل غزواتها لقد شهدها كلها لم يتخلف عن واحدة منها حباً لله وجهاداً فى سبيله.

إيمان عمار

إن قريشاً بعد أن أولعت بتعذيب المستضعفين وتفننت فى إيذائهم وكذلك الطغاة فى كل عصر يفعلون - أعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا تقية من أجل الحفاظ على نفسه كى يكمل شوطه المرسوم له فى الجهاد والنضال وتدعيم أركان الإسلام وتثبيت جذوره وهنا تحركت الألسن بأن عماراً كفر وأخذت البطل رعدة من أجل ذلك إنه الرجل المطمئن إلى قلبه المفعم بالإيمان ولكن يريد أن يعرض قضيته على النبى فبيده الحل والعقد وله الرأى أولاً وأخيراً وهنا تدخلت إرادة الله لتحسم الموضوع وتجلى الأمر وتظهر إيمان عمار الثابت المستقر فيلتحم قول الله مع قول رسوله ليشكلاً أقوى الدعائم فى تثبيت عمار وبيان إيمانه إنه عمار الذى نزل فيه قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ

(١) ابن الأثير فى تاريخه ج٢ ص٦٧ والفخر الرازى فى تفسيره الكبير ج١٩ ص١٢١.

بالإيمان ولكن مَن شرح بالكُفرِ صدرًا فعليهِمْ غضبٌ مِن اللهِ ولَهُمْ عذابٌ عظيمٌ﴾[1].

إنهـا الرخصـة لهـذا البطل كى يعطيـهم بلسـانه مـا أرادوا شـريطة أن يبـقى. الإيمان مستقراً فى جنانه وقد ذكر أهل التفسير أنها نزلت فى عمار.

قـال ابن عبـاس كمـا فى الواحدى نزلت فى عـمار بن ياسر وذلك أن المشـركين أخذوه وأباه ياسراً وأمه سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً فأما سمية فإنها رُبطت بين بعيرين و.. وقـتل زوجها ياسر وهمـا أول قـتيلين قتـلا فى الإسـلام وأمـا عمـار فإنه أعطاهم مـا أرادوا بلسانه مكرهاً فأخبر بأن عمـاراً كفر. فقال: كلا إن عمـاراً ملىء إيماناً من قـرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمـار رسوله الله (ﷺ) وهو يبكى فـجعل رسول الله (ﷺ) يمسح عينيه وقال: إن عادوا لك فعد لهم بما قلت فأنزل الله تعالى هذه الآية:

نعم إن عمار بن ياسر الذى قال فيه النبى:

١- إن عـماراً ملئ إيمانه من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه. وفى لفظ آخر: عمارٌ ملىء إيماناً إلى مشاشه.

٢- أخرج ابن هشام: ما لهم ولعمار؟ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، إن عماراً جلدة ما بين عينى وأنفى..

٣- من يحقر عـماراً يحقره الله ومن يسب عـماراً يسبه الله[2] ومن ينتقص عـماراً ينتقصه الله ومن يعاد عماراً يعاده الله.

وهناك الكثير من الأحاديث التى تبيّن فضل عمار وعلو منزلته.

إن بطلنا المجـاهد والصحابى الكبير لم يتوان طيلة حياة النبوة فى خوض المعارك الإسلامية معارك الجهاد والشرف والبطولة والكفاح بل رافق النبى فى جهاده من غزوته الأولى إلى آخر الغزوات وقد أبلى البلاء الحسن وعرف بمواقفه الصلبة ودفاعه عن النبى ولما انتقل النبى إلى ربه كان أحد الأركان الذين لاذوا بآل رسول الله واعتصموا بحبلهم فلم يفارق أمير المؤمنين علياً بل لزمه معترفاً أن الخلافة له وأنه صاحبها الشرعى الموصى له بها ويبقى وفياً له ملازماً لطريقه..

(١) النحل/ ١٦٠. انظر الفخر الرازى فى تفسيره الكبير عند تفسير الآية المباركة ج١٩ ص١٢١ وكذلك انظر طبقات ابن سعد ج٣ ص٢٤٩.

(٢) قال الأمينى فى غديره ج٩ ص٢٨ بعد أن نقل جملة من الأحاديث فى فضل عمار وبالسنة متعددة نقل هذا الحديث عن الطبرانى وقال: قال الهيثمى: رجاله ثقات.

عمار وعثمان:

إن عمار بن ياسر الذى أبلى البلاء الحسن وجاهد ذلك الجهاد الميمون المبارك، إن عماراً الذى تشبع بروح الإسلام وتربى على أيدى النبوة بقى الإنسان المسلم الذى لا يبالى بقول الحق وإن جنى عليه أقسى الجنايات وأمرّ الأمور، وكيف يستطيع أن يغمض جفنه وهو يرى الباطل وينتفخ والحق ينزوى، لم يكن ذلك ديدنه ولم تكن تلك تربيته وعاداته، إنه تربى على قول الحق والنطق بالصدق فلا مساومة على حكم من أحكام الإسلام ولا مداهنة فى شعيرة من شعائر الله فعلى عمار أن يجهر بالحق وعليه أن يعلو صوته صوناً لأحكام الله وحفظاً على تعاليمه فلذا كان له مع الخليفة الأموى عثمان بن عفان موقف صريح واضح جهر فيه بالحق وأعلن فى وجه الخليفة استنكاره للممارسات التى تجرى على يديه وأيدى بنى أبيه من العصابة الأموية.

عمار وبيان الإستنكار:

إن صحابة النبى بعد أن وقفوا على تجاوزات الخليفة عثمان وأحصوا عليه متفرقات خطيئاته أجمعوا على أن يرفعوا إليه كتاباً يبيّنون فيه تلك التجاوزات وقد كُتب بيان الإستنكار وتعداد تلك الخطايا ثم حمل ذلك عمار بن ياسر ومضى إلى دار عثمان فاستأذن عليه فأذن له وكان إلى جوار الخليفة العصابة الأموية مروان بن الحكم وأهله من بنى أمية فدفع إليه الكتاب فقرأه ثم نظر إلى عمار قائلاً: لمَ اجترأت على من بينهم؟ وهنا تدخل لعين رسول الله مروان بن الحكم[1] قائلاً: يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعنى عماراً) قد جرأ عليك الناس وأنك إن قتلته نكلت به من وراءه عندها قال عثمان لغلمانه اضربوه. فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه فغشى عليه فجروه حتى طرحوه على باب الدار فأمرت به أم سلمة زوج النبى (ﷺ) فأدخل منزلها وقال عمار: ما هذا بأول ما أوذيت فى الله، وعندها أطلعت عائشة شعراً من رسول الله (ﷺ) ونعله وثياباً من ثيابه ثم قالت ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم. وقال عمرو بن العاص هذا منبر نبيكم وهذه ثيابه وهذا شعره لم يبل فيكم وقد بدلتم وغيرتم فغضب عثمان حتى لم يدر ما يقول.

هكذا كان موقف المسلم الناصح مع الخليفة الخاطىء، كان من الأجدر بعثمان أن يشرح صدره للناصح المؤمن كان عليه أن يصغى بكل جوارحه من أجل أن يقف على الحقيقة

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص٣٦ طبع دار المعرفة فى بيروت ومن أراد تفصيل ذلك فعليه مراجعة الغدير للأمينى ج٩ ص١٦.

فيصلح ما أفسدته العصابة الأموية ويعود بعد الإنحراف إلى سبيل الله وسنة الرسول الكريم، كان عليه أن يدق فى لائحة التجاوزات ويقلع عما ارتكبه ويرتدع عما جنته يداه، كان عليه أن يخضع للحق ويذعن لإتفاق الصحابة الذين أكرموه ورفعوا من شأنه ببياناتهم الذى فصّلوا فيه تلك الخطايا كى يرجع الخليفة إلى الحق ويرعوى عن ممارساته غير اللائقة به كمسلم فكيف به وهو خليفة.

هكذا نال عمار جزاء نصحة فبالأمس كانت طواغيت الجاهلية تنال منه واليوم بأيدى المنحرفين من المسلمين ينال قسطه.

ما أقسى يد القدر حينما يبنى الإنسان بسواعده وقوته صرحاً شامخاً وعزاً متطاولاً ويكابد من أجل ذلك أشق أنواع العذاب والقهر ثم تغلبه الجهّال على قيادته فيناله منهم ما كان يناله على أيدى أعدائه من قبل.

وتمضى الأيام ويحكم الإسلام على الخليفة حكمه العادل فيقضى قتيلاً بأيدى الصحابة وتعود الخلافة الشرعية إلى صاحبها الإمام علىّ فتفرح القلوب المؤمنة وتنشرح الصدور الطاهرة التى آذاها هذا الفراق الطويل ويكون عمار فى أول الركب يبارك لعلى بعودة حقه إليه، يبارك له فى رجوع الحق إلى نصابه وينضوى تحت لوائه معلناً أن الجهاد بين يديه كالجهاد بين يدى رسول الله.

ما أروع موقف الرجال عندما يقفون بمبادئهم وعقائدهم وقفة الأشبال فى سوح القتال تحت أمرة القيادة الحكيمة الملتزمة بمنهجهم المؤمنة بطريقهم و هذانفسه ما حصل لعمار، إنه يؤمن بقيادة الإمام إيمانه بقيادة رسول الله فلذا التزم فى صف المجاهدين بين يديه وبرز لقتال الناكثين والقاسطين والمارقين.

الشهادة أمنية المجاهدين

إنه شيخ كبير قد تجاوز التسعين من العمر يشد حاجبيه بعصابة ويبرز فى معركة صفين تلك المعركة التى دارت رحاها بين الحق والباطل بين الخليفة الشرعى والبغاة العتاة، بين أمير المؤمنين علىّ وبين الطاغية معاوية، يبرز عمار وهو شيخ كبير إلى المعركة وهو مؤمن بسلامة طريقه على يقين من معركته يتمتع برؤية واضحة جلية، إنه على الحق، فلذا يضرب بسيفه دون هوادة ويردد بعد أن يشعر أن عدوه يميل عليه قائلاً: اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هذا البحر لفعلته. اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أضع ظبة سيفى فى بطنى ثم أنحنى عليها حتى تخرج من ظهرى

لفعلته وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ولو أعلم عملاً هو أرضى لك منه لفعلته.. وأيم الله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمت إنا على الحق وإنهم على الباطل.

ما أجمل هذه المقطوعة الرائعة التى تلتهب حماساً وقوة وتفيض عبقرية وحقاً، إنها كلمات الإنسان الرسالى المؤمن بحقه المطمئن إلى مصيره، إنه أشرف عمل وأرضى الله من كل عمل إنه الجهاد ضد الزمر الفاسدة التي لم تذعن للحق فخرجت على إمام الحق فوجب جهادها وقتالها. بقى عمار على عزمه وتصميمه ودارت المعركة وارتفع القتام وكل من طرف سمعه حديث النبى يتصور عماراً ويتمثله علماً للحق ومناراً للهدى حيث أن المسلمين جميعاً يرون – بما فيهم أعداء عمار – عمار تقتله الفئة الباغية – وهل يمكن لأحد أن يبرز لعمار بعد ذلك؟ وهل يمكن لمسلم يؤمن بنبوة محمد أن ينزل إلى ساحة المعركة ضد عمار؟..

إن عماراً هو الميزان فمن كان إلى جانبه فهو على الحق وغيره على الباطل، إن عمارا فى صف علىّ وتحت رايته فأعلام الحق هنا فى صف ابن أبى طالب إنه إمام المتقين وقائد الغر المحجلين فهل يجد المسلمين إمام حق غير على يقاتلون معه؟ كلا.. ثم كلا.. إن عماراً يعرف النهاية يعرف أنها الشهادة فلذا يتوقعها بفارغ الصبر ما أحسن اللقاء فى سوح الجهاد إذا كانت خاتمته الشهادة، لقد أنباه بها رسول الله من قبل وبشره بالفوز والفلاح فلذا تراه يدور حول علاماتها التى أبانها له أنه يريد البرار فيطلب شربة فيقدم له ضياح من لبن وعندها تنطلق من حنجرته زغردة المؤمن الواثق: الله أكبر، ما هذا التكبير وما شأنه؟ نعم إنه العهد والعلامة التى يتوقعها عمار من النبى حيث قال له: آخر رزقك من الدنيا[1] ضياح من لبن. قد تحقق الآن وهو يأمل أن تكون النهاية يأمل أن يرزق الشهادة بين يدى علىّ فى سبيل الله والمبادىء الإسلامية السامية.

نزل عمار إلى المعركة ولكن كما قلنا من يجسر أن يقاتل عماراً بسيفه بعد بلاغ النبى وقوله: عمار تقتله[2] الفئة الباغية – نعم إن من يحارب علياً – وهو أفضل من عمار–

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص٢٥٨.

(٢) قال ابن الأثير فى تاريخه ج٣ ص٣١٠.

وقد كان ذو الكلاع سمع عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله (ﷺ) لعمار بن ياسر: تقتلك الفئة الباغية وآخر شربة تشربها ضياح من لبن فكان ذو الكلاع يقول لعمرو: ما هذا ويحك يا عمرو؟.

فيقول عمرو: إنه سيرجع إلينا فُقتل ذو الكلاع قبل عمار مع معاوية وأصيب عمار بعده مع على. فقال عمرو لمعاوية: ما أدرى بقتل أيهما أنا أشد فرحاً بقتل عمار أو بقتل ذى الكلاع. والله لو بقى =

يملك رجلاً قساة جفاه لا يطيعون الله إلا بما يسمح لهم به معاوية، إن هناك قوما قلوبهم أقسى من الحديد لا تخاف الله ولا ترجو الحساب ولهم الجرأة الكافية لقتل عباد الله جميعاً مرضاة لسيدهم معاوية نعم إن هناك زبانية أمرية رباها معاوية على عبادته فهى تملك قساوة الوحوش وضراوة الأسود لا ترعى لمؤمن عهداً ولا تحفظ وداداً عن القيم والمبادىء وصوناً لحق الله وأحكامه. ويرتفع مع النفس الأخير من حياته صوت رقيق ضعيف قائلا: اليوم ألقى الأحبة[1] محمداً وحزبه إنه صوت عمار بترنيمته العذبة الندبة إنه لحن الوداع لهذه الدنيا إنه شعار المؤمنين فى خاتمة حياتهم ووصيتهم لإخوانهم الذين يتلمسون خطاهم ويعيشون أهدافهم وآمالهم. هكذا أصحاب محمد يكونون؟ هكذا عرفناهم فى سيرتهم وسلوكهم؟ هكذا أعطونا دروساً عالية وتفانياً رائعاً فى سبيل الله، إنهم صحابة صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ووفوا بما قالوا فآثروا الحق واندفعوا فى سبيله وبذلوا الغالى والنفيس من أجله، ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾[2] وأين هذا النمط العالى من أولئك البغاة المنحرفين والتجار الإنتهازيين كمعاوية وعمرو وأضرابهما..

= ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بمامه أهل الشام إلى على فأتى جماعة إلى معاوية كلهم يقول: أنا قتلت عماراً.

فيقول عمرو: فما سمعته يقول؟ فيخلطون.

فأتاه ابن حوّى فقال: أنا قتلته فسمعته يقول: اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه.

فقال له عمرو: أنت صاحبه.

ثم قال: رويداً والله ما ظفرت يداك ولقد أسخطت ربك. قيل أن أبا الغارية قتل عماراً وعاش إلى زمن الحجاج ودخل عليه فأكرمه وقال له: أنت قتلت ابن سمية؟ يعنى عماراً قال: نعم.

فقال: من سره أن ينظر إلى عظيم الباع يوم القيامة فلينظر إلى هذا الذى قتل ابن سمية.

ثم سأله أبو الغارية حاجته فلم يجبه إليها.

فقال: نوطىء لهم الدنيا ولا يعطونا منها ويزعم إنى عظيم الباع يوم القيامة..

فقال الحجاج: أجل والله من كان ضرسه مثل أحد وفخذه مثل جبل ورقان ومجلسه مثل المدينة والربذة إنه لعظيم الباع يوم القيامة والله لو أن عماراً قتله أهل الأرض كلهم لدخلوا كلهم النار.

(١) ابن الأثير ج٣ ص٣١٠/ الطبقات ج٣ ص٢٥٨/ البداية والنهاية ج٧ ص٢٦٩.

(٢) آل عمران: ١٤٨.

أبو ذر الغفاري

هذا صحابي مثّل أشرف دور في حياة الصحابة، إنه رمز النضال والبطولة وعنوان الفضائل والقيم إنه الرجل العظيم الذي وقف في وجه الظلم الأموي وصرخ صرخة الإسلام المدوية فهزّ نفوس الطغمة الحاكمة وأوقفها على جميع إنحرافاتها وزلاتها.

إن هتافات الغفاري أصبحت شعاراً يطرحها كل ثائر في سبيل الحق المهتضم والإنسانية المعذبة، إنها صرخة الضمير ويقظة الوجدان أمام جبروت الظلم وقساوة الجور.

إن أبا ذر الغفاري شعلة أوقدها الإسلام في حنادس الظلام فلا تطفأ مهما امتدت الليالي وتكاثفت الحجب إنه الشعلة التي تستمد وقودها من الحق فهي خالدة بخلوده دائمة مستمرة بدوامه واستمراره.

إن البطل الغفاري عندما وقف في وجه عثمان الأموي كان ينطق بضمير الأمة الإسلامية وحرية رأيها، كان يطرح الشعار الذي يلتف حوله كل أبناء الإسلام وبناته الأمناء. وإذا أردنا أن نقف ونلم إلمامة قصيرة بسيرة هذا العظيم الذي يشكل أول داعية للثورة علناً على كل ظالم وجائر وردد الإستنكار بعنف وحزم حتى كانت النهاية شهيداً سعيداً في دار قفر وغربة بعد أن نال النفي والوحدة أقسى وأفظع ألوان الضغط والحرمان فإلى رحاب تلك الشخصية الصحابية العظيمة:

أبو ذر في عهد النبي:

إستفاقت الجزيرة العربية بل العالم كله على أنشودة الخلاص التي يحملها أروع الناس وأكملهم، إنه صوت رسول الله الذي استيقظ على هداه العالم وانتبهت الإنسانية المعذبة من غفوتها وصحت بعد ليل دامس بهيم. وعلا الصوت فتحركت جموع المستضعفين للإنضواء تحت ذلك اللواء المبارك لأن به خلاصها من الذل والإستعباد والضعف والهوان وطرق سمع الغفاري ذلك الصوت الحنون وطالما أنه ترقبه طويلاً وتشوق إلى تلك الساعة التي يسعد بلقياه فكان ربع الإسلام على قول وخمسة علي آخر وأيهما ثبت فالمقطوع به أنه من السابقين الأولين الذين صدقوا الرسل وآمنوا بنبوة محمد بن عبد الله.. لقد آمن الغفاري فنطق بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ودخل في مجموعة الإيمان التي

حلت منه محل الأهل والعشيرة والوطن والقبيلة لقد انصهر فى ذلك المجتمع الجديد وأراد أن يتحدى قريشاً ويعلن فى وجهها إسلامه فلذا انطلق إلى مكان إجتماعها وأطلقها صيحة أزعجتهم فقاموا إليه جميعاً فأذاقوه الأذى والألم وكادوا يقضون عليه لولا أن تدخل العباس فلفت أنظارهم إلى أن تجارتهم على طريق غفار فتركوه.

إنها صورة الإنسان الذى يشتاق إلى العذاب فى سبيل الله من يومه الأول، وسيبقى ذلك أمنيته وأقصى غايته، إنه سيجد الخاتمة ألماً محبباً فى سبيل كلمة الحق التى جهر بها وآلى على نفسه أن لا يتركها مهما تعاظمت قوى الشر وانتفخت لقد آل على نفسه أن ينشد لحن المعذبين أينما حل وفى أية بقعة كان آل على نفسه أن لا يهادن ظالماً مهما كانت منزلته ومقامه، لقد أخذ على نفسه بعد أن التزم بالإسلام أن يعلن كلمته ويؤثرها على كل عزيز لديه. إنه الرجل الذى لزم رسول الله فسأله عن كل شيء حتى أجاب الإمام على عندما سئل عنه فقال: (ذلك رجل وعى علماً عجز عنه الناس[1] ثم أوكأ فيه فلم يخرج شيئاً منه) ثم أنه فوق ذلك أعطاه النبى علامة فارقة بها يمتاز عن جميع الصحابة، إنها اللهجة الصادقة، التى لا يداخلها شك ولا يعتور سبيلها نقض، ما أجمل أن يكون الإنسان صادقاً ولكن أجمل منه أن لا يكون أصدق منه تحت أديم السماء وهكذا كان صاحبنا الغفارى، وكشف عن ذلك النبى بقوله صلوات الله عليه:

ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء، من ذى لهجة أصدق ولا أوفى من أبى ذر شبيه عيسى بن مريم[2].

إن أبا ذر قد جاهد بين يدى النبى وشهد مشاهده وفاز بثواب الجهاد وحمل السلاح، لم يتوان فى نصرة الإسلام لحظة ولم يهن عن طلب الحق فى وقت..

إن أبا ذر أمة برأسها لها معالمها الخاصة وسماتها المميزة فقد حباه رسول الله أجل الصفات وأعلاها وأخبره عن بعضها فى غزوة تبوك حيث تأخر جمله ولم يعد يمشى معه فتركه مكانه وحمل رحله على ظهره وتابع مسيره حتى أدرك النبى فقال له: يرحم الله أبا

(١) الإستيعاب ج٢ ص٦٦٤ ونقل الأمينى «وحديث على ذكره ابن الأثير فى أسد الغابة ج٥ ص١٨٦ وابن حجر فى إصابته.

(٢) الترمذى. وهذا الحديث مع اختلاف فى بعض ألفاظه روى بكثير من الطرق وعن غير واحد من الصحابة حتى قال الأمينى فى غديره ج٨ ص٣١٣: أخرجه على اختلاف ألفاظه: ابن سعد، الترمذى، ابن ماجة، أحمد، ابن أبى شيبة، ابن جرير، أبو عمر، أبو نعيم، البغوى، الحاكم، ابن عساكر، الطبرانى، ابن الجوزى.

ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده ويشهده عصابة من المؤمنين[1] إن أبا ذر ليس ممن تقعد بهم نفوسهم إن تخلفت جمالهم عن المسير وليس ممن يتحينون الفرص ويخلقون المعاذير من أجل الراحة والدعة بل إن هم المخلصين أمثال أبي ذر، الجهاد والجهاد دائما غايتهم وخصوصاً إذا كان تحت ظل القيادة المعصومة المسددة.

لقد جاهد أبو ذر بسنانه ولسانه..

أبو ذر والخليفة الأموي

تولى شيخ الأمويين عثمان كرسي الخلافة الإسلامية وكان عليه وهو الذي عاش زمن النبوة. أن يسير بما سار به المؤمنون الأخيار، كان عليه أن يسير بالعدل والحق دون أن تأخذه في الله لومة لائم ولكن الخليفة جمحت به نفسه وقاده هواه إلى نبذ أحكام الإسلام وسدل الستار عليها وأحل محلها رأيه وهواه. لقد صدرت من الخليفة أمور لو انفرد بواحدة منها لأستحق ما ناله من الجزاء عندما حاسبه عليها المجتمع الإسلامي مجتمعه.

- لقد أساء استخدام السلطة لصالحه وصالح أهل بيته.
- لقد استأثر بأموال المسلمين يقسمها في عشيرته حباً وأثرة دون استحقاق أو كفاءة.
- لقد غيّر سنة رسول الله وأتى عليها بما لا عهد للمسلمين به.
- لقد ولىّ أقرباءه على رقاب المسلمين ومنهم الفاسق والطليق وشارب الخمر والزنديق.

إلى آخر القائمة التي أحصاها المسلمون عليه.

لقد رأى أبو ذر كل أفعال عثمان مخالفة للحق فاستنكر عليه وجهر في استنكاره وأخذ يردد: بشر الكانزين بعذاب أليم ويتلو قول الله عزّ وجل: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2].

وسمع مروان الوزغ ذلك فرفعه إلى عثمان فأرسل إلى أبي ذر نائلاً مولاه أن انته عما يبلغني عنك.

فقال: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إليّ وخير لي من أن أسخط الله برضاه فأغضب عثمان ذلك وأحفظه فتصابر وكف.

(1) ابن الأثير ج٣ ص٢٨٠.

(2) التوبة: ٣٤.

إنه أبو ذر يرمي من كلامه معنى إسلامياً يريده الحق منه، إنه صوت الإسلام يجب أن يتحدى جبروت الحكم ورهبة الحاكم الذى ينحرف عن طاعة الله، إنها ثورة المسلم على الوضع الفاسد حتى لو كان وحده فى مقابل جيوش الخليفة وجبروته.

إن أبا ذر يريد توعية المجتمع الذى أتت على روحه العصابة الأموية فأماتت فيه الحس الثورى المتيقظ، إن هذا المجتمع بحاجة إلى من يدق له أبواق النفير كى يسترجع أنفاسه التى أجهز عليها الأمويون فأخمدوها بفعلهم المنحرف وجريمتهم النكراء.

لقد سار أبو ذر فى عملية التوعية الإجتماعية فى المجتمع المسلم وتكررت منه صيحة الاستنكار.

فهذا عثمان يطرح فى مجلسه: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال - بيت مال المسلمين - فإذا أيسر قضى؟

فيجيبه كعب الأحبار اليهودى الخبيث: لا بأس بذلك.

ولكن المسلم الغفارى يرى الجور فى الجواب محاباة للحاكم وتزلفاً إليه فصاح أبو ذر فى وجه كعب قائلاً: يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا.

- ومرة أخرى يحضر مجلس عثمان فيطرح عثمان: أرأيتم من زكى ماله هل فيه حق لغيره؟ فقال كعب: لا يا أمير المؤمنين فدفع أبو ذر في صدر كعب وقال له: كذبت يا ابن اليهودى ثم تلا: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

لقد أزعج صوت الثائر العظيم مضجع الخليفة الحاكم على فراش الدولة الإسلامية فأمره أن يغيّب وجهه عنه إلى الشام وكان هذا أول تيسر لهذا المصلح الكبير، إنها وجهه نحو قريب الخليفة فهل يجده أحسن حالاً من الخليفة نفسه وهل يسكت صوت الغفارى الثائر عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقول الحق، هل يخطر فى ذهن أبى ذر أن يكون هذا التهجير عاملاً من عوامل القعود به عن إظهار الحق وفضح الجور والظلم لا، لن يزيده هذا التهجير إلا إصراراً على الحق وعناداً فى المطالبة به، إنه أخذ على نفسه أن يعمل بوصية رسول الله (قل الحق وإن كان مراً) وعاهده على ذلك حتى يلقاه.

لقد ترك الغفارى مدينة الرسول مكرهاً واستقبل بوجهه الشام فرأى ما هاله وزادة

ثورة وإيماناً برأيه، رأى كسرى العرب وطاغية الملوك، رأى الجاهلية بما تحمله من ظلم وجور وطغيان رأى الإنحراف والضلال والابتعاد عن الإسلام.

إن أبا ذر رأى بأم عينيه الظلم الأموى الفاحش فجهر بأعلى صوته وندد بالمنحرفين كما كان فى المدينة الطيبة فأراد معاوية أن يستميله ويلويه عن رأيه فيسكته ببضع مئات من الدنانير ظناً منه أنه يشترى سكوته ويقتل صوت الحرية والحق فيه فبعث له ثلاثمائة دينار.

فقال أبو ذر: إن كانت هذه من عطائى الذى حرمتمونيه عامى هذا قبلتها وإن كانت صلة فلا حاجة لى فيها وردها عليه، إنه صوت الأحرار لا تجمده الأعطيات ولا تسكته الأمنيات وأخذ الثائر ينتقد معاوية فيوجه عليه الأضواء التى تفضحه ويعلو صوته أمام الجماهير الساكنة ليقول لمعاوية وقد بنى القبة الخضراء: يا معاوية إن كانت هذه من مال الله فهى الخيانة وإن كانت من مالك فهو الإسراف، ومعاوية يسمع صوت الثائر فتذوب نفسه ويفتضح سحره ويحاول البطش به، إنه يلعن الساعة التى أرسله إليه عثمان فيها، إن أبا ذر بصوته يحرك النيام من أهل الشام إنه بكلماته يحرك الضمير الإسلامى لدى الجماهير فيهتز معاوية خوفاً وفرقاً ولكن دون التخلص منه عقبات وعقوبات ولكن الصوت الشريف يقى برتفع ويرتفع بقى يهتف فى الجماهير يوعيها ويعطيها الأضواء الخضراء لكسر الطوق الذى كبلها به معاوية طيلة فترة ظلمه وجوره، فكان الصوت المنقذ يحرك الضمير المسلم عندما يقول لهم:

والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله ماهى فى كتاب الله ولا سنة نبيه والله إنى لأرى حقاً يُطفأ وباطلاً يحيا وصادقاً مكذباً وأثرة بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه.

إن هذه الكلمات كانت أشد من وقع الصواعق على معاوية، بها سيتحقق الإنفجار الجماهيرى الذى يطيح بملك الأمويين وطاغيتهم معاوية، يجب على معاوية أن يتخلص من الغفارى يجب أن يفكر فى الطريق الذى يحفظ على أهل الشام ركودهم وسكونهم فلذا قرر أن يكتب إلى الخليفة: أن أبا ذر تجتمع إليه الجموع ولا آمن أن يفسدهم عليك فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله إليك، فرد الخليفة أحمل جندباً (اسم أبى ذر) إلىّ على أغلظ مركب وأوعره فوجه به مع خمسة من الصقالبة يطيرون به الليل والنهار حتى أتوا به المدينة قد تسلخت بواطن أفخاذه وكاد أن يتلف فلما قدم على عثمان ودخل عليه قال له: لا أنعم الله بك عيناً يا جُنيدب.

فقال أبو ذر: أنا جُنيدب وسمانى رسول الله (ﷺ) عبد الله فاخترت اسم رسول الله الذى سمانى به على اسمى.

فقال عثمان: أنت الذى تزعم أنّا نقول أن يد الله مغلولة، وأن الله فقير ونحن أغنياء.

فقال أبو ذر: لو كنتم لا تزعمون[1] لأنفقتم مال الله على عباده ولكنى أشهد لسمعت رسول الله (ﷺ) يقول: إذا بلغ بنو أبى العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دُولاً وعباد الله خولاً ودين الله دخلاً، ثم أخذ عثمان يقول لأبى ذر أنت الذى فعلت وفعلت!

فقال أبو ذر: نصحتك فاستغششتنى ونصحت صحابك فاستغشنى.

فقال عثمان: كذبت ولكنك تريد الفتنة وتحبها قد انغلت الشام علينا.

فقال له أبو ذر: اتبع سنة صاحبيك لا يكن لأحد عليك كلام.

فقال عثمان: ما لك وذلك لا أم لك.

قال أبو ذر: والله ما وجدت لى عذراً إلا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ثم إن عثمان حظر على الناس أن يقاعدوا أبا ذر ويكلموه فمكث كذلك أياماً ثم أمر أن يؤتى به فأتى به فلما وقف بين يديه قال: ويحك يا عثمان، أما رأيت رسول الله (ﷺ) ورأيت أبا بكر وعمر؟ هل رأيت هذا هديهم؟ إنك لتبطش بى بطش الجبار.

إن أبا ذر من طليعة المسلمين الذين عاشوا تحت قيادة النبى وأبصروا كيف كانت رحمة النبوة وعطفها كيف كان حنانها وعطاؤها، إن أبا ذر من الرعيل الذى قام الإسلام على عاتقهم وأنه ينظر إلى سائر الصحابة إنهم أخوة وأنهم ممن تربوا على يد النبى ليكونوا رسله إلى الناس وترجمان تعاليمه إلى سائر البشر كيف يستسيغ عثمان الخليفة هذا التصرف وكيف يواجه أخاه الغفارى بمثل هذه الإجراءات الصارمة.

إنها إجراءات قاسية، و قاسية جداً أن يُمنع الناس من مجالسة الغفارى أو يكلموه، ومن يكون عثمان وما قيمة أوامره إذا خالفت الحق وانحرفت عن الصواب.

إذا كان عثمان جائرا فى تصرفه مع صاحب رسول الله فما على الغفارى إلا أن يطلقها إشارة منبهة لعلّ الخليفة يعود إلى الصواب ويرجع نحو الحق لعل ضميره يهزه فيعود عن قساوته فلذا يقول الغفارى:

«إنك لتبطش بى بطش الجبار» الجبار الذى لا يخاف يوم الوعيد..

(١) ابن أبى الحديد ج٣ ص٥٦.

بحكم الخليفة الخاطىء تقرر النفى للرجل الثائر، إنها خطة يتبعها كل نظام جائر مع كل حر أبى يرفض المساومة على مبادئه أو التنازل عنها، إنها التصفية الجسدية إن أمكن وإن خاف على سلطانه وملكه فليكن إخماد الصوت بالسجن أو النفى وكذلك تكون نتيجة الأحرار فى عالمنا المعاصر بل القديم.

النفى عن دار الهجرة، إنه النفى عن حرم رسول الله (ﷺ).

وتعجب الغفارى من ذلك! أو يكون ذلك؟! أيفعلها الأموى، فلذا كرر الاستفهام.

أتخرجنى من حرم رسول الله (ﷺ)؟!

وأجاب الخليفة الخاطىء.

نعم وانفك راغم.. وتوقع الثائر أن يكون نصيبه إحدى المدن الإسلامية أو إحدى المجتمعات التى بها يستطيع أن يكمل شوطه الرسالى فى الحياة. توقع أن تكون مكة أو البصرة أو الكوفة مسرحاً لعمله المقبل ولكن الخليفة رفض، رفض كل ذلك، إن هذه المدن إسلامية كبرى قد يثيرها الغفارى ويحرك الرمال الساكنة ظاهراً تحت كرسى الخلافة المتزلزلة واقعاً، إنه النفى إلى بلاد قفر وغربة إلى بلاد ليس بها كلاء ولا ماء لا أنيس ولا حسيس إنه النفى إلى الزبدة...

إنه النفى... فما أحسنه إذا كان فى سبيل الله.

وأراد الثائر الخروج وهنا أصدر الخليفة الخاطىء أمراً أن لا يودعه أحد، إنه الجور قد ضرب سرادقة واستحكمت حلقاته فى بنى أمية الذين يمثلهم الخليفة بنزعته اللا إسلامية ولمتثل الرعاع خوف السوط وغضب السلطان ولكن هناك من المؤمنين من آثروا الحق وأعلنوا العصيان فلم يطيعوا أمر الخليفة المنحرف فلذا خرجوا لوداع الغفارى إنهم أهل البيت وقطب رحى الحق. خرج الإمام على وابناه الحسن والحسين وعمار بن ياسر وعقيل بن أبى طالب ولكن السلطة الجائرة راقبت انطلاقة البطل ورأت بأم عينها من خرج لوداعه فدنا جلاوزتها من المشيعين وعلى رأسهم الوزغ بن الوزغ مروان بن الحكم قائلاً للسبط المجتبى - أيها.. يا حسن!.. ألا تعلم أن عثمان قد نهى عن كلام هذا الرجل فإن كنت لا تعلم فاعلم ذلك وعندما سمع الإمام على ذلك نهره وحمل على راحلته قائلا له تنحّ نحاك الله إلى النار ثم كان مشهد الأحبة الأخير، بما يحمل من كلمات العزاء والتجمل، إنه مشهد

يذيب القساة الجفاة كانت كلمات المودعين مؤثرة ذات إيقاع على وتر واحد من الحب والعطف والحنان...

ودعه الإمام بقوله: يا أبا ذر[1] إنك غضبت لله فارجُ من غضبت له. إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فاترك فى ايديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه فما أحوجهم إلى ما منعتهم وما أغناك عما منعوك.

وستعلم من الرابح غداً والأكثر حسداً ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً.

لا يؤنسنك إلا الحق، ولا يوحشنك إلا الباطل فلو قبلت دنياهم لأحبوك ولو قرضت منها لأمنوك.

ثم تكلم من بقى من المشيعين وهم قلة قليلة فأجادوا وما أن انتهوا حتى ذرف الشيخ دموعه وقال:

رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة.. إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله ما لى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم إنى ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين: البصرة ومصر... فأفسد الناس عليهما فسيرنى إلى بلد ليس به ناصر ولا دافع إلا الله والله ما أريد إلا الله صاحباً وما أخشى مع الله وحشة.

ثم افترق الثائر إلى حيث استقر به المنفى فى الزبدة وكابد فى تلك البلاد أقسى الظروف وأشقها حتى مات وحيداً لم يكن عنده إلا ابنته التى احتارت فى تجهيزه فهيأ الله لها من المؤمنين جماعة أعانوها على دفنه. فرحم الله أبا ذر عاش مجاهداً ومات شهيداً دون أن يتنازل عن ذرة واحدة من إيمانه ومبادئه التى آمن بها وسعى فى سبيلها.

هذا هو الصحابى الذى يتبناه الإسلام ويدفع الناس إلى الاقتداء به هذا هو النموذج الرائع الذى يقدمه الإسلام لكل الأجيال البشرية الثائرة على الظلم والجور والطغيان، إنه من خُلص أصحاب النبى وأعوانه الذين ثبتوا على الإيمان وساروا على هدى النبى وآله الكرام...

(١) نهج البلاغة شرح صبحى الصالح خطبة ١٣٠ وتجد تفصيل ذلك وكل ما ذكرناه فى تاريخ اليعقوبى ج٢ ص١٧٢، وفى تاريخ ابن الأثير تشويه للحادثة واعتذار عن الخليفة سخيف. وتجد فى تاريخ الطبرى الحادثة مفصلة أيضا ج٣ حوادث سنة ٣٠ ص٣٣٥.

الشيعة تتبع أئمتها

إن الشيعة تستقى أحكام الإسلام عن طريق أهل بيت النبى إذ هم ودائع العلم وورثته وينابيع الحكمة ومصدر الفضائل وكان تلميذ النبوة العظيم الإمام على هو أول تلك السلسلة المباركة ومبدأ اشتقاقها وهذا الإنسان الكبير قد تخرج على أيدى الرسول العظيم أمين الوحى والتنزيل فعلمه النبى كل ما تعلمه من ربه ووقف علىّ على جميع علوم النبى وقد اعترف له جميع الصحابة بذلك بدون استثناء وكيف ينكر ذلك من قرعت أسماعهم لكلمات النبى وأحاديثه التى ملأت الخافقين وأذعن لها وحدّث بها حتى أعداء الإمام وأخصامه والإمام علىّ بدوره قام بصبها فى قلوب أبنائه فقد لقنهم كل ما أخذه من النبى وتفهمه منه، فالشيعة تأخذ عن الأئمة إسلامهم وعن الصحابة المخلصين الصادقين ما نقوله إليهم من أقوال النبى وأفعاله، وليس من ديدن الشيعة ولا دأبهم أن يأخذوا أحكامهم من غير مصدرها وهو النبى وآله وصحابته الذين ثبّتوا على الإيمان والإسلام، ونحن لو نظرنا إلى ما ورد عن الأئمة من ثناء الصحابة ومدح لهم ودعاء لكان فى ذلك رداً مفحماً على مَنْ اتهم الشيعة ونبذهم بما هم براء منه من دعوى (أنهم يكرهون الصحابة ويسبونهم) إن هذه الإتهامات لم يقصد بها إلا تضليل الناس وتشويه سمعة الشيعة الذين سمعوا قول الله ورسوله.

إن الشيعة تقتفى آثار أهل البيت - وأهل البيت أدرى بالذى فيه - تقتفى أثارهم بكل ما يقولون وما يفعلون ولم يشذوا فى حكم من أحكامهم عن ذلك، أنهم يأخذون عقائدهم وأحكامهم وأعمالهم بكل ما صدر عن آل الرسول، لم يستثنوا حكماً ولم يخرجوا عن هذه القاعدة، إنها قاعدة كلية أخذت بأعناق الشيعة ويجب أن تأخذ بأعناق جميع الناس لو أنصفوا أنفسهم وأنصفوا الإسلام، لأن أهل البيت هم ثقل الرسول وعدل القرآن والمفسرون لمضمونه وقد ثبتت حجية أقوالهم بما هو مذكور فى محله وهذا هو الإمام زين العابدين رابع أئمة أهل البيت الذى اتخذ الدعاء وسيلة له فى تبليغ ما يريد اسمعه فى صحيفته السجادية الكريمة كيف أبى على صحابة الرسل عامة وعلى صحابة جده خاصة اسمعه واحكم فإن الشيعة تقتفى آثار هذا الإمام العظيم اسمعه واحكم أنت ولا تنتظر قول مشايخ السوء وتضليلهم ولا تسمع لهرائهم وعدائهم يقول (ع):

اللهم وأتباع الرسل ومصدقوهم - من أهل الأرض - بالغيب عند معارضة المعاندين

لهم بالتكذيب... والاشتياق إلى المرسلين بحقائق الإيمان في كل دهر وزمان أرسلت فيه رسولاً وأقمت لأهله دليلاً من لدن آدم إلى محمد (ﷺ) من أئمة الهدى وقادة أهل التقى على جميعهم السلام فاذكرهم منك بمغفرة ورضوان.

هذا دعاؤه (ع) لأتباع الرسل جميعاً:

واستمع لما خص به أصحاب جده كيف أن كل عبارة تكشف عن جليل المعاني وعميق الدلالة إنه وصفهم بما لا يصفهم به غيره، إنهم هم المخلصون الذين فارقوا الأزواج والأولاد بل قاتلوهم من أجل نبوة رسول الله ومحبته فانتصروا للإسلام يرجون تجارة لن تبور إنهم هجروا عشائرهم وتركوا قراباتهم حباً بقرب رسول الله إن زين العابدين وهو يعلم أصحاب جده ويعلم جهادهم فلا يمكن أن يبخل عليهم بالدعاء وطلب المغفرة والرضوان يقول (ع): اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحابة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته وسابقوا إلى دعوته واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته وانتصروا به ومن كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن تبور في مودته والذين هجرتهم العشائر إذا تعلقوا بعروته وانتفت منهم القرابات إذ سكنوا في ظل قرابته فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك وارضهم من رضوانك وبما حاشوا الخلق عليك وكانوا مع رسولك دعاة لك إليك واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه ومن كثّرت في إعزاز دينك من مظلومهم.

فهذا الدعاء بهذه الكلمات المباركات التي خرجت من القادة العظام أئمة أهل البيت به وحده تستطيع أن تكشف للناس أن الشيعة تتوالى صحابة النبي المخلصين وتظهر ولاءها لهم وتعتقد إنهم هم الذين حفظوا حقوق رسول الله ومشوا في ركابه وأطاعوا أمره، إن صحابة النبي المخلصين هؤلاء هم فقط الذين دعا لهم الإمام زين العابدين وهم الذين ثبتوا على الإيمان واتبعوا سنة رسول الله وهديه فأتاهم الله خير الدنيا وحسن ثواب الأخرة وهؤلاء هم الذين وصفهم الإمام في نهج بلاغته لأصحابه مقارناً بينهم وبين أصحابه يقول (ع):

لقد رأيت أصحاب محمد (ﷺ) فما رأى أحداً يشبههم منكم، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً وقد باتوا سجداً وقياماً يراوحون بين جباههم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم كأن بين أعينهم رُكَبَ المعزى من ذول سجودهم إذا ذُكر الله هملت أعينهم حتى تبلّ جيوبهم ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف خوفاً من العقاب ورجاء للثواب.

إن هؤلاء الأصحاب هم الذين تتولاهم الشيعة تبعاً لأئمتهم وسيراً وراء أقوالهم التى هى الميزان الذى لا يجور، هؤلاء الأصحاب الذين ذكرهم على فى هذه الكلمات هم وحدهم الذين لم يبدلوا ولم يغيروا، هؤلاء فقط هم الذين يستحقون أن نقدمهم كطليعة فذة ونشمخ بهم ونفاخر الأمم بمحاسنهم، وليس أولئك الذين ارتدوا أو نافقوا أو انحرفوا أو غرتهم الدنيا فباعوا الآخرة بشىء زهيد من حطامها، إن الشيعة تحارب من حارب علياً وتبغض من لم يناصره فى مواقفه كلها لأنه على الحق ومن وقف عن نصرة الحق فهو جائر منحرف فكيف بمن حاربه وقاتله كمعاوية وعمرو بن العاص ومروان وغيرهم.

إن الإمام أعرف الناس بأصحاب النبى وتقييمه لأحدهم تقييم عن حس وخبرة فقد عاش معهم وخبرهم ودرس أحوالهم عن قرب دراسة واعية عميقة عرف بها المخلص منهم من المنافق والمؤمن من الكافر والطاهر من العاهر والمحق من المبطل. إن علياً الذى وصف أصحاب رسول الله بذلك الوصف الرائع الجميل إنما وصف أولئك الذين مثّلوا جذوة الإسلام وروحه المتحركة وصف أولئك الذين أحبوا الإسلام على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وما تحت أيديهم لأن هذا الإسلام قد ملك عليهم كل شىء وغدا بالنسبة لهم كل شىء فآثروه وقدموه وكانوا كما وصفهم الإمام. وليس هؤلاء كل أصحاب محمد فإن من أصحابه صلوات الله عليه من لا يستحق اسم الصحبة ولا يستحق أن يتشرف برؤية النبى، إن منهم من لم يكن له دين ولا إيمان كمعاوية وعمرو بن العاص وبسر بن أرطأة وغيرهم فهذا هو على يخاطب أصحابه عندما رفعت المصاحف بصفين قائلاً لهم:

عباد الله إنى أحق من أجاب إلى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبى مغيط وحبيب بن مسلمة وابن أبى سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إنى أعرف بهم منكم.

إن هذا الكلام من الإمام يكشف بوضوح أن من بين الصحابة من كان صفر اليدين من الإيمان وإنما كان يحمل الإسلام أسماً فيقاتل من أجل مغانمه الشخصية وإلا فلا يهمه الإسلام من قريب أو بعيد وهذا ما كشفته الأيام التى عاشها معاوية وأتباعه بعد أن خلا لهم الجو وتربع الطاغوت على كرسى الخلافة الإسلامية، وأن الشيعة تقتدى بعلىّ فى تفضيلها بين الصحابة فتحفظ للمؤمن المخلص الثابت على الإيمان والإسلام أعماله فتقدره وتدعو له كما دعا له زين العابدين وتقول بما قاله الله وعلمه لعباده ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ وأما من انحرف فالله حسيبه لعدم وفائه بحق الصحبة ولما شوهه من سمعة أصحاب النبى.

الباعث الصوري للقول بعدالة جميع الصحابة

اتضح بما تقدم أن من الصحابة من لا يستحق هذا الشرف العظيم والإنتساب الكريم إذ أنه أطاع هواه وعصى مولاه وخالف سنة رسول الله (ﷺ) وهناك منهم من ارتقى في الكمال إلى أوجه والشرف منتهاه والعظمة سموها فحق له التقدير والتعظيم واستحق الفضل والتبجيل، وهنا نريد أن نتلمس الأسباب الداعية للقول بعدالة جميع الصحابة بعد أن عجزنا عن إثباتها للجميع من الكتاب والسنة والاعتبار.

وإذا تفحصنا بعض الكتب كالإصابة لابن حجر فإنه يطالعنا في هذا المقام بما نقله عن أبي زرعة الرازي بقوله: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله (ﷺ) فأعلم أنه زنديق وذلك أن[1] الرسول وحق القرآن حق وما جاء به حق وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة.

بدعوى المحافظة على الكتاب والسنة وخوفاً من إسقاطهما فلنحافظ على الصحابة ونقول بعدالتهم جميعاً ونطوي البحث عن أحوالهم جرحاً وتعديلاً فإنهم فوق ذلك وأرفع.

ونقول: إن الكتاب والسنة هما الأساس لكل تشريع إسلامي وهما بمثابة العمود الفقري له فإذا سقط أحدهما انها أهم ما لدينا من أسس وتداعى ما بقي عندنا من بنيان تشريعي ولا أظن أن مسلماً يقوده اجتهاده إلى تعطيل كتاب الله أو إلغاء سنة رسول الله (ﷺ) ويبقى على إسلامه لأن العمل بهذين الركنين من ضروريات الدين وبديهياته وإنكارهما أو تعطيلهما كفر وإلحاد وخروج عن الإسلام وأن جميع الفرق الإسلامية توجب العمل بهما والانصياع لأوامرهما كل حسب ما توصل إليه فهمه أو صح سند الرواية ومتنها عنده، وهذا القدر متسالم عليه بين جميع المسلمين لم يشذ منهم أحد.

وهنا نريد أن نقف على الحقيقة ونصل إلى نقطة الفصل والصواب فنضع النقاط على الحروف في هذه الدعوى لأنهما دعوى خطيرة تُخرج أناساً كثيرين عن دائرة الإسلام من

(١) الإصابة في معرفة الصحابة ج١ ص١٠.

جهة وتحمل صراحة إبطال الكتاب والسنة إذا جُرح بعض الصحابة لأنهم هم نقلتهما وعلى أيديهم تم ثبوتهما ووصولهما إلى الأجيال المسلمة.

ونقول:

أولاً: إن جرح بعض الصحابة لا يؤدى إلى ما توصل إليه أبو زرعة الرازى من إبطال الكتاب والسنة فإنهما يحفظان عند الصحابة العدول الثقاة ونتلقى آيات الله وسنة رسوله ممن ثبتت وثاقتهم ورسخت عدالتهم وبهم الكفاية لإثبات ذلك وهؤلاء يمثلون الصفوة الطاهرة والحواريين الصادقين لرسول الله وهم قد حرصوا كل الحرص على تلقى أحكام الإسلام من النبى فكانوا لا يفارقونه فى حله وترحاله فى حضره وسفره فى مقامه وقيامه هؤلاء الجماعة الصادقة الطاهرة هم الذين يثق الإنسان بنقلهم ويطمئن إلى قولهم ويأخذ أقوال رسول الله الصادقة منهم، هؤلاء فقط دون أولئك الرعاع أو الكذبة والمنحرفين أو الفسقة والمرتدين وإنّا نكتفى بالأخذ بما نقله الثقاة من الصحابة دون المنحرفين منهم فإن المذهب التى اعتمدت على الثقاة لم ينقصها حكماً إسلامياً لم تهتد إليه بل وصلت كل الأحكام الإسلامية بطريقهم واطمأن الآخذ بنقلهم إلى أنه قول رسول الله وسنته الكريمة.

وثانياً: إن العامل بقول كل صحابى ليس له حجة شرعية مقبولة لأن المسلم يجب أن يعمل بقول رسول الله وقول الرسول لا يثبت إلا عن طريق الثقة فإن خبر الفاسق لا يجوز التعويل عليه والاعتماد على مضمونه بنص الكتاب والسنة وعمل العقلاء.

مضافا إلى أن نسبة أمر من الأمور لشخص من الأشخاص لا تجوز إلا بعد أن تثبت إلى رسول الله (ﷺ) ما لم يثبت أنه قوله أو عمله، وطريق الإثبات إنما يكون بنقل الثقة الذى هو حجة شرعية عقلائية دون الفاسق الذى لا يعتمد عليه العقلاء حتى فى الأمور البسيطة غير ذات الشأن فكيف يُعتمد عليه فيما ينقل عن رسول الله من الأحكام التى هى فى الأهمية بمنزلة عالية لا يضارعها أى حكم آخر.. وعليه نقول: إن إثبات قول النبى والوصول إليه هو الغاية وإليه المنتهى فلو أدى ذلك إلى جرح بعض الأشخاص بحسب موازين الجرح والتعديل فهذا يكون من أعظم الدفاع عن قول رسول الله ومن أعظم الطرق التى تحفظ سنته الصحيحة فإن جرح ألف فاسق ورد قوله أيسر بكثير من التعبد بما نسبه إلى الرسول والرسول منه برىء، بل إن إبطال السنة إنما يكون بقبول خبر غير الثقة لأنه خبر لم يأذن به الله ومضمونه قد يكون فاسداً لا ترضاه العقول ويخالف المنقول فيسرى التشكيك فيه إلى سائر أخبار النبى وعندها تكون المشكلة عويصة وخطيرة، وما نسمعه

من التشكيك فى السنة بين الآونة والأخرى يرجع سره كله إلى مثل هذه الأخبار التى لم تثبت صحتها ووثاقة ناقليها. ويكفى هذا للحط من منزلة السنة، وما قيمة أعرابى لم يفقه من دينه إلا رؤية النبى أو كاذب اتخذ الصحبة درعاً يتقى بها الطعن فيه أو فاسق سمع حديثاً، ما قيمة ذلك كله كله مقابل كلام رسول الله (ﷺ) وسنته والحفاظ على قدسيتها ونقاوتها، فإن جرح ألف بدوى لا يعادل سنة صحيحة تثبت بطريق الثقاة العدول من الصحابة الكرام ومن هنا نعرف أن من يجرح بعض الصحابة بالموازين الصحيحة إنما يقصد بذلك وجه الله والمحافظة على نقاء السنة وطهرها فمن أجل السنة جرح ومن أجلها عدّل ووجه الله طلب لا يبغى من وراء ذلك هدمها بل العكس أراد ومن كان همه إثبات السنة والمحافظة على نقاوتها تكون له اليد البيضاء والفضل الكبير ويكون جزاؤه على الله وأجره عليه.

الباعث الحقيقى للقول بعدالة جميع الصحابة

الحقيقة التى لا مرية فيها أن الباعث للقول بتعديل الصحابة جميعاً ليس الغيرة على سنة رسول الله وكتابه.

فإن الكتاب العزيز قد تكفل بحفظه خالق السماوات والأرضين ولا يمكن أن يطرأ عليه زيادة أو يعرض له نقصان لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] وعداً قطعه الله على نفسه والله لا يخلف الميعاد.

وأما السنة فقد وصلت إلينا عن طريق الصحابة العدول الثقاة الذين أدوها إلينا خير أداء وبلّغوها إلى من بعدهم خير بلاغ فأدوا الأمانة واجتنبوا الخيانة وكان لهم أجر المحسنين وفازوا بشرف الصحبة المحمدية، فلا خوف على السنة ولا خطر فى وضع كل صحابى موضعه الذى اختاره هو لنفسه، فإن كان ثقة عدلاً رعى الصحبة وحفظ حقوقها فهو من رفقاء محمد (ﷺ) يشمله كل ما ورد من ثناء ومدح عن صاحب الرسالة وإن كان غير ذلك فنحن لسنا أكرم من الله الذى أنزله منزلة الذى اختاره هو بنفسه حيث هوى فى الضلال ولم يرع للصحبة حقوقها ولم يحافظ على ناموسها فكان من الأخسرين أعمالاً الذين لم تنفعهم صحبة ساعة ولا رؤية وجه النبى الكريم لحظة أو سماع كلمة منه صلوات الله عليه.

وإذا كان لا ضير على الكتاب والسنة من تجريح بعض الصحابة وتبين لنا عدم الصواب فيما ذهب إليه أبو زرعة الرازى سابقاً فهنا يجب أن نعرف أن وراء القول بتعديل الصحابة أهدافاً معينة وأموراً مهمة رامى القوم من أجلها تعديلهم جميعاً - غير مرمى المحافظة على الكتاب والسنة - فيجب أن نبحث عن بعض تلك الدواعى الحقيقية التى دفعت القوم إلى تعديل الجميع.

ونحن لم نقف على تلك الدوافع البعيدة على وجه اليقين إذا لم يجرأ أربابها على ذكرها والبوح بها وإنما ندّت منهم فى بعض الأحيان إشارات تدل على ذلك وأن الإنسان عندما يقف أمام فشل كل المبررات التى اختلقوها وذكروها لتعديل جميع الصحابة

(١) الحجر/ ٩.

يستشف بعض الأسباب الخفية التى كانت وراء القول بتعديلهم وأهم أمر دفعهم لذلك هو: أن القول بعدالة جميع الصحابة يستر كثيراً من الإنحرافات والشذوذ التى صدرت من بعضهم، فالعدالة تغطى كل تلك الإنحرافات ولايجوز معها أن يُنتقد أحد الصحابة أو توضع عليه علامة استفهام بل يجب أن تحمل كل تصرفاتهم على مقتضى الشرع والدين واستمع لما ذكره أبو زهرة فى كتابه فلسفة العقوبة قال:

والسبب فى تساهل أبى حنيفة فى موضوع بعض المسكرات هو أنه ثبت بالرواية عنده أن بعض الصحابة تناول بعض هذه الأشربة فامتنع عن تحريمها حتى لا يتهم الصحابة بالمعصية وقال فى ذلك: لو غرقونى فى الفرات لأقول إنها حرام ما فعلت حتى لا أفسق بعض الصحابة ولو غرقونى فى الفرات على أن أتناول قطرة منها ما فعلت فالأمر بالنسبة لأبى حنيفة احتياط لكرامة الصحابة واحتياط لدينه. انتهى...

ما هذا الاحتياط الذى خلقه أبو زهرة؟ من أين جاء به؟ والحرام حرام على جميع المسلمين صحابة كانوا أم تابعين أم غيرهم من عامة المسلمين إن شرب الصحابى للمسكر إما أن يكون معصية فيجب أن يجهر بأن بعض الصحابة عصاة ويُبين حكم الله فى المسألة وإن أدى ذلك إلى الطعن فى بعض الصحابة فإن بيان حكم الله والحفاظ عليه أحق بالمراعاة من صحابى جمع به هواه فخالف من أجل ذلك مولاه..

وأما إنه حلال فيجب القول بحليته على جميع المسلمين إما بالإلتزام بإنه لا يشرب منه قطرة واحدة - لأنه يعتقد حرمته لوجود الدليل قطعاً - ومع ذلك لا يفتى بالحرمة حفظاً لكرامة صحابى قد شربه فهذا شيء غريب مستهجن لا يصدر من عوام الناس فضلاً عن فضلائهم فكيف يصدر عن فقهاء فى مرتبة أبى حنيفة الذى يعد من أئمة أهل السنة وفقهائهم الأجلاء.

انظر كيف أراد أن يصحّح خطأ بعض الصحابة بهذا الأسلوب الشاذ إنه لا يستطيع أن يصحّ فعل هذا الصحابى إلا بأن يمتنع عن إبداء الحكم الصريح وأضحى الصحابى عنده أعظم قيمة من أحكام الله وأرفع شأناً وهذا أمر يرفضه الإسلام ويأباه فإنه جاء ليسير الناس وفقاً لأحكامه وتشريعاته لا أن يسير الناس وراء الصحابى الذى مهما ارتكب وفعل وجب تصحيح أعماله وأقواله وإن خالف السماء وعصى الإله.

إن تصحيح أفعال بعض الصحابة الشاذة كانت إحدى الركائز التى دفعت بالقوم إلى القول بعدالة الجميع بل لعلها أهم الأسس التى انطلقت من أجلها فكرة القول بعدالتهم،

فإنهم اصطدموا بأمور تتنافى والدين قد ارتكبها بعض الصحابة وكبُر عليهم أن يضعوا النقاط على الحروف لأنها تؤدى إلى سقوط عدد من الصحابة فصوناً لهم عن ذلك اختلقوا لهم العدالة تارة والاجتهاد أخرى ولكن بان الصبح لذى عينين وفضحت طلعته فحمة الدجى واتضح الحق وحصحص بنوره وتفتحت العقول وانشرحت الصدور وبات الاحتجاج بـ(قال شيخى كذا وحكم شيخى بكذا... لم يعد له وزن أو قيمة إلا إذا وافق الحق والصواب).

والمصنف لا يحتج بهفوات العلماء وسقطاتهم إذا علم أنهم أخطأوا فى حكم أو لم يحالفهم الصواب فى مورد اجتهدوا فيه فلعل لهم عذراً فى ذلك يرضاه الله ولكن ما عذر من تأخر عنهم إن بان لهم خطأهم.

إن منطق الإنصاف يقتضى منا أن نعترف أن بعض الصحابة قد وقع فى المعصية والإنحراف صوناً لأحكام الله التى خاف أبو حنيفة من إبدائها - صوناً لكرامة صحابى قد شرب المسكر وبذلك نحقق إرادة الله ونضع الأمور فى نصابها...

إن فكرة القول بعدالة الجميع تصحح كل أفعال عثمان المخالفة للإسلام وتصحّح أفعال كل الصحابة الذين وقفوا فى وجهه وناهضوه بل قتلوه. إنهم كلهم رضى الله عنهم ورضوا عنه. القاتل والمقتول فى الجنة، على ومعاوية، عمار وعمرو، أبو ذر وعثمان، الظالم والمظلوم. كلهم عدول ثقاة أعجب وتعجب وأضحك من عقول قد تعطلت عن التفكير ووصل بها الإسفاف والعقم إلى هذا المستوى.

إن فكرة القول بعدالة جميع الصحابة هى التى يتماسك بها أهم صروح المذهب السنى فحق لأربابها أن يشدوا عليها بالنواجذ وإن أدى ذلك إلى تعطل الفكر وشله فإنهم بعد أن زحزحوا عن رواسيها وأزالوها عن أربابها ولم يتمسكوا بعترة النبى وآله الذين عصمهم الله من الزلل وأمنهم من الفتن بعد أن كان ذلك الإنحراف وجدوا الاختلاف والخلاف بين الصحابة وكان ذلك يخرج الكثير منهم عن جادة الهدى ولا يبقى لهم من ينقل إليهم أحكام الإسلام وتشريعاته عمدوا إلى القول بتعديل الجميع وقبول كل ما يرويه الصحابى وإن كان الطاغية معاوية والماكر عمرو بن العاص والمجرم بسر بن أرطأة وأضرابهم.

الآثار السيئة للقول بعدالة جميع الصحابة

إن القول بعدالة جميع الصحابة قد ترك آثاراً سيئة ومداليل لا يمكن رفعها فقد فتحت على الدين أبواباً أساءت من خلالها لنبى الإسلام وللإسلام وللصحابة وقد تكثّرت الحملات وتكشفت ممن فى قلوبهم مرض للنيل من هذا الدين ويمكن أن أذكر بعض تلك الخلفيات السيئة التى تركها القول بعدالة جميع الصحابة.

١- باعتبار أن السنة هى المصدر الثانى الذى يرجع إليه المسلم عندما يريد أن يعرف حكماً شرعياً على حقيقته ولايجوز أن ينفرد باستنتاج الحكم من الكتاب فحسب إذ لعل بيان الرسول كان مقيداً لما فى الكتاب أو مخصصاً أو ناسخاً أو غير ذلك وهذه السنة قد نقلها إلى الأجيال المسلمة أصحاب النبى الذين تشرفوا بخدمته وسعدوا بلقائه وباعتبار أنهم ليسوا كلهم عدولاً ثقاة بل فيهم كما عرفنا من لا يزن إيمانه جناح بعوضة فأخذ فى اختلاق الأحاديث عن رسول الله كما حدث ذلك لأبى هريرة حيث واتته الفرصة وانفتحت الدنيا أمام عينيه بعد أفول واتسعت رقعتها بعد أن ضاقت عليه من الجوع فعندما جاء القوم فعدلوا جميع الصحابة كان لابد من الأخذ بجميع مروياتهم وقد قلنا أن فيها ما هبّ ودبّ فيها الصادر عن النبى (ﷺ) الذى نقله الصحابى الثقة العدل وهو صحيح سليم مكانه القبول لأنه ضمن العقول، ومن جهة أخرى فيها الدخيل الذى اختلقه من لا دين له ولا ضمير فعندما عدلنا الجميع وقفنا على أحاديث تخالف العلم الصحيح والعقل السليم فرمانا الناس بالرجعية ولديننا بالخرافة وكانت نتائج القول بالتعديل جريمة فى حق الإسلام أساءت لرسول الله وسنته وما قيمة صحابى جلف بوال على عقبيه أمام كرامة رسول الله وأى كرامة لأحد إذا أهدرت كرامة رسول الله وقال عنه بعض الناس ما لا يليق بمقام النبوة وسمو منزلتها، فلنقف على الحقيقة فنعدل من الصحابة الثقة الورع ونفسق ونطعن من خان ومان وحاد عن طريق العدل والإيمان كى نحفظ بذلك كرامة نبينا وجدة إسلامنا وصحة ديننا.

ففى هذا التعديل:

أ- جناية على رسول الله وخير خلقه بنسبة ما لا يليق به إليه وهو برىء منه من الأحاديث المزيفة الباطلة.

ب- جناية على الصحابة جميعاً حيث سرى الشك من الطالح إلى الصالح وأخذ الناس

يتهمون سائر الصحابة بنقلهم عن نبيهم خلاف ما قاله.

ج- إتهام الدين بأنه دين الخرافات يؤمن بما خالف العلم والعقل واذكر شاهداً على ذلك ما نقله البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة أن النبى قال: إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه كله فإن فى أحد جناحيه داء والآخر شفاء.

أنظر بنفسك إلى مدى السخافة والسقوط الذى وصل إليه الراوى واحكم هل يوافق العلم على هذا؟

وهل تُقبل النفس على طعام سقط فيه جناح ذبابة قهراً فكيف إذا غمسها الإنسان بنفسه كلها، وهل يصدق أن ذلك قد نطق به رسول الله أو تحدث به.. كلا.. ثم كلا...

هل من الخدمة للإسلام أن نسكت عن ذلك ونطعن الإسلام فى الصميم بهذه الروايات الباطلة أم من الأجدر بنا أن نقف فى وجه أبى هريرة ونسقطه عن الاعتبار فنحفظ بذلك طهر الإسلام ونزاهة أحكامه وكرامة الرسول وإجلاله.

رواية الصحابى ومقدار قبولها لدى الشيعة

إن الأدلة على الحكم الشرعى لدى الشيعة أربعة الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

فالكتاب قطعى السند متواتر لفظاً، محفوظ عن الزيادة والنقصان - إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - وما ينسب إلى السنة أو الشيعة من الزيادة أو النقصية فهى أقوال نادرة وآراء شخصية لأصحابها لا يعتمد عليها ولا يعتد بها. وما ورد من الروايات فى ذلك فمؤول وله محامل تذكر فى محلها وأما السنة فهى قول المعصوم وفعله وتقريره وهى حجة على الناس وعدل للقرآن فى إثبات الأحكام الشرعية فالنبى وظيفته أن يشرح مدلول الآيات القرآنية بعد أن يتلقاها من ربه ويشرِّع للناس بأمر الله ما يريده الله تعالى وقد جعل الله لرسوله من الحجة ما جعله لكتابه فقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[1]، وبذلك وجب على جميع الناس أن يتخذوا قول الرسول وفعله وتقريره حجة شرعية تعذيراً وتنجيزاً.

المراد من هذه المصطلحات

قول الرسول: هو الكلام الذى تكلم به النبى من أمر ونهى على نحو الوجوب أو الاستحباب وغيرها كأكثر الأحكام التى وردت عنه صلوات الله عليه فى الطهارات

(١) الحشر /٧.

والصلاة والزكاة والخمس والحج إلى آخر فروض الشريعة القولية مثل أن يقول النبي (ﷺ) كما في المرفوعة (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً) في مقام بيان جواز السجود على الأرض والتيمم بها.

فعل الرسول: وفعل الرسول حجة كما لو رأيناه يصلي بعد صلاة العصر شيئاً من النوافل فإنا نعلم أن هذا شيء راجح بناء على أن الرسول لا يفعل المكروه ولا المباح ويكون فعله حجة بيد من أراد أداء النوافل في ذلك الوقت.

وأما التقرير: كأن يرى النبي بعض الناس على فعل فيتركه دون أن ينهاه عنه مع توجهه إليه وعلمه بفعله وإمكان ردعه لو كان مخطئاً وهذا التقرير منه صلوات الله عليه حجة يدل على جواز فعله.

بأحد هذه الأمور الثلاثة تتحقق سنة المعصوم وقد تكفل الصحابة بنقل هذه السنة إلينا فوتّدوا أركان هذه الشريعة وأمنتْ من الضياع والإندراس ولولاهم لما وصل إلينا من أحكام الشريعة ما يفي بمتطلبات الحياة ولم يكن لنا هذا الفقه المحيط الذي تعرض له الرسول وبينه بأمر الله وحكمه.

ولكن الصحابة بما أنهم ليس كلهم عدولاً وثقاة بل كما تقدم ومرَّ معنا أن منهم المنافق ومنهم الذي ارتد، منهم الكذاب الفاسق ومنهم الثقة المأمون على الدين والدنيا ومنهم غير ذلك. فإن الشيعة هنا تقف موقف كل العقلاء، موقف الإنسان الواعي المتبصر الذي لا يأخذ معالم دينه من أي إنسان كان. لأن الإنسان لو أخذ بكل خبر ورواية سواء كان راويها ثقة أو غير ثقة ما يؤمنه أن يكون الراوي وضاعاً مختلقاً كما ثبت ذلك في حق أبي هريرة وغيره فيكون المتعبد بهذا الخبر ليس متعبداً بقول رسول الله بل متعبداً بقول هذا الإنسان غير الثقة وهذا لا مبرر له ولم يأذن الله به إذ لم يُجعل قول أحد من الناس حجة على الآخرين إلا قول رسول الله المستمد نفوذه من إذن الله له وجعله حجة. وهذه الطريقة من الأخذ بخبر الثقة فقط، خبر من ثبتت وثاقته هو ما عليه السيرة العقلائية فإنا رأينا العقلاء لا يأخذون بقول كل مخبر ثقة وغير ثقة بل نجدهم يبحثون عن أحوال الإنسان فإن كان ثقة صادقاً أميناً أخذوا بقوله وإلا فإنهم يتثبتون في الأخذ بما أخبر عنه حتى يتضح حاله وعلى هذه الطريقة سار الشيعة في قبولهم ورفضهم لكل ما نقله أصحاب النبي (ﷺ) فإن كان ثقة أميناً أخذوا بقوله حتى لو كان من المخالفين لهم في المذاهب، وأكبر شاهد على ذلك ما عليه عملهم من الأخذ بخبر غير الشيعي إذا كان ثقة.

إن الشيعة تريد أن تتدين بدين الله الذى جاء به محمد بن عبد الله رسول الله وخاتم النبيين لأنه هو الحجة والدين وهذا لا يثبت إلا إذا نقله الرواة الثقاة عنه الذين ثبتت وثاقتهم وعُلمت أمانتهم، ومن هنا يختلف الأمر وتتعدد وجهات النظر ويكون لكل إنسان عذره أمام الله فإن قبول الشيعة لما يرويه فلان فلأنهم يثقون بقوله وهو عندهم ثق ويرفضون قول فلان ولا يقبلونه لأنه غير ثقة أو لأن وثاقته لم تثبت عندهم، وهذا ليس شذوذاً أو إنحرافاً عن الطرق الإنسانية والمسالك العقلانية بل هى من صميم السلوك البشرى المستقيم، ولذا نقول لإخواننا السنة ونطرح عليهم هذا السؤال: ماذا تقولون فى رواية من لم تثبت وثاقته عندكم؟ بل ماذا تقولون فى رواية من ثبت فسقه؟ لا إشكال ولا ريب أن الجواب سيكون أننا لا نعمل بمثل هذا الخبر الذى يرويه الفاسق أو من لم يثبت وثاقته ويكون لهم الحجة فى الرفض وعدم العمل بقوله، وإذا كان ذلك هو جوابهم وعذرهم فيكون نفسه هو جوابنا وعذرنا عندما لم نعمل بأخبار من لم تثبت وثاقتهم عندنا.

والنتيجة المستخلصة من هذا البيان: أن الشيعة تعمل بأخبار الثقاة من الرواة، صحابية كانوا أم تابعين أم غيرهم إذا نقلوا ذلك عن رسول الله وترفض أخبار من علم أنه غير ثقة، وتتثبت فى أخبار من لم يعلم حاله حتى ينجلى أمره وهذا الرأى هو أعدل الآراء وأصوبها وأقربها للحقيقة وأحوطها على الدين، خصوصاً وأن النبى خطب وقال: ستكثر علىّ الكذابة فمن كذب على فليتبوأ مقعده من النار، وبالأخص وقوع أعداد كبيرة بين أيدينا ممن ثبت إنحرافهم وعدم أمانتهم، هذا هو رأى الشيعة، العمل بخبر من تثبت وثاقته عندهم وافقهم على مذهبهم أم خالفهم فإن المناط فى القبول والرفض للرواية هو هذا فحسب. ولو جئنا للمخالفين من أهل العامة - نستنطقهم فى قبول رواية الشيعى لأخذتنا الدهشة عندما يكون التشيع سبباً لرفض الرواية وإن كان الراوى من الثقاة الأجلاء والأعيان الكبار وتلك كتب الجرح والتعديل عندهم قد رفضت قبول الكثير من الروايات وجرحت كثيراً من الرواة لأنهم شيعة أو لأن ناقليها ممن تشيع أو روى فضائل الإمام على وأهل البيت الكرام، إنهم ليس بهم علة إلا تشيعهم فكان التشيع جريمة تُسقط الإنسان عن الاعتبار وإن كان من أوثق الناس وأعدلهم وأحوطهم على الإسلام والدين.

وهذا نموذج ممن جرح لتشيعه فحسب:

١- فهذا ثوير بن أبى فاختة سعيد بن علاقة مولى أم هانى وقيل مولى زوجها جعدة جاء فى تهذيب التهذيب ما حاصله: كذبه قوم وضعفه آخرون ووهنه وتركه غيرهم وقال

يونس عن أبي إسحاق[1] كان رافضاً وقال البزار حدث عنه شعبة وإسرائيل وغيرهما واحتملوا حديثه كان يرمى بالرفض، وقال العجلى هو وأبوه لا بأس بهما وفى موضع آخر: ثوير يكتب حديثه وهو ضعيف، وقال الحاكم فى المستدرك - وهو من السنة - لم ينقم عليه إلا التشيع - فانظر كيف أسقط الرجل عن الاعتبار وأسقطت روايته عن القبول لتشيعه فحسب دون أن يكون به علة أخرى..

٢- الأصبغ بن نباتة كان على شرطة الإمام على قال بن حبان فتن بحب على فأتى بالطامات فاستحق الترك وقال ابن عدي: عامة ما يرويه عن على لا يتابعه أحد عليه وهو بين الضعف وقال ابن سعد: كان شيعياً وكان الضّعف فى روايته.

فانظر إلى هذا العظيم كيف أسقط نقله لأنه من خواص على وناقل فضائله، ما أعظم الجرم وأكبر التهمة إنه أحب علياً، وقدمه على الصحابة، إنها سيئة لا يغفرها النصاب وأعداء على، إن هناك الكثير من الثقاة قد سقطوا عن الاعتبار لأنهم أحبوا علياً أو اتُّهموا بحبهم والتشيع له، وأما من أبغض علياً ونصب له العداوة بل حاربه وقاتله فهو من الثقاة فى نظر القوم المعمول برواياتهم المعتمد عليهم ولو أردنا استيعاب ذلك لضاق المجال.

١- عمر بن سعد بن أبى وقاص قال فى تهذيب التهذيب بعد ذكره له ولروايته ولمن روى عنه ما لفظه: روى عنه الناس وهو تابعى ثقة وهو الذى قتل الحسين.

هكذا تكون الثقاة ومن هؤلاء يؤخذ الدين، قاتل الحسين ابن بنت رسول الله وسبطه يوثقه المنحرف ويعمل بخبره لأنه قتل الحسين وسبى عياله، فهل هناك مصيبة أعظم وخطب أفدح من دين يؤخذ من أمثال عمر بن سعد قاتل الحسين، لهم دينهم ولنا ديننا نحن نأخذ ديننا عن على بن أبى طالب صنو رسول الله وباب مدينة علمه وهم يأخذون دينهم من قتلة أبناء الأنبياء.

٢- مروان بن الحكم الوزغ ابن الوزغ قد عدله القوم وعملوا برواياته وهو الذى كان سبب قتل الخليفة عثمان وهو الذى رمى طلحة يوم الجمل فقتله وهو صاحب المنكرات والموبقات.

وهناك الكثير من النواصب والضّلال قد قبل القوم رواياتهم لسنا بصدد إحصائهم أو التعرض لتعدادهم وما ذكرناه إنما كان لأجل التنبيه على التعصب المذهبى الأعمى الذى قاد الجماعة إلى توهين رواية الراوى لأنه شيعى فحسب دون أن يوهنوا رواية أى إنسان آخر ينتمى إلى أى مذهب كان ولو كان ناصبياً أو خارجياً ملحداً.

(١) العتب الجميل ص٧٩.

سنة الصحابى وحجية قوله

بعد أن تبيّن أن السنة التى يجب التعبد بها عبارة عن قول المعصوم وفعله وتقريره لأنها هى الحاكية لإرادة الله وحكمه يظهر لنا زيف الاحتجاج بقول الصحابى الذى لا يعكس ذلك بل يظهر لنا عدم الاحتجاج بقول أحد من الصحابة إذا كان قوله رأياً شخصياً له دون أن يسنده لرسول الله وسنته لأن الصحابى إذا أفتى بفُتية أوحكم بحكم دون أن يكون له مستند من كتاب أو سنة فهو قول بشر يعرض عليه الخطأ ولا يؤمن من الزلل.

وقد خالف فى ذلك أهل السنة فقالوا: إن سنة الصحابى حجة فإذا أفتى الصحابى بحكم وجب متابعته ولا يجوز الخروج عن قوله خصوصاً إذا لم يكن له مخالف من الصحابة.

قال الأستاذ محمد عجاج الخطيب فى كتابه[1] أصول الحديث:

السنة وعمل الصحابة: فقد يطلق العلماء لفظ السنة أحياناً على ما عمل به أصحاب رسول الله (ﷺ) سواء أكان ذلك فى القرآن الكريم أم فى المأمور عن النبى (ﷺ) أم لا لكونه إتباعاً لسنة ثبتت عندهم أو اجتهاداً مجمعاً عليه منهم.

ومن أبرز ما ثبت فى السنة بهذا المعنى حد الخمر وتضمين الصناع وجمع المصاحف فى عهد أبى بكر برأى عمر رضى الله عنهما وحمل الناس على القراءة بحرف واحد من الحروف السبعة وتدوين الدواوين وما أشبه ذلك مما اقتضاه النظر المصلحى الذى أقره الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وقد استدل على حجية قولهم بقوله:

ومما يدل على إطلاق السنة بهذا المعنى قوله (ﷺ): عليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ.

وقوله (ﷺ) تفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة.

قالوا: ومن هم يا رسول الله؟

قال: ما أنا عليه وأصحابى.

---

(١) أصول الحديث ص٢١.

ونقول: إن هذه الأحاديث غير صحيحة لا يمكن تصديقها والاعتماد عليها لعدة أمور.

الأول: إن تصديقها يؤدى إلى عصمة الصحابة وهذا شىء مرفوض لم يوافق عليه المسلمو ن بل لم يدّعه أحد منهم إذ معنى جعل قول أحد الأشخاص أو تصرفه - بشكل دائم ومستمر - حجة على الآخرين يرادف عصمته.

الثانى: إن الحديث الأول يختص بالخلفاء المهديين الراشدين فالدليل أخص من المدعى لأن الكلام فى سنة الصحابة أجمعين - حتى من رأى النبى مرة أو سمع منه حديثاً واحداً - وأن كل عمل من أحدهم يكون سنة.

الثالث: إن سنة الصحابة مختلفة فقد يذهب أحدهم إلى وجوب شىء والآخر إلى عدم وجوبه بل قد يتعدد الحكم ويختلف من الشخص الواحد فى مسألة واحدة، فتاوة يحكم بشىء وأخرى ينقضه ويفتى بضده.

وهذه نماذج لتلك الأحكام المتناقضة المختلفة المتباينة التى ذهب فيها أحد الصحابة إلى شىء والآخر إلى خلافه مع أن المسألة لا يمكن أن تقع محلاً لحكمين متباينين.

١- سيرة الخلفاء ومدى تباينها وتناقضها:

أ- هذا خالد بن الوليد - وهو من الصحابة - قتل مالك بن نويرة - وهو صحابى - المسلم التقى ثم نزا على أمرأته فى ليلته وعندما عاد خالد إلى المدينة ودخل المسجد وكان عليه قباء معتجراً بعمامة له قد[1] غرز فيها أسهماً تقدم منه عمر بن الخطاب فانتزع الأسهم وحطّمها.

ثم قال له: أرئاء؟ قتلت امرءاً مسلماً ثم نزوت على امرأته، الله لأرجمنك بأحجارك وخالد لا يكلمه.

وقد قال عمر لأبى بكر: أن خالداً قد زنى فارجمه.

قال: ما كنت لأرجمه، إنه تأول فأخطأ.

قال: إنه قتل مسلماً فاقتله.

قال: ما كنت لأقتله به إنه تأول فأخطأ، فلما أكثر عليه.

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج٢ ص٣٥٨.

وأيضاً نجد عمر بن الخطاب عندما تولى الخلافة يكتب إلى أبى عبيدة كما فى تاريخ اليعقوب ج٢ ص١٤٠ أن ينزع عمامة خالد عن رأسه ويشاطره ماله ففعل أبو عبيده ذلك.

قال: ما كنت لأشيم سيفاً سله الله تعالى، وودى مالكاً من بيت المال وفك الأسرى والسبايا من آله.

فانظر رحمك الله إلى هاتين السيرتين المتناكرتين المختلفتين فبأيهما نأخذ: هل نأخذ بسيرة عمر؟ أم بسيرة أبى بكر؟! أن نرجع أدراجنا إلى كتاب الله وسنة رسوله دون السير وراء السراب الذى لا يصل بنا على أحسن التقادير إلا إلى الخراب والبوار والضلال - ولكل قوم مذهب وإمام-.

ما معنى أنه سيف سله الله؟ هل سله لقتل عباده المؤمنين من أجل ثارات قديمة وأحقاد ماضية أو من أجل شهوة أراد قضاءها؟ الله أكبر ما أعظمه من ذنب، وما أخفه من عقاب هكذا منطق الصحابة يكون. وهذه حجية أقوالهم.

فهل من المعقول أن يعبدنا الله بسيرة الرجلين مع ما فيهما من اختلاف وعدم استقرار.. قد تجيزها العقول التى تقبل المستحيلات وتخلق المعجزات للصحابة، أما عقول البشر وقواعدهم فلا تقبل ذلك ولا تذعن به أو تؤمن بمدلوله.

ب- إن أبا بكر قد ساوى فى العطاء[1] بين المسلمين فلم يميّز بين العربى والأعجمى بين القرشى وغيره بين المهاجر والأنصارى ولكن عمر عندما تولى الخلافة فاوت فيما بين الناس، فقد أعطى العباس بن عبد المطلب ثلاثة آلاف وكذلك كل من شهد بدراً من قريش وأما من شهد بدراً من الأنصار فقد جعل له أربعة آلاف وهكذا.. ولأهل مكة من كبار قريش مثل أبى سفيان بن حرب ومعاوية بن أبى سفيان فى خمسة آلاف ثم قريش على منازلهم ممن لم يشهد بدراً، ولأمهات المؤمنين ستة آلاف ولعائشة وأم حبيبة وحفصة اثنى عشر ألفاً ولصفية وجويرية خمسة آلاف وهكذا رتّب الناس حتى وصل الأمر إلى ربيعة فجعل لكل فرد مائتين.

وقال: لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه.

فنحن إزاء هاتين السيرتين وأمامهما كيف نعمل؟ هل نساوى بين الناس؟ فنقتدى بمن ساوى أم نفاوت بينهم ونقتفى أثر عمر؟ إنهما سنتان لا يمكن الجميع بينهما ولا يمكن أن

---

(١) قال ابن الأثير فى تاريخه ج٢ ص٤٢٢ واليعقوبى فى تاريخه ج٢ ص١٥٣ وكان (أبو بكر يسوى فى قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين فى الإسلام وبين الحر والعبد والذكر والأنثى فقيل له: لتقدم أهل السبق على قدر منازلهم فقال: إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه يوفيهم أجرهم فى الآخرة وإنما هذه الدنيا بلاغ...

يكون الحق فيهما معاً، فأيهما نسقط وبأيهما نأخذ.

ج- أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: صلى بنا رسول الله (ﷺ) بمنى ركعتين وأبو بكر بعده وعمر بعد أبى بكر وعثمان صدراً من خلافته رضى الله عنه، ثم أن عثمان صلى بعدُ أربعاً فكان ابن عمر إذا صلى مع الإمام صلى أربعاً وإذا صلى وحده صلى ركعتين فهذه سنة عثمان والقوم يقولون بحجيتها فهل نعمل بمضمونها أم نعمل بمضمون عمل السابقين عليه وفيهم النبى(ﷺ).

لابد وأن يقول القوم أن سيرة من تقدمه هى الحجة ولا قيمة لسيرة عثمان وطريقته، فإنها بدعة محرمة مخالفة لعمل الرسول المشرع ومخالفته لا تجوز فى أى حال من الأحوال.

هذه نتف من مخالفة الصحابة بعضهم لبعض، والمخالفات كثيرة وكثيرة جداً لا يمكن الإتيان عليها فى هذه العجالة، وليس إحصاؤها مراداً لنا أو مقصوداً وإنما أردنا أن ندلل على مدى الاختلاف بين أفعال الصحابة المؤدى إلى عدم اتخاذ فعلهم حجة بحق من يأتى بعدهم.

يضاف إلى ذلك أن بعض الصحابة قد فعل أموراً وتمنى أن لا يكون قد فعلها مما يكشف عن عدم جزمه بصحتها شرعاً، فكيف يأتى مَنْ بعدَه فيتخذها سنة يبنى عليها عمله ويصحح شرعيتها كما وقع ذلك لأبى بكر فى مرضه عندما دخل عليه عبدالرحمن بن عوف فوجده مهتماً فطيب خاطره بكلمات.

فقال أبو بكر: أجل إنى لا آسى على شىء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن وددت أنى تركتهن وثلاث وددت أنى فعلتهن وثلاث وددت أنى سألت عنهن رسول الله (ﷺ).

فأما الثلاث اللاتى وددت أنى تركتهن: فوددت(١) أنى لم أكشف بيت فاطمة عن شىء وإن كانوا قد غلقوه على الحرب ووددت أنى لم أكن حرقت الفجاءة السلمى وإنى كنت قتلته سريحاً أو خليته نجيحاً، ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قد قذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين يريد - عمراً وأبا عبيدة - فكان أحدهما أميراً وكنت وزيراً.

وأما اللاتى تركتهن فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه فإنه تخيّل إلىّ أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه ووددت أنى حين سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة كنت أقمت بذى القصّة فإن ظفر المسلمون ظفروا وإن هُزموا كنت بصدد لقاء أو مدد، ووددت أنى إذا وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت كلتيهما فى سبيل الله ومدّ يديه.

(١) تاريخ اليعقوبى ج٢ ص١٣٦ والطبرى ج٢ ص٦١٩.

وودت أنى كنت سألت رسول الله (ﷺ) لمن هذا الأمر؟ فلا ينازعه أحد ووددت أنى كنت سألته هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب؟ ووددت أنى كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ والعمة فإن فى نفسى منهما شيئاً.

فإننا نجد أن ثلاثة من هذه الأمور التسعة قد عمل بها الخليفة دون أن يفقهها فلذا تمنى تركها، إنه عملها وهو فى شك من صحتها فكيف يجوز لغيره أن يتخذ عمله سنة يحتج به أمام الله.

إن من يعمل عملاً وهو على شك من صوابه كيف يستطيع غيره أن يتخذه إماماً فى ذلك العمل وكيف تطاوعه نفسه أن يسير وراء شىء مشكوك لم يؤمن صاحبه بصحته وصوابه.

ورابعاً: وختاما نقول أن علياً (ع) رفض الخلافة الإسلامية ورئاستها العامة عندما اقترنت بشرط الالتزام بسيرة الشيخين أبى بكر وعمر حيث قال له عبد الرحمن بن عوف. أبايعك على كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة الشيخين أبى بكر وعمر.

فقال: بل على كتاب الله[1] وسنة رسوله واجتهاد رأى فعدل عنه إلى عثمان فعرض عليه ذلك فقال: نعم.

فعلى وهو أفضل الصحابة وأعلمهم، وأعظمهم وأتقاهم أشدهم التزاماً بالإسلام وحيطة عليه لو كان يرى حجية سيرة الصحابة لقبل سيرة الشيخين وهما من ملامح الصحابة ووجوههم لو كان يرى حجيتها لقبل الخلافة بهذا الشرط ولاذعن بالرضا ولكنه على الذى لا يرى قول أحد من البشر ولا سيرته حجة عليه ويرفض الخلافة لأنها اقترنت بما يخالف الدين والشريعة وهذا وحده يكفى لدفع ما احتج به القوم على حجية سيرة الصحابة إن السيرة التى تكون حجة هى سيرة المعصوم الذى لا يخطئ وهى سيرة رسول الله «ص» والتى تتميز عن غيرها من السير التى يتعرض أصحابها للخطأ والزلل.

الاجتهاد:

باعتبار أن الكثير من صحابة النبى قد أعذر لهم عما ارتكبوه من لافعال سيئة أو أقوال شائنة أو إنحراف عن الطريق بأنهم مجتهدون، والمجتهد إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فأجر واحد فيجب أن نتعرض للإجتهاد ونقف على عدة أمور لها مساس به وهى:

---

(١) ابن أبى الحديد ج١ ص١٨٨.

ما معنى الإجتهاد؟

وما هى مقومات الإجتهاد وشروطه؟

ثم بعد العرض السريع لهذه التساؤلات يحسن بنا أن نقدم بعض النماذج للإجتهاد السليم الذى أباحه الشرع وبعض النماذج الأخرى للإجتهاد المنحرف الذى لم يأذن به الله ولا رسوله الكريم.

معنى الإجتهاد:

عرّف الإجتهاد بتعاريف كثيرة لم يسلم واحد منها من الإشكال عليه وأحسن ما عرف به وأسدُّه تعريف السيد الأستاذ آية الله الخوئى دام ظله فقد عرفه:

«باستفراغ الوسع فى تحصل الحجة على الأحكام الشرعية أو تعين الوظيفة عند عدم الوصول إليها».

فإن هذا التعريف أكمل من تعريف الحاجبى الذى عرفه:

«بأنه بذل الوسع واستفراغه لتحصيل الظن بالحكم الشرعى».

لأنه يرد عليه.

وأن الظن ليس بحجة فلا يعتد بما يظنه الإنسان إن لم تقم حجة قطعية على حجية هذا الظن وهناك نقوض أخرى تمنع من قبوله.

ما هى مقومات الإجتهاد:

كى يصبح الإنسان مجتهداً يجب أن يدرس ويتعلم ويتفقه حتى يصل إلى مرتبة تؤهله لإقتناص الحكم من الأدلة الشرعية. وعملية الإجتهاد تتوقف على عدة علوم يجب على الفرد تحصيلها وهى:

علم الكلام:

والمعتبر منه ما يعرف به الإنسان ربه وصفات الله الجلالية والكمالية وعدله وحكمته والنبوة ودليل عصمتها كى يحصل الوثوق بقول النبى (ﷺ).

علم الأصول:

والمعتبر منه ما يعرف به أدلة الأحكام من الأمر والنهى والعام والخاص والمطلق والمقيد وغير ذلك مما هو مطروح فى أمهات الكتب الأصولية التى حققها علماؤنا واجتهدوا فيها فبلغوا قصبة السبق.

علم النحو والتصريف:

والمعتبر منه معرفة ما يختلف المعنى باختلافه ليحصل بسببه معرفة المراد من الخطاب ولا يعتبر الاستقصاء على الوجه التام بل على نظر الشهيد الثانى يكفى منه الوسط فما دون.

علم اللغة:

والمعتبر منه ما يفهم به كلام الله المنزل وكلام الرسول، أما بحفظه أو بالإحتفاظ مما يرجع إليه عند الحاجة. وهذا المطلب يحتاجه حتى العربى من الناس لأنه لا يحيط بجميع مواد اللغة.

الأصول الأربعة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

أما الكتاب:

فيجب أن يعرف الإنسان منه آيات الأحكام وما يمكن أن يستفاد منها.

وأما السنة:

فيجب أن يعرف منها كل ما اشتمل على الأحكام ويعرف سند الرواية وهل هو متصل أو منقطع أو مرفوع ويدرس حال الرواة ليعرف المجروح منهم من المعدل والفاسق من الثقة ويعرف بخبر من يأخذ ومن يدع.

وأما الإجماع:

فيعرف منه أنه إذا أفتى بحكم لا يكون مخالفاً لما انعقد عليه الإجماع ويعرف عدمه بوجود مخالف من الأولين وغير ذلك مما له مساس بانعقاد الإجماع وعدمه.

وأما دليل العقل:

فهو كل قضية عقلية يتوصل بها إلى العلم القطعى بالحكم الشرعى كحكم العقل فى مسألة الأجزاء ومقدمة الواجب وكاستحالة التكليف بلا بيان وتقديم الأهم فى مورد التزاحم

وغيرها من الموارد الأخرى.

وإن فوق ذلك كله يشترط في الإنسان كما يقول الشهيد الثاني أن يكون له قوة يتمكن بها من رد الفروع إلى الأصول واستنباطها منها وهي العمدة. إن هذه المقدمات ليست سهلة المنال ولا يستطيع الوصول إليها كل من تمناها بل فيها من الجهاد والتعب والكد والنصب ما لا يعرف طاقته إلا من مشى في هذا السبيل واختط لنفسه هذا الطريق الذي لاقى أربابه وطلبته في سبيله ما يعجز القلم عن وصفه واللسان عن ذكره ويحدثنا القدماء من ساداتنا ومشايخنا بأمور هي أشبه بالكرامات بل مثل المعجزات من جراء ما لا قوه من السعي لتحصيل هذه العلوم الدينية. فقضوا شطراً من أعمارهم هو زهرة وجودهم في هذه الدار، قضوة في طلب هذه الرتبة - رتبة الإجتهاد - ولم تحصل للجميع بل حصل عليها بعضهم وفات الكثيرين منهم إدراكها.

قال الشهيد الثاني عن هذه القوة بأنها بيد الله تعالى يؤتيها من يشاء من عباده على وفق حكمته ومراده وقال شيخنا الحجة المظفر في (عقائد الإمامية) ما فحواه، أن رتبة الإجتهاد رتبة عالية لا ينالها إلا ذو حظ عظيم وهي رتبة تحتاج إلى كثير من المعارف والعلوم التي لا تتهيأ إلا لمن جد واجتهد وفرّغ نفسه وبذل وسعه لتحصيلها.

حتى الرعاع يدعون الإجتهاد:

قد عرفنا أن طلب العلم مطلب رفيع وعظيم ولا يمكن أن يتحقق ذلك لمن أغلق بابه عليه وأخذ نفسه برياضة روحية ونفسية أو سياحة فكرية وصوفية أو بحث عنه في قصص الغرام والإجرام أو في الشوارع والطرقات بل إن لهذا العلم أبواباً من قرعها ولجّ ولجَ، إن لهذا العلم حملة وأصحاب اختصاص، إنهم العلماء العارفون بالله الذين وقفوا طويلاً أمام مدارك الأحكام ومصادر الشريعة، إنهم الأمناء الذين وقفوا على أبواب أهل بيت العصمة فارتشفوا من معينهم وارتووا من علمهم، إنهم الذين سهرت عيونهم طويلاً وامتدت جلسات مباحثاتهم حتى صياح الديكة وأصوات المؤذنين صباحاً في استقصاء مسألة أو البحث عن دليل حكم من الأحكام، إنهم الذين تتبعوا الأدلة المنصوبة لهم واستقصوها عن آخرها حتى استنتجوا هذا الحكم ووصلوا إلى وجه الحق في مسألة ما.

ومع كل الجهود ومع ما بذلوه في سبيل الحصول على الحكم الشرعي في تلك المسألة وقفوا على خوف يفتون في الحكم لأنهم يخافون الله من التقصير في بلوغ البحث مداه والإستقصاء ذراه بل كان منهم من يمتنع عن الإفتاء احتياطاً لنفسه وخوفاً من عاقبة

الحساب فقد كان يفرح عندما يتحمّل غيره عنه مسؤولية الإفتاء لأن الإفتاء فى مسألة وبيان الحكم فيها ليس رأياً شخصياً يبديه صاحبه حتى يكون الإختيار له والأمر بيده يتكلم كيف شاء بل هو يتكلم عن لسان الله ومراده بحسب ما وضعه بين يديه من الأدلة فإذا قصّر فى المقدمات التى يجب البحث فيها خاف عقاب الله وحسابه وأما فى هذا الزمن النكد والأيام السيئة فقد تغيرت الموازين وتنكرت الدنيا وانعكس الأمر فإنا أصبحنا نبصر الغرائب والعجائب وما يذهل العقول والألباب حيث أخذ المتطفلون على العلم بمجرد أن يحصل لأحدهم رأياً من قبل نفسه تراه يبادر ليفتى بمضمونه ناسباً ذلك لدين الله بل إذا استحسن أمراً أفتى به دون العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله بل تعدى الأمر ذلك حتى وصل إلى العوام والجهال والرعاع بل وربات الحجال فإنك تجد كيف يتبرع الدجالون بفتواهم عند أول فرصة تسنح لهم وكأن الوحى قد نزل عليهم أو أتاهم النبى فبلغهم ما أرادوا وطلبوا، تبت أيديهم وساء ما يفترون.

إن المتكلم باسم الإسلام والمفتى بحكم الله هو العالم بأحكام الله من أدلتها التى نصبها النبى له، فكل رأى لا يعتمد على ذلك ولا يستند إليه فهو رأى شخصى لصاحبه لا يجب التعبد به ولا العمل بمضمونه، وليرتدع كل المنافقين وأصحاب الأهواء عن نسبة حكم إلى الله دون أن يعتمد على الأصول المقررة له وليتقى الله كل من أراد أن يطوّع الدين للمصالح الوقتية والآراء المستحدثة التى لا تمت إليه بصلة وأن الحكام قد استغلوا الإسلام لتثبيت حكمهم الجائر وآرائهم الفاسد التى لا تمت إلى الإسلام بصلة وقد انبرى بعض المستأجرين من رجال الدين الذين وظّفتهم الدولة وتبناهم الطاغوت عنده، قام هؤلاء الرجال بتسديد وتصويب ما أراد الحاكم الفاسق الذى يستحق الإعدام بحكم الإسلام وليس ببعيد عنا فُتيا تبنى الإشتراكية وأنها من الإسلام والإسلام منها برىء. إنها «اشتراشيوعية» عدوة الإسلام والدخيلة على ارضنا وهذه فتيا مشايخنا اليوم فى مصر بتبريك رحلة العار إلى القدس المحتلة التى شُرد أهلها وسلبت أرضهم وطردوا عن ديارهم وأوطانهم دون ذنب فعلوه أو جرم اقترفوه.

إن الخائن برحلته وجد غطاء الشرعى ممن وظّفهم لحسابه ومآربه ومثل هؤلاء غير مستحقين لأمانة الله وحمل الإسلام، مثل هؤلاء القوم قد نالتهم لعنة الله ولعنة رسوله قبل أكثر من ألف سنة ونبذهم الإسلام ولم يأتمنهم.

وهذا بخلاف علماء الإسلام الآخرين المستقلين فى جميع شؤونهم الإقتصادية والمالية

والسياسية والفكرية والدينية الذين لا يخضعون لحاكم ولا يلوون رؤوسهم إلا لجبار السماوات والأرض، إنهم وحدهم الأمناء على رسالة الإسلام وهم وحدهم الذين يبدون رأيهم الحر رأي الإسلام الأصيل الذي لا يؤثر عليه غضب حاكم أو سوط جلاد وما نراه من الضغوط على هذه القلة من خيار العلماء إلا شاهد صدق على صدقهم وقولهم الحق فلذا نرى وقوفهم في صف المستضعفين والفقراء والمساكين ضد الحكام الطواغيت الذين لم يرعوا إلا مصالحهم الذاتية وشهواتهم المادية وكم قدمت دماء وكم مزقت أشلاء وكم سلبت أموال وكم هدمت دور لهؤلاء الأخيار لأنهم وقفوا ضد الظلم والجور والعدوان الذي يمثله الحاكم الفاسد، والحق يقال أن قافلة الشهداء ودماءها الزكية التي أهدرت في سبيل الإسلام وطريق الحق أجمل وأكبر بكثير من مهادنة السلطة الظالمة الفاسدة أو السير في ركابها لأننا بهذه الدماء نحفظ الإسلام من التلوث ونصون فكره من العبث به أو اللعب بأحكامه...

إن الفتيا التي يرضاها الله هي التي تنطلقُ من أهلها الأمناء. التي تنطلق من الفقيه الذي يطيع مولاه ويعصي هواه الذي يرعى الحق ويرضاه.

الإطار الذي يتحرك ضمنه الإجتهاد:

إن هذا الإجتهاد الذي تقدم معنا تعريفه وشروطه لا يمكن أن يجري في كل شيء بل هناك موارد يُحظر فيها الإجتهاد وتمنع ممارسته في ذلك النطاق كما في مورد، النص، فإن الإجتهاد في مورد النص محظور، ممنوع مثلاً لو ورد عن النبي نص في حرمة موضوع معين كما ورد النص الصريح في حرمة شرب الخمر والنبيذ والبيرة في طرف الحرمة أو ورد النص الصريح في وجوب شيء كما ورد في وجوب الصلاة والصوم والزكاة والخمس فإن الإجتهاد في أبطال الحرمة الثابتة أو إبطال الوجوب غير جائز لأنه بمثابة رفض لقول النبي بل هو رفض حقيقة لما جاء به النبي وردُّ وبذلك تنتفي فائدة البعثة التي من أجلها أرسل الله نبيه إذ أرسله لتبليغ أحكامه وسننه فإذا جاز لأحد نقض ما هو صريح فيها لا يبقى أي حكم في موضعه الطبيعي مضافاً إلى أن هذا المجتهد إنما يريد أن يثبت حكم الله من خلال اجتهاده فإذا كان حكم الله في خلاف اجتهاده - في النص - فلا يلتفت إلى مثل هذا الإجتهاد بل يكون من الإجتهاد المحرم الذي يجتهد فيه المرء لإطفاء نور الله وشرعه وهذا باتفاق المسلمين محظور محرّم سواء كان النبي حياً أم ميتاً لأن ما ورد عن النبي من حلية شيء وحرمته يبقى كذلك إلى قيام الساعة طبقا لقوله (ﷺ) حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

نموذج للإجتهاد الشريف:

وإن عملية الإجتهاد يجب أن تكون مع النص حيادية بمعنى أن النصوص عندما تكون بين أيدى المجتهد يجب أن يكون موقفه إتجاهها كلها على مستوى واحد لايجوز أن تشده رولسبه إلى مطلب معين ولا هواه إلى الإثبات أو النفى مسبقاً بل يجب أن يتحلل من كل الميول والرغبات والتمنيات والأهواء والمصالح الشخصية ويبحث الأدلة بحثاً وافياً كاملاً مستوعباً جميع جوانب المسألة المبحوث عنها وبعد إعمال القواعد الصناعية التى توصل إلى صحتها، بعد ذلك إذا خرج بنتيجة معينة يكون ممن أدى الإجتهاد فأحسن ويكون معقوراً فيما توصل إليه من الأحكام والتشريعات، له أجر يثاب عليه إن أخطأ وأجران إن أصاب.

وقد وقع لعلمائنا هذا النموذج من النزاهة والطهر ومثلوا أروع عنوان للحياد فى الإجتهاد، تصور أن أحدهم أراد أن يبحث موضوع انفعال ماء البئر وهل ينجس بملاقاة النجاسة أو لا، وكان فى بيته بئر فأمر بطمها وبعد أن فرغ من ذلك عمد إلى بحث المسألة.

لماذا قام هذا العالم الفقيه بردم البئر؟

لقد قام بردمها من أجل هدف عظيم، من أجل أن يحقق المسألة ويبحثها بشكل موضوعى من أجل أن لا تشده المصلحة الشخصية لطهارة بئره لأجلها ردمها وبحث المسألة.

ما أروع الإجتهاد الذى يستكمل شروطه وما أروع ما يتوصل إليه المجتهد من الأحكام إذ بها يطمئن إلى خلاص نفسه وبراءة ذمته من تكاليف الله أوامر ونواهى وهناك أمثلة كثيرة لنزاهة علمائنا الأخيار قديماً وحديثاً إذ هم رمز الطهر والعفاف والعدالة والإنصاف.

نموذج للإجتهاد المنحرف الضال:

ذكر الزمخشرى فى تفسيره عند مروره بقوله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1].

فإن قلت: فما تقول فى الصلاة على غيره - على غير النبى.

قلت: القياس جواز الصلاة على كل مؤمن لقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾

(١) الأحزاب: ٥٦. تفسير الكشاف ج٣ ص٢٧٢ طبعة دار المعرفة بيروت.

وقوله تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ وقوله (ﷺ): (اللهم صلى على آل أبى أوفى) ولكن للعلماء تفصيلاً فى ذلك وهوانها إن كانت على سبيل التبع كقولك صلى الله على النبى وآله فلا كلام فيها وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد هو فمكروه لأن ذلك صار شعاراً لذكر رسول الله (ﷺ) ولأنه يؤدى إلى الإتهام بالرفض وقال رسول الله (ﷺ): من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم.

انظر بربك إلى هذا الإجتهاد المقلوب، هذا الإجتهاد القياسى الذى لم يسبقه إليه إبليس، إنه اجتهاد فى مقابل النص الصريح ومن هم الروافض حتى لا يجوز موافقتهم فيما ثبت عن النبى مشروعيته وهل يجيز الزمخشرى مخالفة الشيعة مطلقاً ويسرّى الحكم لكل ما ثبت عندهم وما اشتهروا به.

- لقد اشتهر الروافض بحبهم لعلى فهل للزمخشرى أن تفيض قريحته ويقول ببغضه لعلى لعله قالها حيث أورد فى تفسيره عند قوله تعالى فى سورة: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾.

قال: ومن البدع ما روى عن بعض الرافضة أنه قرأ فانصب بكسر الصاد: أى فانصب علياً للإمامه، ولو صح هذا للرافضى لصح للناصبى أن يقرأ هكذا، ويجعله أمراً بالنصب الذى هو بغض على وعداوته.

ما أجراه على الله ورسوله وانتهاك حرمة الدين والشرع كُبرت كلمة تخرج من أفواههم الم يعلم الزمخشرى بما صح عندهم من قول النبى كما فى مستدرك الصحيحين لعلى: (يا على من فارقنى فارق الله ومن فارقك يا على فقد فارقنى)[1] فكيف بمن أبغض علياً لأن الروافض يحبونه ويأتمون به فى دينهم.

ولقد اشتهر الشيعة بحبهم لله ورسوله وإطاعة أوامرهم ونواهيهم فهل للزمخشرى أن يعاند الله ورسوله كى يخالف الشيعة.

من السخف أن يعاند الإنسان الحق ويرفضه لأن غيره قد تدين به وهل وجدت أضل ممن يترك سنة رسول الله لأجل أن أناساً يعملون بها، تبت يداك فبدلاً من أن تروّج لما جاء به الإسلام وما ثبت عن رسول الله كى تعم شريعة الله أحكاماً وآداباً المجتمع كله إذ بك تنقبض عن العمل بها وترفضها لأجل أن غيرك يعمل بها. إنه التعصب الأعمى والإجتهاد الشيطانى الذى يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

(١) مستدرك الصحيحين ج٣ ص١٢٣.

وإن الزمخشرى ليس وحده الذى ينهج هذا النهج من الإجتهاد فهناك حفدة أبى لهب الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، مخالفة لله ورسوله.

إن الغزالى يذكر فى أحد مؤلفاته ولعله إحياء علوم الدين ما مضمونه أن استحباب التختم باليمين ورد عن رسول الله (ﷺ) ولكن بما أن الرافضة قد اتخذته شعاراً لها فصار الإستحباب فى خلاف ذلك.

بربك فكر فى هذا الإجتهاد؟ هل يُرفض قول ثبت عن رسول الله لأجل أحد من الناس تدين به.

هل يعقل أن يسفّ الغزالى ذلك المفكر الكبير إلى هذا الحد؟

نعم إنها شطحات الحب المذهبى، والتعصب الذى يعمى الإنسان عن رؤية الحق ويحجب المرء عن إدراك نور الله الذى به يهتدى المؤمنون.

متى ابتدأ الإجتهاد فى مقابل النص:

قد يبدو لبعضهم أن يقول أن الإجتهاد فى مقابل النص لم يكن فى زمن النبى وإنما جاءت بعض الحوادث المتأخرة التى ارتكب فيها هذا العمل الشنيع المخالف لقول رسول الله تبريراً لمواقف بعض الأفراد وما عملوا من أحداث. ولكن إذا ضربنا بنظرنا إلى أسبق من ذلك لوجدنا أن لهذا الإجتهاد الباطل جذوراً قد كان يواجه بها النبى ويخالف أمره من جرائه وكان صلوات الله عليه يستنكر ذلك ويبينّ للناس بعض المواقف الخاطئة التى يجب أن يرجعوا فيها عن ضلالهم وليست فى صدد بيان كل تلك الإجتهادات التى وقعت فى مقابل النص وإنما أضرب نموذجاً لها...

أخرج جماعة من أعلام الأمة ومنهم أحمد بن حنبل فى مسنده من حديث أبى سعيد الخدرى قال: إن أبا بكر جاء إلى رسول الله (ﷺ) فقل: يا رسول الله إنى مررت بوادى كذا وكذا فإذا رجل متخشع حسن الهيئة يصلى فقال له النبى (ﷺ) اذهب إليه فاقتله قال: فذهب إليه أبو بكر فلما رآه على تلك الحال كره أن يقتله فرجع إلى رسول الله (ﷺ) قال: فقال النبى (ﷺ) لعمر اذهب فاقتله فذهب عمر فرآه على تلك الحال التى رآه أبو بكر عليها قال: فكره أن يقتله قال فرجع فقال: يا ر سول الله إنى رأيته يصلى متخشعاً فكرهت أن أقتله قال: يا على اذهب فاقتله قال: فذهب على فلم يره فرجع على فقال: يا رسول الله إنى لم أره قال: فقال النبى (ﷺ): إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يجاوز

تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم من فوقه فاقتلوهم هم شر البرية: وكان هذا الرجل هو ذو الندية رأس الخوارج الذى قال النبى فيه أن فى وجهه لسفعة من الشيطان وهو نفسه الذى أقبل حتى وقف على النبى ومن معه فقال له رسول الله (ﷺ) أنشدك الله هل قلت حين وقفت على المجلس: ما فى القوم أحد أفضل منى أوخير منى؟ قال: اللهم نعم...

فإن هذا الموقف من الخليفتين يعد من الإجتهاد فى مقابل النص فإن النبى يأمر أمراً صريحاً بقتله فيعتذر كل منهما بأنه رآه يصلى وكأن موقف المصلى أقوى من أمر النبى وأشد فلذا اعتذرا عن قتله بما رأياه عليه من الصلاة.

وإن أقوى الإجتهادات وأجرأها على مخالفة النص الصريح ما ثبت من ولاية الإمام على بالنص الصريح الذى قاله النبى فى غدير خم الذى بلغ الحديث من المكانة أن تواتر بين الأمة فى جميع طبقاتها منذ صدوره من النبى حتى الآن هذا الحديث الذى قال فيه بعد أن خطب فى غدير خم عند مفترق طرق الحجيج ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى. فأخذ بيد على فقال: من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وآل من والاه وعاد من عاداه فتقدم عمر قائلا: هنيئاً لك يا ابن أبى طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة.

ولكن هذا النص الجلى على إمامة على دُفع بإجماع السقيفة وبويع أبو بكر فسبقت بيعته حق على ووصية النبى وأخذوا فى تصحيح الخلافة لابن أبى قحافة بالأعذار الواهية والدعاوى الفارغة، التى لا تقوم فى وجه النص الصريح من النبى الكريم. فهذه نماذج لبعض الموارد التى اجتهد فيها القوم مقابل النص فكانت اجتهاداً معسولاً باطلاً لا يمكن أن يوافق عليه مسلم يؤمن بأن محمد بن عبد الله رسول الله ونبيه إذ بطلانه واضح بالوجدان ظاهر للعيان. وهذا الإجتهاد هو الذى اعتذر به لكل هفوة صدرت أو عثرة حصلت أو معصية ارتكبت أو دماء أهرقت أو نفوس أزهقت أو طغيان استفحل أو حاكم تجبر وتكبر وتعذّب وشرّد بهذا الاجتهاد استطاع الجمهور أن يدفعوا السوءات عن كل الخلفاء وألبس الشقى ثوب التقى والكافر العادى ثوب القريب الناصر.

وإن الذى دفع القوم لدعوى الإجتهاد ما ظهر من الخلفاء من الهفوات وما وجدوه منهم مخالفاً لكتاب الله وسنة رسوله حتى ادعوا الإجتهاد مع النص الصريح الذى لا يمكن فيه التأويل أو التحريف فانظر إلى معاوية وجرائمه التى ارتكبها إنها جرائم لا يرتكبها أكبر

مجرم حرب فى التاريخ وعلى رأس هذه القائمة وفى طليعتها حربه لإمام الهدى على بن أبى طالب فقد نص النبى صريحاً على أن الحق مع على وعلى مع الحق وأنهما لن يفترقا حتى يردا الحوض.

وقال (ﷺ): أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم مشيراً لعلى والحسن والحسين وفاطمة الزهراء وقد تقدم شطر منها فيما تقدم وبالرغم من هذه النصوص الصريحة فقد وقف معاوية فى الحرب ضد الإمام عناداً لله ورسوله ورفضاً لما نص عليه النبى من أحقية على وكون المحارب له محارباً لله ورسوله وأتى بعد ذلك قوم ممن أشرب فى قلوبهم حب الأمويين وبغض الهاشميين فراحوا يبحثون عن عذر لما افتعله الطاغية الأموى من وقوفه ضد على الذى صدع بفضله وشأنه النبى الكريم فلم يجدوا عذراً له إلا يلبسوه الإجتهاد إذ به وحده تتحقق أمانيهم من رفع معاوية وأتباعه عن كل ما يمسه بسوء ويبقى فى كرسى الخلافة دون أن يتعرى بواقعة السيئ القبيح. ولكن هذه الدعوى لا تفيد ولا يصلح العطار ما أفسد الدهر فإن قبائح معاوية وجرائمه لا يمكن سترها بدعوى الإجتهاد فإن الإجتهاد له مجال فى غير المنصوص عليه من النبى الكريم ولئن أمكن ترقيع سيئة واحدة فكيف يرقع من كله سيئات وكفر وإلحاد كمعاوية ويزيد وغيرهما...

وما أحسن ما نقله الشيخ محمود أبو رية عن العلامة المقبلى فى خصوص من ادعى لهؤلاء وأمثالهم الإجتهاد يقول: فمنهم من يتستر بدعوى الإجتهاد دعوى تكذبها الضرورة فى كثير من المواضع ومنهم من يطلق! ويا عجباه من قلة الحياء فى ادعاء الإجتهاد لبسر بن أرطأة الذى انفرد بأنواع الشر لأنه مأمور المجتهد معاوية ناصح الإسلام فى سب على بن أبى طالب وحزبه وكذلك مروان والوليد الفاسق وذلك الإجتهاد الجامع للشروط فى البيعة ليزيد ومن أشار بها وسعى فيها أو رضيها وما لا يحصى.. والله ما قال قائلهم ذلك نصحاً لله ولرسوله اللهم إلا مغفل لا يدرى ما يخرج من رأسه قد سلم مقدمات وغذا لحمه وعروقه التقليد وعوّد جسمه ما اعتاد فصار بذلك غذاؤه ثم أخذ يتجاسر فى البناء على ذلك كنظائر لها فلما يخلو منها أحد وإن اختلفت مكانتها فى الدين غايتة أن الورع يتحرز من الرضا بتلك الطوام فمن غاب عن المعصية ثم رضيها كان كمن حضرها...

الرد على المشككين فى خلافة الأمامين والمهاجرين للصحابة الأوائل

الفصل الثانى
خلافة أبى بكر الصديق
(١٣هـ - ٦٣٤م)

* تمهيد.
* اجتماع خلافة أبو بكر
* خطبة أبى بكر: مغزاها، وصداها عند الشيعة.
* الاجماع على بيعة أبى بكر.

(٢)
خلافة أبى بكر الصديق
(١٣هـ - ٦٣٤م)

• تمهيد:

بينا فى إجمال خلال الفصل السابق أظهر الملامح التى يتميز بها عصر الرسول ﷺ من الناحية السياسية، وألقينا الضوء على المزايا السياسية التى كان يتمتع بها، فوضح لنا ما كان يتبعه فى شأن قيادة المسلمين. لقد أحسن ﷺ «ربط نظامه السياسى، وطالما كانت صورة الحكم التى وضعها باقية فى عهد الخلفاء، فقد ظلت هذه الحكومة واحدة تماماً، وكانت حكومة جيدة»[(١)].

وسنعرض فى هذا الفصل موقف المسلمين من موضوع الخلافة أثناء اجتماع السقيفة الذى عد من أخطر الاجتماعات السياسية حيث وضعت فيه الأسس لنظرية الخلافة عند أهل السنة. ثم نبين كيف انتقلت الخلافة إلى أبى بكر بعد وفاة الرسول ﷺ، وموقف أهل السنة والشيعة من الصاحب الأول، وظهور نظرية الإجماع عند أهل السنة كدليل على ثبوت الإمامة عن طريق الاختيار - لا النص - لأنه ثبت عندهم أن خلافة أبى بكر كانت صحيحة شرعية.

اجتماع السقيفة:

كان خبر انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى فجيعة كبرى اشتدت وطأتها على نفوس المسلمين وأصابتهم بالذهول حتى أن عمر بن الخطاب نفسه لم يصدق لأول وهلة ووقف يهدد الناقلين للخبر ويتوعدهم بقوله: «ما مات محمد ولا يموت حتى يقطع أيدى رجال وأرجلهم»[(٢)]. ومن ملامح صورة المسلمين التى تثير انتباه الباحث، تلك التى تنقلها لنا السيدة عائشة فى وصفها لحال المسلمين فتقول: «أخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد الغد

---

(١) روسو: العقد الاجتماعى. ص٢٣٢.

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة. جـ ٣، ص١٣٤.

وخلط آخرون، ولاثوا الكلام بغير بيان». ولم يقف المسلمون على الحقيقة إلا بالقول المأثور لأبي بكر الذى أعلنه مدوياً فأصاب الحقيقة: «من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حى لا يموت»، وقد اعتبر أهل السنة هذه الصيحة من مآثر أبى بكر التى انفرد بها لأنه أدخل السكينة على قلوب المسلمين فى هذا الموقف العصيب وتنبه إلى الحقيقة قبل غيره من الصحابة. وقد تلقف الناس الآية التى تلاها أبو بكر مرددين لها لكى تدخل الطمأنينة على نفوسهم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[1].

ثم ظهرت الحاجة إلى البحث فيمن يلى الأمر بعد الرسول صلوات الله عليه، وهرع المسلمون دون إبطاء إلى اجتماع السقيفة للتشاور والنظر.

ولكن الإسراع إلى الاجتماع فى السقيفة كان موضع تعليق بواسطة الشيعة لأن المجتمعين تركوا أمر تجهيز الرسول ﷺ وتوفروا على البيعة وما يتصل بها. يقول القاضى عبد الجبار (٤١٥ هـ - ١٠٢٤م) دفاعا عنهم: «وكان للقوم عذر فى المبادرة إلى البيعة، لأنهم خافوا من التأخر فتنة عظيمة»[2]. واتكلوا فى أمر رسول الله ﷺ على على بن أبى طالب وغيره من أهل البيت. وقد اتخذ أهل السنة بعد هذا من واقع الاسراع فى البيعة للخلافة دليلا على وجوب الخلافة وأهمية هذا المنصب بتصريف شئون المسلمين.

اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة أول ما اجتمعوا حيث طلب سعد ابن عبادة الأمر لنفسه، وسرعان ما لحقهم المهاجرون إلى هذا الاجتماع ودارت المناقشات بينهما على من له الحق فى تولى الخلافة بعد الرسول ﷺ. وكانت نظرية الأنصار كما وردت على لسان سعد بن عبادة أن لهم سابقة فى الجهاد ورفعه شأن الدين والدفاع عن الرسول ﷺ، بينما عجز المهاجرون من وجهة نظرهم عن منع الإيذاء عنه وقصروا فى نصرته وهو منهم ومنشأ بينهم.

أما رد المهاجرين فقد تناوله أبو بكر حيث دافع عنهم من حيث أنهم أول من صدق رسول الله ﷺ وصبروا معه على الشدة والبلاء، مع اعترافه بفضل الأنصار لما قاموا به من دور هام فى نصر الدعوة الإسلامية وحماية صاحبها صلوات الله عليه. وقال أبو بكر:

(١) الآية رقم ١٤٤ من سورة آل عمران.

(٢) القاضى عبد الجبار: المغنى جـ ٢٠، القسم الأول. ص٢٨٦.

«نحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتون بمشورة ولا نقضى دونكم الأمور». أما خطاب عمر بن الخطاب فكان أشد لهجة حيث أصر على أنه لا يبغى أن يتولى الأمر أحد من غير المهاجرين.

فلما رأى أبو بكر احتداد المناقشات وظهور الخلاف سافراً، صرح بحديث القرشية ووقف طالباً قيام المسلمين للاختيار بين عمر بن الخطاب أو أبى عبيدة بن الجراح. وكما كان له الفضل قبل ذلك فى إدخال الطمأنينة على قلوب المسلمين حينما أكد وفاة الرسول ﷺ، كما يرى الباقلانى (٤٠٣هـ - ١٠١٢م)، فقد ظهر فضله للمرة الثانية فى حسم الخلاف بين المهاجرين والأنصار. ولكن قام الاثنان - عمر وأبو عبيدة - طالبين من أبى بكر أن يبسط يده ليبايعانه لأنه أفضل المهاجرين وثانى اثنين فى الغار وخليفة رسول الله ﷺ عليه الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين، فتابعهما قيس بن سعد - من الأنصار - ليبايع أبا بكر فكان أولهم، فقبل الأنصار مشورته وتتابعوا عن طيب خاطر للمبايعة، وكانت دعامة موقفه ما قاله لهم: كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم».

وهكذا امتثل الأنصار لدعوة أبى عبيدة حين اعترف بفضل الأنصار من حيث أنهم أول من نصر وآزر فلا يصح أن يكونوا أول من يبدل ويغير. ولم يتخلف أحد عن بيعة أبى بكر من الأنصار سوى سعد بن عبادة وهو الذى يمثل المعارضة العنيفة فى الاجتماع وكان يطلب استخلافه الأمر بدلا من أبى بكر. أما تأخر على بن أبى طالب عن البيعة فسنبحثه فى موضعه.

هذه هى ملامح اجتماع السقيفة التى تكاد المصادر السنية تتفق فى إيراد تفاصيلها. ومن المهم أن نعرض الملاحظات التى نستطيع أن نستقيها من اجتماع السقيفة فيما يلى:

أولا: أنه أول اختلاف يحدث بين المسلمين عقب انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، فهو كما يصفه الإمام أبو الحسن الأشعرى (٣٣٠هـ - ٩٤١م) بأنه: «أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم ﷺ اختلافهم فى الإمامة»[1]. ولكن الاختلاف هنا كان سياسياً محضاً وليس دينياً، ولم يتسع لأكثر مما حدث وبيناه آنفاً إذ سرعان ما عاد عامل الدين بسلطانه القوى فأدى دوره فى تهدئة النفوس والمبايعة لأبى بكر.

ثانيا: تمت البيعة لأبى بكر بالاجماع- فيما عدا سعد بن عبادة - الذى كان يطلب الولاية لنفسه، ولهذا يقول القاضى عبد الجبار: «وقد قال شيخنا أبو على ما يدل على أن خلاف سعد

(١) أبو الحسن الأشعرى: مقالات الإسلاميين، ج١، ص٣١.

لا يؤثر، أنه إنما خالف على سبيل طلب الإمامة لنفسه وقد صح كونه مبطلا فى ذلك»[١].

ثالثا: لم يتم الأمر لأبى بكر بالعنف أو الإكراه وإنما كان نتيجة مناقشة مفتوحة بين المهاجرين والأنصار، وأتيحت الفرصة كاملة لكلا الفريقين ليدلى برأية فى حرية تامة. ويصف الأستاذ الدكتور الريس هذا الاجتماع بأنه كان شبيها بجمعية وطنية أو تأسيسية فوضها المسلمون للبحث فى مصير الأمة للأجيال المقبلة، وفى رأية أن هذا الاجتماع بما حوى من أسس جوهرية لمساجلات حرة للرأي جعل كاتبا غربياً يشهد بأنه «يذكرّ إلى حد بعيد بمؤتمر سياسى دارت فيه المناقشات وفقاً للأساليب الحديثة»[٢].

رابعا: أن البيعة تمت أولا فى اجتماع السقيفة بحضور خاصة المسلمين ثم كانت بيعة العامة فى اليوم التالى على المنبر، ولعل هذه الطريقة هى أساس نظرية أهل السنة فى إتمام البيعة بواسطة أهل الحل والعقد أى خاصة المسلمين، وهم ذوى الدين والعلم والرأى.

خامسا: اتسمت المناقشات بطابع فريد من نوعه لا نجد له شبيهاً فى المجالس السياسية للمجتمعات التى بلغت أرقى درجات الرقى فى العصر الحديث، فها هى المعارضة بما تمثله من مخالفة فى الرأى لا تلبث أن تخضع فى سهولة ويسر لا حساس الاخوة فى الدين وتمتثل لمبادئة فيعترف كل منهما بأفضال الطرف الآخر بالرغم من الاختلاف فى الرأى، كما فى قول أبى بكر واصفاً الأنصار: «أنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام» أو قول ابن الجراح: «أنتم أول من نصر وآزر..» وهكذا قدموا لنا نموذجاً مثالياً للسلوك فى المجال السياسى.

صحة خلافة أبى بكر:

اتفق الشيعة علي أن رسول ﷺ نص على علىّ بن أبى طالب بعده، وأن أبا بكر أخذ الخلافة منه بغير حق، وقد حاولوا البرهان على نظريتهم بآيات قرآنية وأحاديث نبوية أولوها لتخدم هذا المعنى. ولم يقف أهل السنة مكتوفى اليدين أمام الحجج الشيعية بل قابلوها بما يضاهيها من أسانيد من هذا القبيل لإثبات صحة إمامة أبى بكر وتوليه الخلافة برضى المسلمين كافة وانعقاد الإجماع على بيعته.

ونذكر أولا تلك الواقعة المشهورة، وهى طلب النبى ﷺ أثناء مرضه من أبى بكر أن يصلى بالناس، فاعتبر أهل السنة إمامة الصلاة إشارة إلى انتقال الخلافة إلى أبى بكر بعده

(١) القاضى عبدالجبار: المغنى، جـ ٢٠، القسم الأول، ص٢٨١.

(٢) الدكتور الريس: النظريات السياسية الإسلامية: ص٢٥.

ﷺ، ولا غرو فقد اتفق المسلمون كافة - أهل السنة والشيعة - على أن الصلاة هى أهم مطالب الدين وأول أركانه العملية، بيد أن أهل السنة قاسوا الإمامة الكبرى - وهى الخلافة - على الإمامة الصغرى، وهى الصلاة، إذ ليس فى أركان الإسلام بعد التوحيد أفضل من الصلاة، ولهذا فإن أمر النبى ﷺ لأبى بكر بأن يصلى بالناس فى مرضه، وقيامه بالصلاة خلفه كان قصداً من الرسول ﷺ لتنبيه المسلمين إلى أن «الصديق أحق بالرياسة فى الدين بعده وأنه لا مطمع لأحد بعده غير الصديق»[1].

وقد ربط فكر أهل السنة بين الحديث الخاص بإمامة الصلاة وبين خلافة أبى بكر لأن قيامه بالإمامة الصغرى جعلته صالحاً ليكون صاحب الخلافة فالحديث يرتب من هم أكثر استحقاقا لإمامة الصلاة حسب الترتيب الذى وضعه رسول الله ﷺ بحديثه: «إذا كنتم ثلاثة فليؤمكم أكثركم قرآنا وأقرؤكم لكتاب الله فإن كنتم فى القرآن سواء فأقدمكم هجرة فإن كنتم فى الهجرة سواء فأعلمكم بالسنة فإن كنتم فى السنة سواء فأكبركم سناً». وعلى هذا فإن إمامة أبى بكر للمسلمين فى الصلاة حال حياة النبى ﷺ لها دلالتها فى جمعه للفضائل التى تؤهل لإمامة الصلاة كما وضعها الرسول ﷺ، فظهرت العبارة على لسان المسلمين فى ذلك الوقت قائلين: «اختاره رسول الله لديننا فاخترناه لدنيانا»، أو قولهم: «أولا، رسول الله ﷺ صلاتنا فزكاتنا تبع لصلاتنا وهما معظما أمر الدين».

وأصبحت إمامة أبى بكر للصلاة إحدى الوقائع الهامة التى يتعلق بها أهل السنة لإثبات حقه وصلاحيته للخلافة، لأنه لم يظهر معارض واحد حينئذ بين المسلمين يطلب منه أن يتنحى عن إمامة الصلاة «ولا قال رجل من الأنصار منا مصل ومنكم مصل كما قالوا منا أمير ومنكم أمير فإن كان الناس مع كثرة الخير والشر فيهم تركوا مجاراته ومدافعته فى قيامه مقام رسول الله ﷺ لتبريزه عليهم عند أنفسهم لكفا بذلك دليلا على الفضل ومحجة على الاستحقاق»[2].

وقد تركت إمامة الصلاة أثرها فى مفهوم الإمام الكبري فارتبطت فكرة الخلافة بالدين لأن الصلاة أهم مطالبة فوجب أن يكون الخليفة متوليا لشئون الشريعة، فتعريف أهل السنة للإمامة أنها «موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا»[3].

---

(١) أبو بكر محمد بن حاتم بن رنجويه: الروض الأنيض فى إثبات إمامة أبى بكر الصديق. ورقة رقم ٣٩ مخطوط محرر سنة ٧٤٣هـ ١٣٤٢م (مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٣٦٠٣جـ).

(٢) ابن نجويه: الروض الأنيق. ورقة ٣٩.

(٣) الماردى: الأحكام السلطانية. ص٢.

ولئن ذهب أهل السنة بصفة عامة إلى أن خلافة أبى بكر تمت بالاختيار، إلا أن البعض منهم استدل على أن هناك نصاً على إمامته سواء أكان خفياً أم جلياً، ويبدو أن هذا حدث كرد فعل لدعوى الشيعة بالقول بالنص على على بن أبى طالب فقد سئل الحسن البصرى (١١٠هـ - ٧٢٨م) عما إذا كان الرسول ﷺ أوصى بالخلافة لأبى بكر بعده فقال: «أى والذى لا إله إلا هو استخلفه وهو كان أعلم بالله تعالى واتقى لله تعالى من أن يتوثب عليهم لو لم يأمره»[1]. كما يستدل بعض أهل السنة بما كان من امرأة أتت النبى ﷺ فكلمته فى شىء فأمرها أن ترجع إليه فقالت: «يا رسول الله أرأيت إن جئت ولم أجدك - كأنها تريد الموت - قال: إن لم تجدينى فأت أبابكر»[2]. وقد وجد ابن حزم (٤٥٦هـ - ١٠٦٣م) فى هذا الخبر نصاً جلياً على استخلاف أبى بكر، ويضيف إليه نصين آخرين براهما دليلا على الاستخلاف. أولهما: إجماع المسلمين الأوائل جميعاً على تسميتهم أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ ومعنى الخليفة فى اللغة هوالذى يستخلفه لا الذى يخلفه دون أن يستخلفه، ويرى ابن حزم أن الذين سموه بهذا الاسم هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[3] وقد اتفقوا مع إخوانهم الأنصار على اطلاق هذا الاسم على أبى بكر، وهم لم يقصدوا به خلافته على الصلاة لسببين: أولهما لأن أبا بكر لا يستحق هذا الاسم فى حياة الرسول ﷺ والسبب الثانى أنه لم يستحق أحد ممن استخلفه الرسول ﷺ فى حياته كعلى فى غزوة تبوك وابن أم مكتوم فى غزوة الخندق وعثمان بن عفان فى غزوة ذات الرقاع وغيرهم، إذ لم يسم أحد منهم خليفة رسول الله «فصح يقيناً بالضرورة التى لا محيد عنها أنها للخلافة»[4].

أما النص الثانى فهو قول النبى ﷺ للسيدة عائشة أثناء مرضه: «لقد هممت أن أبعث إلى ابيك وأخيك فأكتب كتاباً وأعهد عهداً لكيلا يقول قائل: أناأحق أو يتمنى متمن ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[5].

ويذهب الرازى إلى أن أصحاب الحديث وجدوا فى طلب الرسول ﷺ إحضار داوة وقرطاس ليكتب لأبى بكر - نصاً جلياً فى إمامته[6].

---

(١) ابن قتيبة: الإمامية والسياسة. جـ١. ص٤. (٢) المصدر السابق. ص٥.

(٣) الآية رقم ٨ من سورة الحشر. (٤) ابن حزم: الفصل. جـ٤. ص١٠٨.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

(٦) أبو عبد الله محمد بن الحسين الخطيب الرازى. نهاية العقول فى دراية الأصول. مخطوط ورقة ٢٤٤.

أما الأشعرى فإنه لم ير النص على خلافة أبى بكر وإنما يورد الدلائل على صحة إمامته من واقع الكتاب. فالآيات القرآنية التى تخ... ال سول فى سورة «براءة» فى مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَ..ةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾(١) إلى غيرها من الآيات التى تحض على القتال بواسطة داع يدعو المسلمين بعد الرسول ﷺ. وقد اختلف المفسرون فى تسمية القوم الذين ذكرتهم هذه الآيات فمنهم من يرى أن القصد هم فارس والروم وآخرون يرون أنهم أهل اليمامة ويرى الأشعرى إنه إن صح هذا التفسير أو ذاك فإن أبا بكر حارب كلا الفريقين وجاءت حروبه لهم بعد النبى ﷺ، فيقول: «فإن كانوا أهل اليمامة هو الروم فقد قاتلهم أبو بكر رضى الله عنه وفى ذلك إيجاب إمامته. وإن كانوا فارس فقد قوتلوا فى أيامه وفرغ عمر منهم من بعده فقد وجبت إمامة عمر وإذا وجبت إمامة عمر وجبت إمامة أبى بكر رضى الله عنهما لأن أبا بكر عقدها له»(٢).

أما الكتاب الذى كان ينوى كتابته الرسول ﷺ فقد تعددت الآراء حوله واختلفت وجهات النظر. ويتناقل أهل السنة ما جاء على لسان على بن أبى طالب حين رفض طلب العباس أن يسأل الرسول ﷺ قبل موته فيمن يلى الأمر إذ قال على: «أنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطينا الناس بعد وإنى والله لا أسألها رسول الله ﷺ»(٣). ولعل فى محاولة أهل السنة إثبات هذه الواقعة يحمل فى طياته نفيهم القاطع لوجود النص على إمامة على وبالتالى تقويض أساس المذهب الشيعى فى الإمامة وإحلال نظريتهم فى القول باختيار الإمام محلها.

وتنقل لنا مصادر أهل السنة أنه حدث اختلاف أثناء مرض الرسول ﷺ فى وجوب تنفيذ رغبة الرسول ﷺ أو الامتناع عن ذلك إشفاقاً عليه من المعاناة فى كتابة هذا الكتاب وهو طريح الفراش، ولسان حالهم يقول: «عندكم القرآن حسبنا كتاب الله». فلما زاد اختلافهم ولغطهم أمرهم الرسول ﷺ بمغادرة المكان. ويعلق على ذلك ابن عباس بقوله: «إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم»(٤).

---

(١) الآية رقم ٨٣ من سورة التوبة.

(٢) الأشعرى: اللمع ص ١٨٤ كما استشهد بهذه الآيات أيضاً الباقلانى فى كتابه (الانصاف) ص ٥٦ و٦٧، ويتفق معهما فى التفسير القاضى عبد الجبار فى كتابه (المغنى). جـ٢٠. القسم الأول ص٣٢٤ و٣٢٥.

(٣) ابن هشام: السيرة. القسم الأول ص ٦٥٤. صحيح البخارى: جـ٣، ص٦٧.

(٤) صحيح البخارى: جـ٣، ص٦٠.

ويستنتج ابن خلدون من هذه الحادثة أن أمر الإمامة لم يكن مهماً لأن الإمامة من المصالح العامة المفوضة إلى المسلمين كافة ولم يستخلف فيها الرسول ﷺ لأنها أقل أهمية من الصلاة، فإن إمامة الصلاة تأتى فى المرتبة الأولى قبل الاستخلاف، ولهذا السبب استدل الصحابة فى شأن أبى بكر باستخلافه فى الصلاة على استخلافه فى الإمامة بقولهم: «ارتضاه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟» ويؤكد ابن خلدون ذلك بقوله: «فلولا أن الصلاة أرفع شأناً وأكثر خطراً من السياسة لما صح القياس»[1].

أما ابن تيمية فقد زاد على ذلك بما يراه من أن الإمامة ليست أهم مطالب الدين، بخلاف ما يراه الشيعة،و يقيم رأيه على عدة براهين منها:

أولا: أن الإيمان بالله ورسوله ﷺ فى كل زمان ومكان أهم من مسألة الإمامة ذلك أن الرسول ﷺ قد أمر بأن يقاتل الكفار حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

ثانياً: لم يذكر الرسول ﷺ الإمامة لأحد من الناس حين كان يدعوهم إلى الإسلام.

ثالثاً: إن كانت كذلك - أى كما يعتقد الشيعة - فكان من الواجب على الرسول أن يبينها كما بين للمسلمين أمور الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الواجبات الدينية، وكما عين أمر الإيمان بالله وتوحيده واليوم الآخر.

رابعاً: أن أهم أمر فى الدين هو الصلاة والجهاد، وليست الإمارة، لكثرة الآيات القرآنية والأحاديث المتعلقة بهما والتى تحث عليهما وتعتبر هما أهم الفروض على الإطلاق[2].

ويقول ابن تيمية: «أن النبى ﷺ لما رأى الشك قد وقع علم أن الكتاب لا يرفع الشك فلم يبق فيه فائدة، وعلم أن الله يجمعهم على ما عزم عليه»[3].

كما نجد تفسيراً حديثاً لسبب عدم استخلاف الرسول ﷺ يرجعه إلى خشيته صلوات الله عليه من ظن المسلمين أن من استخلفه قد استمد الأمر على المسلمين بوحى من الله[4].

(١) مقدمة ابن خلدون: ص٢١٩.

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة. جـ١، ص١٦ وما بعدها، والسياسة الشرعية: ص٢٠ وما بعدها.

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة. ج٣١، ص١٣٥.

(٤) دكتور محمد حسين هيكل: الفاروق عمر. ج١، ص٨٩.

وقد فند الدكتور الريس آراء اثنين من المستشرقين هما فيرث وأرنولد إذ يرى الأول أن مرض الرسول ﷺ هو الذى حال دون كتابته ذلك الكتاب بينما يذهب الثانى[١] إلى أن السبب يرجع إلى عدم رغبة الرسول مخالفة التقاليد العربية التى كانت متبعة فى عصره ومنها أن القبيلة كانت تترك حرة لتختار من يحميها، وينقض الدكتور الريس هذين الاستنتاجين لسببين:

الأول: لم يقم مانع من خلال السنين السابقة على وفاة الرسول ﷺ لكتابة ذلك الكتاب كما لم يكن المرض من الشدة بحيث يعوقه عن الكتابة فيما لو أراد.

الثانى: لم يكن هناك تقليد واحد معين للقبائل العربية قبل الإسلام، بل اختلفوا فى تقاليدهم وعاداتهم فضلا عن أن الإسلام قد محاها وحلت الرابطة الدينية محلها.

وبمعارضة هذين الرأيين، يقيم الدكتور الريس رأيه على أساس جديد، وهو أن هناك حكمة من عدم تقييد الجماعة الإسلامية بقوانين جامدة لا تتفق مع التطورات إذ أن المشرع «حرص على أن تظل القوانين الإسلامية مرنة حتى تعطى مرونتها الفرصة للعقل للتفكير وللجماعة أن تشكل نظمها وأوضاعها بحسب المصالح المتعددة»[٢]. وسنجد عند تناولنا لهذه الناحية من موضوع الإمامة - أى نقض فكرة النص التى ذهب إليها الشيعة - أن أهل السنة تخلصوا من كل ما من شأنه أن يجعل من هذا الموضوع قيداً للمسلمين كما فعل الشيعة بعقائدهم عن أمثال فكرة النص أو الوصية أو العصمة.

وتفق الشيخ أبو زهرة أيضاً فيما ذهب إليه الدكتور الريس لأنه الإسلام فى رأيه يقوم على أصول ثلاثة هى: العدالة والشورى والطاعة فى طاعة الله، وبذلك استوفت الشريعة الدعائم التى يقوم عليها الحكم الإسلامى، ولا ضرورة لتعيين النبى ﷺ طريقاً محدداً لا ختلاف الشعوب ونظمها[٣].

خطبة ابى بكر: مغزاها وصداها عند الشيعة:

اشتملت خطبة أبى بكر بوجه عام آيات بالغة من الحكمة وسداد الرأى وتمسك بالدين وحث على الجهاد فى سبيل الله، وإرشاد المسلمين إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم

(١) T.W. Arnold Caliphate p.20

(٢) دكتور الريس: النظريات السياسية. ص٢١.

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة: المذاهب الإسلامية. ص٣٨ وما بعدها.

ويعنينا أن نقتطف منها القواعد الأساسية التى قيد أبو بكر بها نفسه، فقد اتخذ من رسول الله ﷺ قدوة. وقد اتضح لنا من الفصل السابق أن المسلمين الأوائل كانوا يبايعونه ﷺ على المبادىء المحددة التى ذكرناها، مع حرصه صلوات الله عليه على طلب الشورى فى معالجة شئون دنياهم فيما لم يخبر به الوحى، وسنلاحظ هنا أن أبا بكر تعهد فى خطبته على اتباع نفس المنهج لا يحيد عنه قيد أنملة.

ومما قاله فى الخطبة أنه متبع رسول الله ﷺ وليس بمبتدع، ولا غرو، فهو الذى وقف معرضاً كل من حاولوا صرفه عن حروب الردة فأعلن أنه ملزم بتطبيق قواعد الإسلام كما تلقاها من الرسول ﷺ، وأعلن ضرورة تحصيل الزكاة لأنها ركن من أركان الدين ثم تساءل: «أرأيت لو سألوا ترك الصلاة؟ أرأيت لو سألوا ترك الصيام؟ أرأيت لو سألوا ترك الحج؟ فإذاً لا تبقى عروة من عرى الإسلام إلا انحلت»[1].

وقد استشهد الدكتور السنهورى بهذه الفقرة من خطبة أبى بكر لاثبات أن الخليفة ليس مطلق السلطة وإنما هو مقيد تقييداً شديداً بقواعد الشريعة[2].

كما طالب أبو بكر المسلمين فى سياق خطبته بمصارحته ونقده ومعارضته إذا ما انحرف عن المنهج القويم بمثل قوله: «إن استقمت فتابعونى وإن زغت فقوّمونى»، وأعلن أنه لا يفرق بين الأقوياء والضعفاء من المسلمين فإن الجميع عنده سواء من حيث ضرورة حصولهم على الحقوق المشروعة دون النظر الى الفوارق الاجتماعية بينهم. وأمرهم بالطاعة طالما أنه هو نفسه فى طاعة الله ورسوله ﷺ، فإذا عصى الله ورسوله فلا طاعة له عليهم، وهذا يبين كما نرى حرصه على اتباع السنة بحذافيرها، ولكنه من وجهة نظر الاستشراق عد متسما بسمة المحافظة[3]، وهو تعبير يدل على التأثر بروح العصر وعدم فهم تأثير الإيمان القوى فى الصاحب الأول.

أما الشيعة فكان لهم مع الخطبة شأن آخر إذ التقطوا عبارات معينة منها لمحاولة الطعن فى إمامته وإظهار عدم استحقاقه للخلافة، مما دفع مفكرى أهل السنة للقيام بالدفاع عنه فى كل ما أثاره الشيعة من مطاعن.

---

(١) الماوردى: الأحكام السلطانية. ص٥٨.

(٢) Le Califat, A. Sanhoury

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: المجلد الأول. مادة أبو بكر ص٣١١، خطبة أبى بكر: المصدر: ابن هشام، السيرة النبوية: القسم الأول. ص٦٦١.

يذكر الباقلانى أن الشيعة تردد بأن رسول الله ﷺ كان ممتحنا بأبى بكر على نفاق له وتقية منه، ويعارض هذه الفكرة بما يراه من أن الرسول ﷺ لعلمه يسبق أبى بكر وهجرته وعلمه للأحاديث المروية الكثيرة عن الصفات التى يجب أن تتوافر فيمن يؤم المسلمين، فقد قدم أبا بكر مصداقاً لحديثه ﷺ: «من تقدم على قوم من المسلمين وهو يرى أن فيهم من هو أفضل منه، فقد خان الله ورسوله والمسلمين». ويؤكد الباقلانى تقديم الرسول ﷺ لأبى بكر فى الصلاة عند مرضه وأنه لم يدفعه عن موضعه أو ينكر تقديمه كما يردد الشيعة فى أخبارهم التى تعد من باب التمنى إلى جانب أنها أخبار آحاد التى ينبغى التحقق من مصادرها ودحضها بما يعرضها من أخبار متواترة. فالحقيقة أن لأبى بكر عدة فضائل امتاز بها، منها أنه ذكر المسلمين بالآيات القرآنية التى تخبر بموت الرسول ﷺ فجمع المسلمين بعد أن كادوا يفترقون. وهو الذى أنفذ جيش أسامة وخالف بذلك الخائفين على من فى هذا الجيش من نقباء المهاجرين والأنصار حيث رد على عمر بقوله: «أيوليه رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أصرفه؟» فكان فى هذا التصرف متمسكاً بالسنة التى خطها الرسول دون الخوف من المخاطرة. وكذلك محاربته لأهل الردة حين سألوه الصلح على ترك الزكاة فخرج لمناضلتهم بنفسه وبمن معه.

ولا يقلل من شأن أبى بكر قوله: «إن استقمت فاتبعونى وإن ملت فقومونى» كما لا يقلل هذا الطلب من شأنه ولا يخلع عنه صفة الإمامة، بعكس ما يراه الشيعة، لأنهم يستمدون معارضتهم له بوحى من عقيدتهم فى عصمة الإمام، والإمام لا ينبغى أن يكون معصوماً.

وإذا قال الشيعة أن أبا بكر استحل الأمر لنفسه بالرغم من اعترافه بأن له شيطاناً يعتريه فإن هذا أيضاً لا يقلل من استحقاقه للخلافة لأن الآيات القرآنية مليئة بذكر الشيطان، وإقرار الرسول ﷺ بأن ما من أحد إلا وله شيطان، وأن أبا بكر باعترافه بوسوسة الشيطان يطلب من المسلمين أن يتقوا وقت غضبه الذى يأتيه بفعل الشيطان وبسببه.

ويفند الباقلانى سبب قول أبى بكر: «وليتكم ولست بخيركم» على أوجه عدة: منها أنه ليس بخيرهم قبيلة وعشيرة، أو يجوز عليه الخطأ والسهو ومما يجوز عليهم فهو ليس معصوماً. أو أن الله هو الذى فضله عليهم وهو ليس بخيرهم، وأخيراً قد يقصد أن هناك من هو أفضل منه ولكن الإجماع انعقد عليه هو «لكى يدلهم على جواز إمامة المفضول عند عارض يمنع من نصيب الفاضل»[1].

---

(١) الباقلانى: التمهيد. ص١٩٥.

أما قوله: «أقيلوني، أقيلوني» فدليل على عزوفه عن الخلافة وعدم السرور بها لأنه إذا أظهر السرور قد يلقى فى ظنهم السوء. وإذا طعن الشيعة فى أبى بكر استناداً على قول عمر: «إلا أن بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى الله شرها» فمردود أيضاً لأن عمر كان يعتقد أن أبا بكر هو المبرز بالفضل على المسلمين جميعاً حينئذ وهو يستحقها لهذا السبب «وأن من بعده متقاربون فى الرتبة والفضل لا يستحقونها على ذلك الوجه ولذلك جعلها شورى فى ستة»[1].

أما القاضى عبد الجبار فقد أورد دفاع شيخه أبى على، إذ يرى الثانى أن الفلتة ليست هى الذلة والخطيئة وإنما تعنى البغتة من غير روية أو مشاورة. ويقصد عمر بقوله: «من عاد إلى مثلها فاقتلوه» أن من عاد إلى الطريقة التى تمت بها البيعة لأبى بكر من غير مشاورة و عذر ولا ضرورة ثم طلب من المسلمين البيعة فينبغى قتله[2]، فالواقع أن البيعة يجب أن تتم بعد مشاورة وإتفاق دون استبداد، أما إذا بايع رجل الآخر بغير رجوع إلى الجماعة الإسلامية فإن معنى هذا تظاهر منهما بشق عصا الطاعة والخروج عن الجماعة، ومع ارتكابهما هذه الفعلة يحق قتلهما[3].

الإجماع على بيعة أبى بكر:

كان لتأخر على عن بيعة أبى بكر مثار بحث ومجادلة بواسطة أهل السنة والشيعة، إلا أن مصادر أهل السنة كافة تجمع على قيامة بالبيعة لأبى بكر والترحيب بها بمثل قوله: «والله لا نقيلك ولا نستقيلك أبداً، قد قدمك رسول الله ﷺ لتوحيد ديننا فمن ذا الذى يؤخرك لتوجيه دنيانا؟»، أما الشيعة فيذهبون إلى أن بيعته لأبى بكر كانت على تقيّة.

وقد أثبت الإمام الأشعرى صحة إمامة أبى بكر استناداً على إجماع المسلمين كافة على مبايعته وخلافته، فهم - كما يقسمهم الأشعرى - ثلاث أقسام: قسم ينادى بإمامة علىّ، وآخر يقول بإمامة العباس، وثالث يرى إمامة أبى بكر. ولكن الثابت أن علياً والعباس بايعا أبا بكر وانقادا له وقالا له: «يا خليفة رسول الله»[4] ولا يجوز الادعاء

---

(١) الباقلانى: التمهيد. ص١٩٦.

(٢) القاضى عبدالجبار: المغنى جـ ٢٠. القسم الأول. ص٣٤٠ (وقد ضمن هذا الكتاب أيضاً دفاعه عن أبى بكر للشبهات التى أثارها الشيعة. من ص ٣٣٨ إلى ص ٣٤١).

(٣) تعليقة رقم (١) من هامش كتاب السيرة النبوية لابن هشام - القسم الأول ص٦٥٨.

(٤) الأشعرى: اللمع. ص١٨٤.

بأن باطنهما يختلف عن ظاهرهما لأن جواز ذلك يقضى على مستند الإجماع. إلا أن الإمام الأشعرى بوضعه لهذا التقسيم الذى طرحه للمناقشة قد أوضح اختلاف الفرق كما هو ظاهر فى عصره، ولكن الباقلانى اهتم بتفنيد الأخبار الواردة فى تخلف علىّ، فهو يرى أنها وردت وروداً ضعيفاً وشاذا وتعارضها أخبار كثيرة عن قيامة بالبيعة لأنه ما من أحد روى تأخر علىّ عن البيعة إلا وعاد فروى رجوعه إليها.

ويحرص القاضى عبد الجبار على إظهار الأخبار التى تؤكد مدح علىّ بن أبى طالب لأبى بكر، منها آخر خطبة له يقول فيها: «ألا وخير هذه الأمة بعد نبيها، أبو بكر وعمر، ثم الله أعلم بالخير أين هو»[١]. أما من تأخر عن البيعة كسلمان الفارسى وأبى ذر وحذيفة والمقداد وعمار، فإنهم عادوا إلى مبايعته وبذلك حصل الاجماع.

ومع تأكيد أهل السنة لاتمام الاجماع لبيعة أبى بكر، فإنهم يستدلون بواسطة الاجماع هذا على أن النقل تواتر عن السلف والصحابة «أنهم كانوا يتدينون فى باب الإمامة أن لا نص فيها»[٢] وإنما تتم بالاختيار. يقول إمام الحرمين (٤٧٨هـ - ١٠٨٥م): «وإن أردنا أن نعتمد إثبات الاختيار من غير التفات إلى إبطال مذاهب مدعى النصوص اسندناه إلى الاجماع»[٣]، ولأن خلافة الخلفاء الراشدين تمت جميعها على أساس البيعة وكانت متقدمة على الإمامة ثم اتسقت الطاعة بعدها وبهذا «لم يبق إشكال على انعقاد الاجماع على الاختيار وبطلان المصير إلى ادعاء النص»[٤].

---

(١) القاضى عبد الجبار: المغنى. جـ٢٠. القسم الأول. ص٢٨٨.

(٢) المصدر السابق: ص٢٧٢.

(٣) غياث الأمم فى التياث الظلم للإمام الجوينى بتحقيق: د. فؤاد عبد المنعم ود. مصطفى حلمى. جـ١. دار الدعوة بالاسكندرية.

(٤) المصدر السابق.

الفصل الثالث
خلافة عُمَر بن الخطاب
(٢٤هـ - ٦٤٤م)

* تمهيد.
* عهد أبي بكر لعمر رضي الله عنهما.
* تفنيد اعتراضات الشيعة على إمامة عمر.
* موقف أهل السنة والشيعة من خلافة عمر.
* تفنيد ورد شيخ الإسلام ابن تيمية على:

الطعون الموجهة إلى خلافة عمر.

خلافة عمر بن الخطاب
(٢٤هـ - ٦٤٤م)

• تمهيد:

بحثنا فى الفصل السابق كيف أثبت أهل السنة صحة إمامة أبى بكر، وسنحاول فى هذا الفصل أن نبحث موقفهم فى الدفاع عن إمامة عمر ابن الخطاب، لأن الشيعة فى طعنهم فى صحابة الرسول ﷺ - باستثناء على بن أبى طالب - جمعوا بين الصاحبين فقدحوا فى إمامتهما معاً. وكذلك فعل الراوندية - وهم الذين تبرأوا من أبى بكر وعمر - ، ورأوا أن أحق الناس بالإمامة بعد الرسول ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب وأجازوا بيعة على لأن العباس أجازها بقوله: «هلم إلى أبايعك فلا يختلف عليك إثنان»[١].

لهذا اتجهت أبحاث مفكروا أهل السنة إلى إثبات إمامة الصاحبين للتسوية بينهما «ولأنه لا خلاف أن أبا بكر إذا صلح للإمامة وثبتت إمامته أن عمر مثله»[٢].

ولكن، ما السبب فى انتقال الخلافة إلى عمر بن الخطاب بالعهد بواسطة الصاحب الأول؟ وكيف أقر متكلموا أهل السنة ومن أتبع منهجهم فى الاستدلال هذه الوسيلة كأحد الطرق التى ثبتت بها الإمامة مستندين على انعقاد إجماع الصحابة على صحتها؟

هذا ما سنحاول عرضه خلال هذا الفصل.

عهد أبى بكر لعمر رضى الله عنهما:

تولى أبو بكر الخلافة عن طريق البيعة بعد المجادلات التى دارت فى اجتماع السقيفة. فلما أحس بدنو أجله دعى الصحابة وأفضى إليهم بما يجول فى خاطره، قال: «قد حضرت من قضاء الله ما ترون، وأنه لابد لكم من رجل يلى أمركم ويصلى بكم، ويقاتل عدوكم، ويقسّم فيأكم»[٣] إن الصديق تذكر ما حدث فى اجتماع السقيفة وخشى

(١) المسعودى. (٣٤٦هـ - ٩٥٧م). مروج الذهب: جـ٢، ص١٥٧.

(٢) القاضى عبد الجبار: المغنى. جـ ٢٠. القسم الثانى ص٣.

(٣) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة. ص١٩.

على المسلمين إذا تركهم دون وليّ من أن ينفرط عقد الجماعة بصورة أخطر مما تمت عقب وفاة الرسول ﷺ، لأن الاختلاف حينئذ كان محصوراً بين المهاجرين والأنصار، ولكن المسلمين في عهده انتشروا يجاهدون في العراق والشام، ويواجهون فارس والروم. فإذا استخلف «وجمع كلمة المسلمين على من استخلفه فقد اتقى ما يخشى»(١).

ويمثل هذه الكلمات التي عبّر بها أبو بكر عما يدور في نفسه، اعتمد أهل السنة فيما بعد أسس نظرياتهم في ضرورة تولي الإمام أمر المسلمين، أو بعبارة أخرى نظرية وجوب الإمامة سمعاً، استدلالا بالأمر الواقع أيام الخلافة الراشدة. فإن عبارة أبي بكر تتضمن أبرز المهام التي تناط بالإمام وهي:

أولا: أداء الصلاة، وهي الركن الجوهري في الإسلام، وقد بينا كيف كانت إمامة الصلاة هي أحد الاستدلالات التي أثبت بها أهل السنة صحة خلافة أبي بكر، ولا بأس من أن نسجل هنا حرص الصاحب الثاني على أدائها حتى ساعاته الأخيرة، إذا استجاب لنداء الصلاة وهو يقول: «نعم، لا حظ لامرىء في الإسلام إن أضاع الصلاة»، فصلى والجرح يثعب دما(٢).

ثانياً: قتال الأعداء والذود عن ديار المسلمين.

ثالثاً: تقسيم الغنائم تفادياً للمنازعات، والخصومات.

وقد ظلت هذه المهام إجمالا هي التي رسم حدودها أهل السنة قياساً على الأسس التي وضعت إبان الخلافة الأولى. يقول إمام الحرمين: «الإمامة رياسة تامة وزعامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا، متضمنها حفظ الحوزة، ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، وكف الجنف والحيف»(٣).

تفنيد اعتراضات الشيعة على إمامة عمر:

وقد طعن الشيعة في إمامة عمر بسبب عهد أبي بكر له. ولكن الباقلاني يتصدى لهذا الطعن فيوضح أن العهد تم بمحضر من الصحابة والمسلمين، فأقروه جميعاً وصوبوا رأيه، ولو كان ذلك خطأ في الدين لراجعوه فيه. والدليل على ذلك أن المراجعة انصرفت

(١) دكتور محمد حسين هيكل: الفاروق عمر. جـ١، ص٧٦.

(٢) ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب. ص٢١٧.

(٣) إمام الحرمين: غياث الأمم في التياث الظلم. بتحقيق د. فؤاد عبد المنعم ود. مصطفى حلمي جـ١، دار الدعوة اسكندرية.

إلى صفة من يعهد إليه بقول القائل: «أتولى علينا فظاً غليظاً؟»، ولم تكن منصبة على صحة العهد نفسه. فهم يجمعون على صحة العهد من الإمام إلى غيره، فالعهد ليس إذاً خطأ فى الدين لأن الأمة لن تجتمع فى عصر الصحابة - ولا فى غيره من العصور - على خطأ. ولهذا فإن عهد أبى بكر صحيح وهو يجرى مجرى العقد لعمر بن الخطاب، ولأن الإمام العدل - وهو شخص واحد ضمن الرعية - يصح له أن يبتدىء العقد لمن يصلح للإمامة، فكيف يحرم من هذا الحق لكونه إماماً؟

أما الاعتراض الثانى الذى يضعه الشيعة فهو تحريمهم للعهد من الإمام لغيره لموضع التهمة من العاهد وتجويز ميله إلى المعهود إليه وإيثاره لولايته. ولكن إمام المسلمين - وهو أبو بكر - كان ظاهر العدالة مشهوراً بها ولم تدل أفعاله على خيانة للأمة، بل كان منصفاً لها أيام ولايته، فلا يقبل أن يسلط عليهم بعد موته ظالما أو جاهلاً بأمورهم، بل أن اتهام المسلمين لإمامهم الذى عرفوه بالصلاح والتقوى بمثل هذا الاتهام يعود عليهم بالذنب الذى يوجب عليهم التوبة والاستغفار.

أما الدليل الذى يراه الباقلانى على إثبات إمامة عمر بن الخطاب، فهو أن أبا بكر عهد إليه أمام جلة الصحابة، فقبلوا رأيه بعد أن خطب خطبته التى وصف فيها عمر بصفاته كلها وخلاصتها أنه شديد فى غير عنف، لين من غير ضعف، وإذا كان طلحة قد احتج على توليته بقوله لأبى بكر: «تولى علينا فظاً غليظاً، ماذا تقول لربك إذا لقيته؟» فقد حدث أن اعترف بعد ذلك بفضله وقال لعمر: «لقد استقامت العرب عليك وفتح الله على يديك»، ثم اشترك مع عثمان وعبد الرحمن فى طلب العهد من أبى بكر لعمر لأنه أهل لها[1].

وبهذا صار عمر بن الخطاب إماماً للمسلمين بعهد أبى بكر إليه لأنه وقع برضا الجماعة «وإجماعهم على ذلك يكشف عن صحة الطريق الذى صار به إماما»[2].

ولقد قاس مفكروا أهل السنة على ذلك فجعلوا من تولية العهد مسلكا فى إثبات الإمامة فى حق المعهود إليه لأن أبا بكر خليفة الرسول ﷺ لما عهد إلى عمر، أقره الصحابة على ذلك[3].

---

(١) رد الباقلانى على الشيعة يشمل الصفحات ١٩٧ وما بعدها من كتابه (التمهيد..).

(٢) القاضى عبدالجبار: المغنى. جـ٢٠. القسم الثانى ص٦.

(٣) الجوينى: غياث الأمم فى التياث الظلم بتحقيق د. فؤاد عبدالمنعم ود. مصطفى حلمى. دار الدعوة اسكندرية.

ويستند ابن خلدون (٨٠٨هـ - ١٠٤٥م) فى مشروعية العهد على دعامتين:

الأولى: بما أن حقيقة الإمامة هى النظر فى مصالح الأمة لأمور الدين والدنيا، فإن الإمام على هذا هو الولى الأمين الذى يتولى شئون المسلمين أثناء حياته وبعد مماته أيضاً، فهو إذا أقام لهم من يتولى أمورهم بعد وفاته قبلوا هذا الاختيار عن رضى واطمئنان لأنهم يثقون فى اختياره كما وثقوا به إماما أثناء حياته.

الثانية: أجمعت الأمة على جواز هذا العهد وانعقاده كما تم بواسطة أبى بكر لعمر بمحضر من الصحابة فأجازوه وأوجبوا على أنفسهم طاعة عمر، وكما عهد عمر فى الشورى إلى الستة ففوض بعضهم إلى بعض حتى أفضى ذلك إلى عبدالرحمن بن عوف، وانعقد الأمر فى النهاية إلى عثمان بن عفان وأوجب المسلمون طاعته «والملأ من الصحابة حاضرون للأولى والثانية ولم ينكره أحد منهم فدلَّ على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته والاجماع حجة»[١].

ويتوسع ابن خلدون بعد ذلك فى طريقة العهد فيجيز أن يعهد الإمام إلى أبيه أو ابنه إذ لا ينبغى فى هذه الحالة أن يتهم بأنه يفضل ذوى القربى بما أنه مأمون على رعاية شئونهم أثناء حياته فبالتالى فلا يحتمل الخروج عن الحدود التى ألزم بها نفسه أثناء حياته. ويظهر بوضوح من خلال هذه الفكرة أن ابن خلدون خاضع للظروف السياسية إبان عصره.

أما السير أرنولد فإنه ذهب إلى أن طريقة العهد لا يخلو من المخاطرة إذ لا يمكن الاطمئنان إلى حسن نتيجتها ويحتمل الخطأ فى الاختيار[٢] ولكن الحقيقة أن بحث ما دار من مساجلات فى الرأى بين أبى بكر والصحابة تبعد احتمال الخطأ إلى حد انعدامه، فالمسلمون جميعاً يعرفون عمر خير المعرفة ويثقون فى اختيار أبى بكر كما أسلفنا، لأنهم على بينه من نواياه. وعذر السير أرنولد فى اتجاهه أنه لم يستطع تقدير عامل الدين وقوة تأثير المثل العليا فى نفوس المسلمين فى ذلك الوقت فقد «كان الوازع دينياً فعند كل أحد وازع من نفسه فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ووكلوا كل من يسموا إلى ذلك إلى وازعه»[٣].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص٢١٠.

(٢) The Caliphat, Sir T.W. Armold

(٣) المقدمة: ص٢١١.

ويمكن الرد أيضاً على اعتراض أرنولد بأن أصوات المعارضة ارتفعت فى وجه أبى بكر تصف عمر بن الخطاب بالغلظة، فقد أعلنوا ما يرونه فى وجه الخليفة دون خشية أو محايلة لكى يعيد النظر فى العهد إذا أثنوا له أنه على خطأ، ولكنهم «لم يحابوا الصديق فى عهده لعمر مع شدته، ومن شأن الناس أن يراعوا من يرشح للولاية فيحابوا خوفاً منه أن ينتقم منهم إذا ولى؛ ورجاء له، وهذا موجود، فهؤلاء لم يحابوا عمراً ولا أبا بكر مع ولايتهما»[1].

ومع قيام أبى بكر باختيار عمر، فقد ظل يراود نفسه محاولا التثبيت من صحة اختياره. ولا نجد صعوبة فى استنتاج هذا المعنى من بعض فقرات كتاب العهد نفسه. إذ يقول فى إحداها: «إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أريت، ولكل امرىء ما اكتسب ﴿ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾»[2].

ويعلق القاضى عبد الجبار على ما جاء بهذه الوثيقة بقوله: «وهذا كلام من يشتد اهتمامه بالدين واحتياطه للمسلمين»[3].

والدليل على صحة إمامة عمر بن الخطاب أنه التأم فى عهده شمل المسلمين، وهى الظاهرة الجلية فى أيام خلافة الشيخين، استمراراً لأيام الرسول صلوات الله عليه، إذ يقرر النوبختى (٣١٠هـ - ٩٢٢م) أنه: «صار مع أبى بكر السواد الأعظم والجمهور الأكثر فلبثوا معه ومع عمر مجتمعين عليهما راضين بهما»[4].

• موقف أهل السنة والشيعة من خلافة عمر:

بعد أن أوضح لنا النوبختى الإجماع على صحة إمامة الخليفة الثانى، فمن المرجع إذاً أن الطعن فى خلافته جاء متأخراً عن عصره، ودليلنا أن علياً بن أبى طالب نفسه قد أشاد بعمر بن الخطاب وشهد له. ويورد ابن تيمية العبارة التى جاءت على لسان ابن عباس، والتى حاول أن يطمئن بها عمراً عند بكائه من هول المطلع حين أشرف على الموت. قال ابن

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة. ج٣١، ص١٦٦.

(٢) الطبرى: جـ٤، ص٥٤، ابن قتيبة: الإمامة والسياسة. جـ١، ص١٩. الآية رقم ٢٢٧ من سورة الشعراء.

(٣) القاضى عبد الجبار: المغنى. ج٢٠. القسم الثانى ص٧.

(٤) النوبختى: فرق الشيعة: ص٤.

عباس: «فلا تبك يا أمير المؤمنين، فوالله لقد أسلمت فكان إسلامك فتحاً، ولقد أمرت فكانت إمارتك فتحاً، ولقد ملأت الأرض عدلا وما من رجلين من المسلمين يكون بينهما ما يكون بين المسلمين فتذكر عندهما إلا رضيا وقنعا به»[١] وقد أضاف ابن عباس إلى هذا، أن علياً بن أبي طالب يشهد بهذه الشهادة عند الله. وكان على حاضراً فأكد حديث ابن عباس ووجه كلامه إلى عمر بن الخطاب بقوله: «نعم يا أمير المؤمنين أنا أشهد لك بهذا عند الله»[٢].

فظهور النقد والانكار والتجريح لم يأت إذاً إلا من متأخرى الشيعة، حتى دفع بعض غلاتهم إلى وضع الأحاديث التى تخدم هذا الغرض. يذهب ابن قتيبة إلى أن الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ والذى يقول فيه: «ليردن على الحوض أقوام ثم ليختلجن دونى فأقول: يارب أصحابى، أصحابى، فيقال لى: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، أنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[٣] هذا الحديث أوله الشيعة ليتخذوا منه حجة فى طعن الخلفاء الراشدين، فيعلق ابن قتيبة على ذلك بقوله: «قالوا - وهذه حجة للروافض - فى إكفارهم أصحاب رسول الله ﷺ إلا علياً وأبا ذر والمقداد وسلمان وعمار ابن ياسر وحذيفة»[٤].

أما أوائل (البترية) - وهم إحدى فرق الشيعة الزيدية - فقالت أن عليا كان أولى الناس بعد الرسول ﷺ لفضله وسابقته وعلمه، وهو أفضل الناس كلهم بعده وأشجعهم وأسخاهم وأورعهم وأزهدهم. وأجازوا مع ذلك إمامة أبى بكر وعمر، وعدوهما أهلا لذلك المكان والمقام، وذكروا أن علياً سلم لهما الأمر ورضى بذلك وبايعهما طائعا غير مكره، وترك حقه لهما، ولذلك فإنهم رضوان كما رضى، وأن ولاية أبى بكر صارت رشداً وهدى لتسليم على ورضاه ولولا رضاه وتسليمه لكان أبو بكر مخطئاً، ضالا، هالكا[٥].

وفى هذا المعنى أيضا يقول ابن تيمية: «ويكفى الإنسان أن الخوارج الذين هم أشد الناس تعصبا رضوان عن أبى بكر وعمر فى سيرتهما وكذلك الشيعة الأولى أصحاب على كانوا يقدمون عليه أبا بكر وعمر»[٦].

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة. جـ٣. ص١٤٢.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث ص٢٩٥.
(٤) نفس المصدر والصفحة.
(٥) النوبختى: فرق الشيعة. ص٢٠.
(٦) ابن تيمية: منهاج السنة. جـ٣، ص١٤٢.

ويؤكد أهل السنة أن علياً كان محباً للشيخين معترفا لما لهما من مكانة، ونستطيع أن نختار من بين العديد من أقواله المؤيدة لهذا ما أورده البخارى (٢٥٦هـ - ٨٦٩م) فى صحيحه على لسان على حين مات عمر بن الخطاب فيقول: «ما خلفت أحداً أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك، وأيم الله أنى كنت لا أظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أنى كنت كثيراً أسمع النبى ﷺ يقول: ذهبت أنا وأبا بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر»[١].

ولكن الشيعة المتأخرين أنكروا هذا، فصدق عليهم المثل القائل بأنهم ملكيين أكثر من الملك نفسه، وألصقوا بعمر بن الخطاب - كما فعلوا قبل هذا بأبى بكر - أخطاء وعيوباً لكى يطعنوا فى صحة إمامته. فقد جمع ابن المطهر الحلى (٧٣٦هـ - ١٣٣٥م) عدة انتقادات يوجهها إلى عمر، منها ما يختص بالفقه، وما يتعلق بتصرفاته كخليفة للمسلمين، وسنقتصر على تناول الثانية.

ويذكر الحلى أن عمر بن الخطاب أخطأ فى ثلاثة مواضيع:

الأول: جعل الأمر شورى مخالفا من تقدمه فلم يعهد أو يترك الأمر لاختيار المسلمين.

الثانى: سوى بين الفاضل والمفضول ومن حق الأول التقدم على الثانى.

الثالث: طعن فى الستة الأشخاص الذين اختارهم للشورى. وذكر أنه يكره أن يتقلد إمامة المسلمين ميتا كما تقلده حيا، ثم عاد فتقلدها ميتا بأن جعل الإمامة فى ستة[٢].

• تفنيد ورد شيخ الإسلام ابن تيمية على الطعون الموجهة إلى خلافة عمر:

وقد تناول ابن تيمية هذه الطعون الثلاثة بالتفنيد والرد. وسنعرضها حسب ترتيبها.

أولا: جعل الأمر شورى:

كان عمر بن الخطاب كثير المشاورة لأصحابه فيما لم يرد فيه نص، ولهذا السبب إلتجأ إلى الاجتهاد. فإذا كان الحلى قد ذكر أن الإمام منصوص عليه وهو معصوم، فكيف يكون هذا الإمام أعظم من الرسول ﷺ، الذى كان ينزل القرآن مصححا لأفعاله مثلما فعل حينما ولى ﷺ الوليد بن عقبة فنزلت الآية فيه: ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا

(١) صحيح البخارى: جـ٣، ص٢٠٤.

(٢) ابن تيمية: منهاج السنن. جـ٣، ص٢٥٨.

﴿قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾[1].

كما كان النبى ﷺ يحكم فى القضية المعينة باجتهاده، ولذلك نهى المحكوم له أن يأخذ ما حكم له به إذا كان الباطن بخلاف ما أظهره. ولما كان عمر بن الخطاب إماما للمسلمين. فإنه اجتهد فى استخلافه الأصلح، ورأى أن هؤلاء الستة أحق من غيرهم، ولم يعين واحداً منهم بالذات خشية أن يكون غيره أحق منه وأصلح للولاية «وهذا أحسن اجتهاد إمام عالم عادل ناصح لا هوى له»[2] لأنه بذلك قد نفذ ما أمرت به الآيات القرآنية من الحض على الشورى والعمل بها. وقد فضل عمر عدم تعيين واحد من الستة حتى لا يحدث الاختلاف والمنازعة، إذ جبل على ذلك البشر جميعا بما فيهم أولياء الله المتقيم، فرأى الفضل متقاربا فى الستة، ورأى أيضا أنه إذا عين واحداً قد لا يحسن القيام بإمامة المسلمين فيصبح عمر نفسه مسئولا عنه لنسبته إليه، فترك تعيين واحد منهم خوفاً من التقصير حيث رأى فى كل واحد من الستة ما منعه من تعيينه وتقديمه على غيره؛ وقصد المصلحة فى أن يبايعوا واحداً منهم باختيارهم[3].

ولما راجعه المسلمون ليستخلف شخصا بعينه بالاسم رفض قائلا: «إن الله تعالى لم يكن يضيع دينه ولا خلافته ولا الذى بعث به نبيه ﷺ، فبذلك ترك الأمر لهؤلاء الصحابة الذين مات عنهم الرسول ﷺ وهو راض، يختارون من بينهم الذين يجمعون عليه. وله فى النبى ﷺ أسوة حسنة، إذ أنه ﷺ حينما رأى المسلمين يجتمعون على أبى بكر استغنى عن كتابة الكتاب الذى عزم أن يكتبه لأبى بكر؛ كما أنه ليس هناك دليل على الاستخلاف.

وهكذا قام عمر بأداء أكثر الأمرين مصلحة وأقلهما مفسدة: «فإن الله تعالى بعث الرسول وأنزل الكتاب ليكون الناس على غاية ما يمكن من الصلاح لا لرفع الفساد بالكلية، فإن هذا ممتنع فى الطبيعة الإنسانية إذ لابد فيها من فساد»[4].

ثانيا: الجمع بين الفاضل والمفضول:

وكان هؤلاء الستة متقاربين فى الفضيلة، فقد كان الصحابة فى عهد النبى ﷺ يفاضلون أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ولم ينكر الرسول ﷺ ذلك حينما يبلغه.

---

(1) الآية رقم ٦ من سورة الحجرات.

(2) ابن تيمية: منهاج السنة. جـ٣، ص١٦٢.

(3) ابن تيمية: منهاج السنة. جـ٣، ص١٦٢.

(4) المرجع السابق، ص١٦٤.

هذا هو التفضيل الثابت بالنص. أما التفضيل الثانى فقد ثبت بإجماع المهاجرين والأنصار، وكما ظهر لما توفى عمر بن الخطاب فإنهم أ. معوا على مبايعة عثمان من غير رغبة ولا رهبة، فإنه لم يعط أحداً منهم مالا ولا ولاية، ولم يكن لبنى أمية شوكة حينئذ، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل تعليقاً على ذلك: «لم يجتمعوا على بيعة أحد كما اجتمعوا على بيعة عثمان»[1]، لأنه لم ينكر أحد من الستة - أو غيرهم - ولاية عثمان فى ذلك الوقت، مع أن فيهم كافة الصحابة أمثال عمار بن ياسر وصهيب وأبو ذر والمقداد بن الأسود وابن مسعود، وفيهم أيضاً العباس ابن عبد المطلب، ومن النقباء مثل عبادة بن الصامت، وفيهم مثل أبى أيوب الأنصارى، وهم جميعا من الصحابة الذين وصفهم الله تعالى بأنه: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[2]، وقد بايعوا النبى ﷺ على أن يقولوا الحق حيثما كانوا لا يخافون فى الله لومة لائم حسب باق نص الآية السالف ذكرها: ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾، ولم ينكر منهم أحد ولاية عثمان[3].

ثالثاً: طعنه فى الستة أشخاص:

إن طعن عمر بن الخطاب فيهم لا يعنى أنه يفضل عليهم فى الإمامة بل كره أن يتقلد غيرهم الإمامة لأنه لا أحد أحق بالإمامة منهم. ولا تبعة عليه لأنه اختار الستة لخشيته من تبعة تعيين واحد منهم. أما كراهيته فى تقلد الأمر حيا، فإن هذا المعنى يفسر على غير حقيقته؛ لأنه تقلد الأمر باختياره، فليس خوفه إذاً إلا من تبعة الحساب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾[4]. فخوف عمر إذاً من التقصير فى الطاعة يعنى كمال طاعته لله، فإنه كان يستطيع أثناء حياته منع نوابه مما يكرهه منهم لأنه كان متمكنا من مراقبتهم وتعقب أفعالهم، أما بعد موته فإنه لا سلطان له عليهم، فكره تقلد الأمر ميتا لهذا السبب[5].

وينفى ابن تيمية أن عمر جعل الأمر فى أربعة ثم فى ثلاثة ثم فى واحد لأن هذا غير ثابت من وجهة نظر ابن تيمية، لأن النقل الثابت فى صحيح البخارى يدل على أن الستة أنفسهم هم الذين حصروا الأمر فى ثلاثة ثم جعل هؤلاء الثلاثة الاختيار إلى عبد الرحمن

(١) المرجع السابق، ص١٦٦.

(٢) الآية رقم ٥٤ من سورة المائدة.

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة. جـ٣، ص٦٦.

(٤) الآية رقم ٦٠ من سورة المؤمنون.

(٥) ابن تيمية: منهاج السنة. جـ٣، ص١٦٧.

بن عوف، ولا دخل لعمر بن الخطاب فى ذلك.

كما يستبعد ابن تيمية ما ذكره الحلى من تفضيل عمر لعثمان، وحتى إن فعل، فهو لا يعنى محاباة عثمان وإلا لكان ولاه بدلا من تعيين الستة، لا سيما أنه من المعروف عن عمر أثناء حياته جراءاته فى الحق حتى أطلق عليه الشيعة أنفسهم (فرعون هذه الأمة)، ولو أراد تعيين عثمان ابتداءاً لفعل دون الالتجاء إلى مثل هذه الحيلة «فإذا كان فى حياته لم يخف من تقديم أبى بكر والأمر فى أوله والنفوس لم تتوطن على طاعة أحد معين بعد النبى ﷺ، ولا صار لعمر أمر، فكيف يخاف من تقديم عثمان عند موته والناس كلهم مطيعوه وقد تمرنوا على طاعته؟»[1]، كما أنه ليس بينه وبين عثمان من أسباب الصلة أكثر مما بينه وبين على سواء من جهة القبيلة أو غيرها، وقد أخرج عمر ابنه وابن عمه من الأمر، فليس هناك سبب إذاً يدعوه إلى تفضيل عثمان أو على أو غيرهما إذ لا يحتاج إلى واحد منهم لا فى أهله ولا فى دينه. وقد يستساغ قبول هذا التصرف من عمر لو أراد محاباة أحدهما لا حاجته إليه، فإذا لم تكن الحاجة قائمة فما الذى يدعوه إلى التفضيل لا سيما عند الموت وهو الوقت الذى يسلم فيه الكافر ويتوب فيه الفاجر؟

ليس إذاً لعمر مانع دنيوى يدفعه إلى ذلك. بقى الدين، فلو كان الدين يقتضى ذلك لفعله وإلا فليس من المقبول أن يقدم على فعل ما يعلم أنه يعاقب عليه فى الآخرة، ولا ينتفع به فى دنياه أو آخرته. .لم يكن عمر من ناحية أخرى يخاف على أهله بعد وفاته لأنه صرف الأمر عنهم، وهو على يقين من أن علياً أعدل وأتقى من أن يظلمهم لو ولى الأمر بعده.

وإذا قيل أن علياً وعثمان لا يجتمعان على أمر واحد فهو قول منسوب كذبا إلى عمر، فلم يكن بينهما نزاع أثناء حياته، بل كان أحدهما أقرب إلى صاحبه من سائر الأربعة إليهما لأنهما من بنى عبد مناف، ووقائع التاريخ تدل بوضوح على اتفاق بنى العباس وبنى أمية فى أول الأمر على عهد النبى ﷺ وأبى بكر وعمر ووقعت الفرقة بينهما فيما بعد عندما ولى بنو العباس وصار بينهم وبين بعض بنى أبى طالب الاختلاف[2]. كما ينفى ابن تيمية صلة القرابة بين عبد الرحمن وعثمان لأن الأول من بنى زهره والثانى من بنى أمية.

(١) ابن تيمية: منهاج السنة. ج٣، ص١٦٨.

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة. ج٣، ص١٧٠.

الفصل الرابع
خلافة عثمان بن عفان
(٣٥هـ - ٦٥٥م)

* تمهيد.
* كيف تم استخلاف عثمان رضى الله عنه.
* الأدلة على صحة العقد.
* الطعن فى إمامة عثمان.
* رد أهل السنة.
* مقارنة بين موقف أهل السنة والشيعة.
* عثمان ونظرية خلع الإمام.

(٤)
خلافة عثمان رضى الله عنه
(٣٥هـ - ٦٥٥م)

• تمهيد:

أجمع المسلمون الأوائل - كما قلنا - على الانقياد لأبى بكر وعمر، واستطاع متكلموا أهل السنة إثبات صحة إمامتهما، وانعقد الإجماع على إمامتهما. بيد أن كل منهما تولى الخلافة بطريقة مغايرة للآخر، فبينما تم اختيار الصاحب الأول بطريقة الانتخاب، تولاها الخليفة الثانى بواسطة العهد.

والآن، سنبحث خلافة عثمان بن عفان: كيف لجأ عمر بن الخطاب إلى طريقتى الانتخاب والتعيين معاً، ثم ما قام به أهل السنة من إثبات صحة العقد للخليفة الثالث. وسنحاول بصفة خاصة توضيح الأخطاء التى طعن بها الخوارج والشيعة فى إمامته ورد مفكرى أهل السنة عليها.

• كيف تم استخلاف عثمان رضى الله عنه:

عندما طعن عمر بن الخطاب، هرع إليه بعض الصحابة يطلبون منه أن يستخلف، ولكنه أبى بادىء الأمر بقوله: «إن استخلف فقد استخلف من هو خير منى - يعنى أبا بكر - وإن أترك فقد ترك من هو خير منى - يعنى رسول ﷺ - ولن يضيع الله دينه».

لكنهم أعادوا عليه الكرة، ففوض الأمر إلى الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض: على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد وعبد الله بن عمر على ألا يكون له من الأمر شىء وأوصى بأن تكون الخلافة للذى يقع عليه الاختيار من الفريق الذى فى صفه ابنه عبد الله فى حالة تساوى الأصوات، واضعاً لهم أسس الشورى والخطوات التى ينبغى عليهم اتباعها. ثم أوصاهم قائلا: «فإذا وليتم والياً فأحسنوا مؤازرته وأعينوه»[1].

---

(١) الطبرى: ج٥، ص٣٥.

وبعد وفاة عمر، اجتمع هؤلاء الرهط فخلع عبد الرحمن نفسه، فابتعد عن منافسة الباقين وخضع لمشيئتهم إذا أرادوا تفويض الاختيار له، فقبلوا أن يفعل ذلك.

واستشار عبد الرحمن بن عوف كل من كان حاضراً من وجوه المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد الذين حضروا الحج مع عمر قبل وفاته. ثم اجتمع بالرهط الذين عينهم عمر واحداً فواحد، وبعد مشاورات ومجادلات بينهم، انحصر الاختيار فى نهاية المطاف بين عثمان وعلى. قال عبد الرحمن موجهاً الكلام إلى على بعد استقرار الرأى على عثمان: «أما بعد يا على إنى قد نظرت فى أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلا»[1].

هذا ما يذكره لنا البخارى. ويلاحظ أنه خص علياً وحده بالكلام مما يدل على أنه كان يفاضل بينه وبين عثمان لانحصار الأمر بين الاثنين وحدهما فى النهاية دون الباقين. وهذا ما يذكره البخارى أيضاً بسند المسور بن مخرمة إذ يقول: «ثم دعانى - يقصد عبد الرحمن ابن عوف - فقال ادع لى علياً فدعوته فناجاه ثم قام على من عنده وهو على طمع، وقد كان عبد الرحمن يخشى من على شيئاً»[2].

وأهم ما يسترعى انتباه الباحث فى تفصيل هذه الأحداث، أن عثماناً قبل التقيد بمنهج سلفيه - أبى بكر وعمر - فضلا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بطبيعة الحال. أما على فقد تحفظ، إذ سأله عبد الرحمن: «عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده» فكانت إجابته: «أرجو أن أفعل بمبلغ علمى وطاقتى». أما عثمان فقد أجاب بالإيجاب على الفور دون تعليقه على العلم ومدى الطاقة كما فعل على.

وكان هذا الاختيار - أى لعثمان دون على موضع اهتمام أهل السنة أنفسهم قبل الشيعة. فقد تساءل أبو وائل - كما ذكر الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده - حيث سأل عبد الرحمن بن عوف عن السبب الذى من أجله بايع الصحابة عثمان دون على، فأجاب: «ما ذنبى؟ فقد بدأت بعلى فقلت أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة أبى بكر وعمر فقال فيما استطعت، ثم عرضت ذلك على عثمان فقال نعم»[3].

كما تلقف الشيعة أمثال هذه التفاصيل فيما روى عن الواقعة للقذف فى حق عثمان على نطاق واسع تحقيقاً للغرض الذى يرمون إليه فى التدليل على فساد العقد الذى تولاه عبد الرحمن بن عوف لعثمان. وهو ما يحتاج إلى عرضه بشىء من التفصيل.

(١) صحيح البخارى: جـ٤، ص١٧١. (٢) صحيح البخارى: جـ٤، ص١٧١.

(٣) السيوطى: تاريخ الخلفاء. ص١٥٤.

• الأدلة على صحة العقد:

عرض القاضى الباقلانى لما أثاره الشيعة ففنده ورد عليه فى النقاط الآتية:

١- أن الصحابة تشاوروا ليالى وأياماً ونظراً فى أمرهم ورضوا بعبد الرحمن أميناً ومشيراً فى هذا الباب؛ وعبد الرحمن فى فضله ونبله وسابقته وعلمه معروف وهى فضائل يصلح من أجلها لعقد هذا الأمر، بل هو من جلة أهل الحل والعقد ويجب أن يطرح ما روى عنه من صفات تخالف ذلك جانباً لعدم ثبوت صحتها[1].

٢- روى عن الشيعة أن عليا سأل عبد الرحمن: «أعذر هذا يا عبد الرحمن؟» وأنه بايع عثمان فى تقية من الباقين. وكلها روايات غير ظاهرة الصحة، لأن الصحيح فى هذا ما روى أن علياً قال لعبد الرحمن بن عوف بعد أن عرض عليه البيعة على الشرط الذى وضعه فأباه على والتزمه عثمان، قال له على: «بايع أخاك فقد أعطى الرضا من نفسه واستخر بالله وأصفق على يده»[2].

٣- لا يعقل أن يعبر على عما يكنه نحو عثمان بهذا القول ثم يطلق الشيعة على لسانه قولا آخر نصه: «نشدتكم بالله هل فيكم من قيه النبى ﷺ. من كنت مولاه فعلى مولاه. غير؟» لأن الثابت صحته عنه أنه نفى عن نفسه تهمة قتل عثمان بشدة ولعن قتلته، وقبل أن يحلف لبنى أمية عند الحجر الأسود أنه لم يقتله إذا طلبوا منه أداء هذا القسم، فإذا كان قد علم بالنص على إمامته من النبى ﷺ «لوجب أن يكون عالماً بأن عثمان باغ مستحق القتل ولم يجز أن يلعن قتلته، وإذا كان باغياً مستحقاً للقتل»[3].

٤- يطعن الشيعة فى قبول عثمان الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسنة الشيخين من بعده، لأن التقليد من العالم لغيره حرام، بينما رفض على هذا التقليد بقوله: «ليس مثلى من استظهر عليه ولكن أجتهد رأيى»[4]. ويحلل الباقلانى ذلك باحتمالات ثلاثة: أولها: إذا كان التقليد حراماً فإن الصحابة أعلم بذلك وأتقى لله من أن تفعل الحرام وتجيزه. وإذا كان على قد امتنع عن التقليد بالشرط الذى وضعه عبد الرحمن لقال قولا آخر غير الذى فعل مثل: «هذا حرام فى الدين لا يحل فعله»[5].

---

(١) الباقلانى: التمهيد. ص٢٠٨.
(٢) المصدر السابق: ص٢٠٩.
(٣) المصدر السابق: ص٢٠٩.
(٤) الباقلانى: التمهيد. ص٢٠٩.
(٥) المصدر نفسه. ص٢١٠.

والاحتمال الثاني: إن صحت الرواية، قد يكون قصد عبد الرحمن تقليد الشيخين فى السير بالعدل والإنصاف دون التقليد فى الأحكام. لأن سيرة أبى بكر وعمر ترك التقليد، ومما يؤكد هذا أن أحكام أبى بكر وعمر فى كثير من الفقهيات مختلفة، فقبل عثمان لما فهمه من هذا القصد.

أما الاحتمال الثالث: فهو أن عبد الرحمن لم يشك أيضاً فى أن علياً سيسلك طريق الخليفتين فى عدلهما وإنصافهما وإنما قال ذلك ليقرره ويؤكده وليقع الرضا من الجماعة ويستميل قلوب السامعين. وقدر على أنه دعاه إلى التقليد فى الأحكام، بينما يعلم أن عمر لم يقلد أبا بكر فى مسائل الحرام والحلال، فلم يقبل أن يدعوه عبد الرحمن إلى التقليد وترك الاجتهاد فامتنع عن قبول الشرط.

والحكم بالتقليد جائز عند الفقهاء، فهى مسألة اجتهاد فلعل عثمان وعبد الرحمن كان يريان جواز التقليد ولا يرى على ذلك. وعلى هذا «يكون عبدالرحمن مصيباً فى اشتراطه وتقريره وتأكيد الأمر، ويكون على مصيباً فى الامتناع منه ويكون عثمان مصيباً أيضاً فى قبول الاشتراط»[1].

٥- ويدعى الشيعة قولا لعبد الرحمن: «ما علمت، وإذا شئتم، أخذت سيفى على عاتقى وأخذتم أسيافكم، وقتلنا هذا الطاغية وأزلناه عن الأمر»[2] حيث أنكر على عثمان ونقم كثيراً من أفعاله وهذا القول أيضاً من الروايات المختلقة لأن ما ثبت عنه أنه رضى به واختاره حيث قال: «إنى رأيت الناس لا يعدلون بعثمان أحداً فوليته»[3].

وحتى لو صح القول الأول لما انخلع عثمان، لأن الإمامة إذا ثبتت بعقد صحيح لم ينخلع الإمام بالقذف فيه أو التأويل عليه وإنما ينخلع بالجلى المعلوم من الأحداث الثابتة الظاهرة، والذى ينبغى عمله هو النظر فيما أنكره عبد الرحمن وما نقمه القوم عليه، فإن كان مما يوجب خلع الولاية وسقوط الطاعة صرنا إليه وطالبناه بموجبه، وإن كان خطأ فى التأويل وقذفا بالباطل أضربنا عنه ولم يحتفل به[4].

٦- إذا لم تقتنع الشيعة بهذه الأدلة على صحة عقد عثمان لأنه تم فى الأصل طوعاً واختياراً عن رأي ومشورة الصحابة الذين لم يعدلوا بعثمان بديلا، فإن هذا الموقف سيوجب القدح أيضاً فى إمامة على لأنها كانت بغير إجماع الصحابة، بل أنكرها طلحة والزبير

(١) المصدر نفسه والصفحة عينها.
(٢) التمهيد: ص٢١٠.
(٣) التمهيد: ص٢١١.
(٤) التمهيد: ص٢١١.

وعائشة حيث اختاراه الأولان مرغمين كما روى على لسان على عنهما قال: «بايعانى بالمدينة وخلعانى بالعراق» وردهما: «بايعناك على أن تقتل قتلة عثمان» وقول طلحة: «بايعت واللج على قفى» والزبير: «بايعته أيدينا ولم تبايعه قلوبنا». فإذا كانت بيعتهما على كره منهما فإنهما أعذر من خلعهما لعلى من عبد الرحمن فى خلعة لعثمان[1]. ولكن الباقلانى يقر الحقيقة الواضحة وهى أن الحق كان فى يد على ومعه دون كل من خالفوه. أما عند المقارنة بين موقف كل من عثمان وعلى عند الفتنة، فالأمر يبدو مختلفاً. لأن الأول أبى على من يريد مناصرته أن يستل سيفه دفاعاً عنه ومنعهم من ذلك وكانوا على استعداد لبذل أنفسهم دفاعاً عنه قائلين: «دعنا نكن أنصار الله مرتين». بينما قعد عن نصرة على كثير ممن دعاهم إلى القتال معه من جلة الصحابة: «فيجب أن يكون ذلك أظهر فى القدح فى إمامته وأجرد مما تعلق على عثمان»[2].

٧- ويختتم الباقلانى هذا الدفاع عن عثمان ببراءته من الله من القدح فى إمامة على ويلوم الشيعة لأنها البادئة فى فتح هذا الباب الذى لا قبل لهم بدفعه، لأن إمامة على لا تفسد بخلع من عقدها له ولا بالتأويل أنها عقدت على شرط كما لا يوهنها قعود من قعد عنها.

وبالمثل لا تبطل إمامة عثمان بما حكى عن عبدالرحمن أو سعى أهل الفتنة وتعديهم عليه لأن إمامته صحت وثبتت فلا يقدح فيها شىء[3].

وإلى هذا أيضاً يذهب القاضى عبد الجبار، إذ يرى أن إمامة عثمان ثابتة صحيحة لأن الأخبار تواترت بأن البيعة له تمت بعد مشاورة، وأن أهل الشورى مكثوا أياماً يتشاورون، فكانت بيعته معلنة للكافة، وكانت الطريقة التي تمت بها أدعى للمسلمين كافة أن يهتموا بها ويتابعون أخبارها. ولم يقع فى ذلك اختلاف إلى أن نسب إليه ما نسب من الأحداث[4] بل إن القاضى عبد الجبار يستدل مما حدث أثناء المشاورة بأنه لا نص على إمامة على، لأنه دخل فيها راضياً. إذ لو وجد النص لوجب أن يقال لعمر بن الخطاب فى ذلك الوقت: «وأين نذهب عمن تعين الحق له؟ وكيف يجوز أن نجمع بينه وبين من لا حق له فى الأمر؟» [5] وكانت الحاجة شديدة حينئذ لإظهار مثل هذا النص مثلما حدث فى اجتماع السقيفة وأعلن أبو بكر أن الإمامة فى قريش فسكت الأنصار. فالحقيقة إذا أن الإمامة تتم بالاختيار مع

(١) التمهيد: ص٢١١، ٢١٢.
(٢) التمهيد: ص٢١٢.
(٣) التمهيد: ص٢١٢.
(٤) القاضى عبدالجبار: المغنى. جـ٢٠. القسم الثانى. ص٣.
(٥) المرجع السابق: ص٢١.

اختلاف طريقة الاختيار. وقد رأى عمر ابن الخطاب أن الستة الذين عهد إليهم بالشورى هم أفضل المسلمين لأن رسول الله ﷺ شهد لهم بالفضل فحصر الاختيار فيهم.

الطعن فى إمامة عثمان:

إن أبرز ظاهرة يقابلها الباحث فى خلافة عثمان هى هذا العدد الكبير من الأخطاء التى نسبت إليه للنيل منه والطعن فى إمامته، فكأن واضعوها تعقبوه فى كل تصرف من تصرفاته ليحسبوا عليه الهنيات، ويظهر القصد المتعمد فى الطعن على غير أساس إلا العناد، فى موقف كتخلفه عن بيعة الرضوان مثلا، الذى كان هو نفسه سببها - كما سيتبين لنا عند سردها فى موضعها-:

هذا إلى جانب ما يلاحظ من اصطباغ تاريخ الخلافة منذ هذا العهد بالعنف وإراقة الدماء، فكانت فاتحة للمآسى التى أخذت تترى، وظهور الخلافات العنيفة بين الفرق الإسلامية فى معتقداتها وأفكارها.

ويرى أهل السنة أن عثمان قتل شهيداً مظلوماً، وأن ما قيل عنه من تصرفات قام بها هى محض افتراء. يقول الأشعرى: «وأنكر قوم عليه فى آخر أيامه أفعالا فيما نقموا عليه من ذلك مخطئين وعن سنن المحجة خارجين فصار ما أنكره عليه اختلافاً إلى اليوم، ثم قتل رضوان الله عليه، قتله قاتلوه ظلماً وعدواناً، وقال قائلون بخلاف ذلك، وهذا اختلاف بين الناس إلى اليوم»[1].

وعلى هذا النهج يمضى أهل السنة فيكذبون أغلب هذه الوقائع، إما لأنها سردت مرسلة، أو أنها أخبار آحاد أو لضعف سندها، مع إلقاء العبء على التاريخ لأنه «يسطر ما يملى عليه المجتمع، وكان مجتمع عثمان ساخطاً ثائراً فأحصيت عليه هذه التوافة وجعلت أحداثاً جساماً وقع من أجلها أخطر انقلاب عرفه التاريخ»[2].

أما التعليل الذى يورده الجاحظ (٢٥٥هـ - ٨٦٨م) فيذهب فيه إلى أن الذى عظم صغيراً ما كان من أمر عثمان، أنه كان مسبوقا بعمر بن الخطاب الذى عرف بشدة الرأى والخشونة واليقظة وتقيده تقييداً شديداً بمذهب صاحبيه قبله، ولهذا قيل «ما قتل عثمان غير عمر»، لأن الفرق كان كبيراً بين طريقة عمر ابن الخطاب فى الحكم وطريقة عثمان[3].

---

(١) الأشعرى: مقالات الإسلاميين. جـ١، ص٤٧.

(٢) الشيخ محمد صادق عرجون: الخليفة المفترى عليه. ص١٠١.

(٣) الجاحظ: العثمانية. ص١٨٤.

ولا يفوتنا أن نذكر أيضاً ما أسهم به المستشرقون فى هذا الميدان، فإن فلهاوزن - الذى يبدو أنه تأثر غاية التأثر بآراء غلاة الشيعة والخوارج - يقرر أن «بدء الخلاف فى الإسلام الثورة على عثمان، فى سبيل الله، ضد الخليفة، ومن أجل الحق والعدل ضد فساد الحكم وظلمه. وهى كلمات لم تستعمل ضد عثمان وحده، بل ضد كل حاكم يضل عن سواء السبيل»[١].

ولكن ما يؤخذ على فلهاوزن هنا أن هذه النتيجة كمسلمة وضعها فى بداية بحثه عن «الخوارج والشيعة» دون أن يحلل لنا الأسباب التى استند إليها. ولا شك أنها طريقة تجافى المنهج العلمى. ومع هذا، فلا يستغرب صدور مثل هذا الحكم منه، لأنه قد يكون صادراً عن نية مبيتة للتعريض بالإسلام وأهله، فهو الذى يغمز فى تصرف الرسول ﷺ نفسه فى موضوع تقسيم الغنائم[٢].

أما جولد تسيهر فإنه لم يجد مناصاً من إنصاف عثمان فيقول: «من الإجحاف أن نتهم عثمان بضعف الإيمان أو بفتور الحماس للإسلام»[٣].

ويجمع الخوارج، على اختلاف مذاهبهم وتعددها، على تكفير على وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل وكل من رضى بتحكيم الحكمين. ويضيف الأشعرى إلى هذا أنه فضلا عن تكفير كل هؤلاء فإن الخوارج يضيفون إليهم كل من صوب الحكمين أو أحدهما[٤]. ولكن النظام (٢٣١هـ - ٨٤٥م) لم يصل إلى هذه الدرجة من الغلو، وانحصر فيما عابه على عثمان من تصرفات، إيوائه الحكم بالمدينة، واستعماله الوليد بن عقبة على الكوفة حتى صلى بالناس وهو سكران، والاستئثار بالحمى[٥]. ولعل أقصى ما يثير دهشة الباحث وسط كل هذه الفرق، من أنكر حادثة قتلة بالغلبة والقهر، فكأنهم يستكثرون عليه استشهاده على هذا النحو الذى يرفع من شأنه، فينزعون عنه هذه الفضيلة، بزعمهم أن شرذمة قليلة قتلته بغتة ومن غير حصار مشهور، وهم أتباع هشام بن عمرو الفوطى (٢٢٦هـ - ٨٤٠م)[٦].

لهذا كله انبرى أهل السنة يؤكدون أن عثمان قتل مظلوماً، وهو أحد المبشرين بالجنة

---

(١) فلهاوزن: الخوارج والشيعة. ص٢٧. (٢) المصدر السابق ص٣٦.

(٣) جولدتسيهر: العقيدة والشريعة. ص١٦٩.

(٤) الرسعنى: مختصر الفرق بين الفرق للبغدادى. ص٦٦.

(٥) المصدر السابق. ص١٠٦، ١٠٧. (٦) نفس المصدر: ص١١٢.

لأن الرسول ﷺ قد بشره بها فيما روى عنه بصحيح البخارى. ليدافع عنه «فهو الذى صبر حتى قتل فكان صبره من أعظم فضائله عند المسلمين[1]، بل إن استشهادة كان مثار فخر واعتزاز كبيرين لأنه افتدى دماء أمته بدمه مختاراً فما أحسن الكثيرون منا جزاؤه وأن أوروبا وأمريكا تعبدان بشراً بزعم الفداء ولم يكن فيه مختاراً»[2].

ولكثرة ما نقم على عثمان من أفعال، ولتشعب الآراء المؤيدة والمعارضة على السواء فضلا عن الاختلاف البين بين أهل السنة والشيعة فى النظرة إليها - فهؤلاء يكفرونه وأولئك يؤكدون صحة إمامته ويضعونه فى المرتبة الثالثة بعد الصاحبين - لكل هذا، فإنه من الضرورى أن نعرض على بساط البحث هذه الأحداث بالتفصيل، وهى كما يلى[3]:

١- ضربة لعمار حتى فتق أمعاءه.

٢- ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه.

٣- وابتدع فى جمع القرآن وتأليفه وفى حرق المصاحف.

٤- وحمى الحمى.

٥- وأجلى أبا ذر إلى الربذة.

٦- وأخرج من الشام أبا الدرداء.

٧- ورد الحكم بعد أن نفاه رسول الله ﷺ.

٨- وأبطل سنة القصر فى الصلوات فى السفر.

٩- وولى معاوية وعبد الله بن عامر بن كريز، ومروان، والوليد بن عقبة وهو فاسق ليس من أهل الولاية.

١٠- وأعطى مروان خمس إفريقية.

١١- وكان عمر يضرب بالضرة وضرب هو بالعصا.

١٢- وعلا على درجة الرسول ﷺ وقد انحط عنها أبو بكر وعمر.

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة. جـ٣، ص٢٠٣.

(٢) محب الدين الخطيب فى تعليقه رقم ١ بهامش ص ١٣٧ من كتاب العواصم من القواصم.

(٣) كما ذكرها القاضى أبو بكر بن العربى (٥٤٣ هـ - ١١٤٨م) بكتابة (العواصم من القواصم) ص ٦١ و٦٢.

١٣- ولم يحضر بدراً وانصرف يوم حنين وغاب عن بيعة الرضوان.

١٤- ولم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرموان.

١٥- وكتب مع عبده على جمله إلى ابن أبى سرح فى قتل من ذكر فيه.

وسنعرض رد أهل السنة على هذه الأحداث تفصيلا فيما يلى:

١- ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه:

يذكر الباقلانى أن سبب ضربه عماراً أنه قال للطاعنين عليه: «اكتبوا ما تشكونه من عثمان فى كتاب وأعطونيه حتى أدخل عليه وأوقفه عليه» فلما دخل عليه غلظ له فى القول وافترى واستخف بسلطان الخليفة فحق عليه العقاب، وقد أخطأ عمار حين رمى عثمان بالكفر حتى ردعه على بقوله: «أتكفر يا عمار برب آمن به عثمان؟» فأجاب بالنفى ولا يستحق عثمان الخلع بسبب تأديبه عمار إن كان هذا صحيحاً، لأنه بمثابة الردع، فيكون عثمان صائباً فى فعله وعمار مرتكباً هفوة فى حق الخليفة[1]، وقد أيد أبو على الجبائى (٣٠٣هـ - ٩١٥م) أيضاً خطأ عمار فيقول: «ولو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذى كان يقوله فيه لم يجب أن يكون طعناً لأن للإمام تأديب من يستحق ذلك، وما تبعه صحة ذلك أن عماراً لا يجوز أن يكفره.. لأن الذى يكفر به الكافر معلوم»[2].

وقد تكون قصة ضربه باطلة غير صحيحة، وهو ما يراه القاضى أبو بكر ابن العربى لأنه لو فتق أمعاءه ما عاش أبداً[3].

وعن تكفير عمار لعثمان. وما نقل عن دفاع على والحسن بن على عن عثمان فإن ابن تيمية يهون من شأن هذه الأحداث لأن الرجل المؤمن قد يظن كفر صاحبه المؤمن ويكون مخطئاً فى اعتقاده دون أن يؤدى هذا إلى القدح فى إيمان واحد منهما. ويستشهد بما قاله أسيد بن حضير لسعد بن عبادة بحضرة النبى ﷺ إذ قال: «إنك منافق تجادل عن المنافقين»، وكما قال عمر بن الخطاب لحاطب ابن أبى بلتعة: «دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق» فقال النبى ﷺ: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟».

---

(١) الباقلانى: التمهيد: ص٢٤٦.

(٢) القاضى عبد الجبار: المغنى ج٢، القسم الثانى. ص٥٤.

(٣) أبو بكر بن العربى: العواصم من القواصم. ص٦١.

وعلى هذا فإن حجة عمر فيما قاله لحاطب أظهر من حجة عمار: «ومع هذا فكلاهما من أهل الجنة، فكيف لا يكون عثمان وعمار من أهل الجنة وإن قال أحدهما للآخر ما قال»[1].

ثم يضيف ابن تيمية إلى ذلك، أنه من المحتمل عدم صدور هذا القول من عمار لأن طائفة من العلماء أنكروا أن يكون عمار قال ذلك.

والاتجاه الغالب لأهل السنة هو إنكار صدور مثل هذا الفعل بواسطة عثمان لما شاب التاريخ الإسلامى - خصوصاً فى مراحل الاضطرابات والانقلابات السياسية - من شواب وروايات مختلفة دون نقد أو تمحيص من جهة، ولما عرف من أخلاق عثمان الذى عرف بالحياء ودماثة الطبع مع ما له من مكانة فى الصحبة والجهاد من جهة أخرى، بحيث يستبعد أن يتصرف مثل هذا التصرف مع واحد من أصحاب الرسول ﷺ - وهو عمار بن ياسر - مهما بينهما من اختلاف فى الرأى[2].

٢- ضربه لابن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطائه:

وينفى الباقلانى هذه الواقعة أيضاً فى أول الأمر، أما إذا صحت فإنه مع ثبوت عدالة عثمان وإيمانه، فقد قصد بالضرب التأديب والردع لإمتناع بن مسعود عن إخراج المصحف إلى عثمان، وكان الخليفة الثالث يهدف مع جمع المصحف حسم فتنة الاختلاف فى القراءة وجمع الكلمة على مصحف واحد متفق عليه (محفوظ محروس يكون العماد فى هذا الباب)، فإذا امتنع ابن مسعود عن إخراج ما تحت يده، فإذا لم يفعل، حق إهابه بشىء من الضرب، إن صح ما فعله عثمان، ولم يكن بذلك مأثوماً[3].

ويعطى القاضى عبد الجبار الحق لعثمان فى ضربه لابن مسعود إن صح الخبر، إلا أنه يؤيد شيخه أبا على الجبائى فى أن واقعة الضرب لم تثبت، ويرى أنه من المحتمل أن بعض موالى عثمان هم الذين ضربوا عماراً لما سمعوا منه الوقيعة فى عثمان: «فأما أن يكون هو الذى ضربه أو أمر بضربه فلم يصح عندنا»[4].

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة. جـ٣، ص١٩٢.

(٢) محمد الصادق عرجون: الخليفة المفترى عليه. ص١٥٢.

(٣) التمهيد: ص ٢٢١. (٤) المغنى: جـ٢. قسم ٢، ص٥٣.

وفيما يتعلق بالعطاء، فإنه من المحتمل أن عثمان رأى من هو أحق منه أو لعله استغنى عنه، أو اعتقد فيه شبهة تمنع من حصوله عليه، أو لم يستحق أكثر مما أعطاه. وكل هذا مردود إلى اجتهاده. أما منعه العطاء لسنين فلم يثبت وحتى إن صح فلعله كره أن يأخذه أو لعل عثمان صرفه إلى غيره لأنه أولى منه وهو مصيب فى ذلك إذا أداه اجتهاده إليه: «ومثل هذا لا يثبت بأخبار الآحاد ولا يتوصل به إلى القدح فى الأئمة وفضلاء الأمة»[1].

وقد ذكر الحلى أن عثمان ضرب ابن مسعود حتى مات فيكذب ابن تيمية الخبر لأنه لما تولى عثمان الخلافة أقر ولاية ابن مسعود على الكوفة ولم يمت من ضرب عثمان، وحتى إذا فرض وقام عثمان بضرب عمار أو ابن مسعود فإن هذا «لا يقدح فى أحد منهم فإنا نشهد أن الثلاثة فى الجنة وأنهم من أكابر أولياء الله المتقين».

ليس هذا فحسب، ولكن ما حدث بين عثمان وابن مسعود ينبغى ألا نخوض فيه، بل من الأفضل الإمساك عنه وترك أمرهما إلى الله لأننا لا نسأل عن ذلك، فقد قال عمر بن العزيز: «تلك دماء طهر الله منها يدى فلا أحب أن أخضب بها لسانى»[2].

ويقول القاضى أبو بكر بن العربى: «أما ضربه لابن مسعود ومنعه عطاءه فزور»[3].

٣- جمع القرآن:

وأما جمع القرآن، فتلك حسنته العظمى، وخصلته الكبرى، وإن كان وجدها كاملة، لكنه أظهرها ورد الناس إليها، وحسم مادة الخلاف فيها. وكان نفوذ وعد الله بحفظ القرآن على يديه[4] لأن عثمان خشى من الأختلاف بين القراء وعدوان بعضهم على بعض، أو الطعن فى الدين ولم يكن أول من جمع القرآن لأنه جمع فى أيام الرسول ﷺ، وفى أيام أبى بكر وعمر أيضاً حيث جمع فى الجلود والخزف وغيرها ولم تكن الحاجة إلى جمعه ظاهرة قبل عثمان لأنه لم يحدث حينئذ اختلاف فى القراءة بين القراء. فليس جمعه معصية - كما يرى الشيعة - لأن العكس هو الصحيح «وليس من نص الكتاب أو السنة الثابتة أو إجماع الأمة أو حجج العقول ما يحظر جمع القرآن ويقضى على عصيان فاعله»[5].

فالثابت عن الأئمة جميعاً، أن أبا بكر كلف زيد بن ثابت ليتتبع القرآن ويجمعه

---

(١) التمهيد: ص٢٢١.
(٢) منهاج السنة: جـ٣، ص١٦٢.
(٣) العواصم من القواصم: ص٦٣.
(٤) المرجع السابق: ص٦١.
(٥) التمهيد: ص٢٢٢.

لكتابته الوحى لرسول الله ﷺ، وقد تتبع القرآن ! ـعه حتى وجد آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصارى حيث لم يجده مع غيره. وكانت الصحف عند أبى بكر وعمر ثم حفصة بنت عمر حتى حدثه حذيفة بن اليمان عن الاختلاف فى القراءة، ورجاه أن يدرك الأمة الإسلامية قبل أن تختلف فى كتاب الله اختلاف اليهود والنصارى، فطلب عثمان الصحف من حفصة بنت عمر لنسخها ثم ردها إليها، وأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقد أمرهم عثمان فى حالة الاختلاف أن يكتبوا بلسان قريش لأن القرآن نزل بلسانهم. فإذا ما انتهوا رد عثمان المصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أن يحرق[1].

يقول الطبرى: «فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية»[2].

وأما ما روى أنه حرق المصاحف إذا كان فى بقائها فساد، أو كان فيها ما ليس من القرآن، أو ما نسخ منه، أو على غير نظمه. فقد سلم له فى ذلك الصحابة كلهم باستثناء ما روى عن ابن مسعود أنه خطب بالكوفة فقال: «أما بعد فإن الله قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وإنى غال مصحفى، فمن استطاع منكم أن يغل مصحفه فليفعل». وقد أكرهه عثمان على رفع مصحفه ومحا رسومه فلم تثبت له قراءة أبداً، ونصر الله عثمان والحق بمحوها من الأرض[3].

ويضيف الباقلانى إلى ذلك أن ما حمل عثمان على حرق المصاحف، لو صح الخبر - لفعل ذلك للمصاحف التى حوت ما لا تحل قراءته، ونظراً لكون عثمان من أهل العلم غير معاند للنبى ﷺ، فإنه يجب أن يكون قد حرق ما يجب إحراقه ولم يرو عن أحد من الصحابة أنه قد استنكر هذا العمل منه بل شاهدوه دون أن يعترضوا عليه «وقد ثبت عدالة عثمان وطهارته، فلا متعلق فى ذلك»[4].

---

(١) أبو بكر بن العربى: العواصم من القواصم: ص٦٩، ٧٠.

(٢) الطبرى: جامع البيان فى تفسير القرآن. جـ١، ص٢١.

(٣) العواصم: ص٧١.

(٤) التمهيد: ص٢٢٢.

٤- حمى الحمى:

وكان النبى ﷺ قد اختص الحمى بإبل الزكاة المخصصة للجهاد والمصالح العامة حيث قال: «لا حمى إلا لله ورسوله»، وقد استمر الحال كذلك فى خلافة أبى بكر، ثم اتسع الحمى فى زمن عمر بن الخطاب، ونهج عثمان منهجهما لا تساع رقعة الدولة وازدياد الفتوحات فى عهده. وقد دافع عثمان عن نفسه فى مسألة الحمى أمام جمع من الصحابة فأعلن لهم أنه اقتصر فى الحمى على صدقات المسلمين لحمايتها، أما دفاعه عما قد يلصق به فى هذا الموضوع، فقد أوضح لهم أنه كان أكثر العرب بعيراً وشاه، ثم أمسى وليس له غير بعيرين لحجه. ثم سأل من يعرف ذلك من الصحابة فأيدوه على صدق حديثه «ولهذا فإن عثمان زاد فيه لما زادت الرعية، وإذا جاز أصله للحاجة إليه جازت الزيادة لزيادة الحاجة»[1].

ولما كان أبو بكر وعمر قد حميا دون أن ينكر عليهم أحد ذلك، فإن عثمان وسع الحمى لكثرة إبل الصدقة وماشيتها وكثرة الخصومات بين رعاة ماشية الصدقة فلا إثم عليه[2].

٥- أجلى أبا ذر إلى الربذة:

٦- وأخرج أبا الدرداء من الشام:

كان أبو ذر زاهداً، وكان يهاجم عمال عثمان فيتلو عليهم: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[3]، وينكر عليهم ما توسعوا فيه من المراكب والملابس وقد اصطدم لهذا السبب بمعاوية فى الشام، فلما قابله عثمان قال له: «لو اعتزلت» فقصد إتقاء الفتنة التى قد تحدث من صدامه مع ولاته، لأن فى كلام أبى ذر ما يقتضى إما أن يفر بنفسه لئلا يثير المنازعات، وإما مسلم لكل بماله مما ليس بحرام فى الشريعة.

وقد خرج أبو ذر إلى الربذة زاهداً فاضلا[4].

وعلى هذا النحو من تفسير هذه الحادثة يمضى الباقلانى فيقول بأنه اختار الخروج إلى الربذة ولم يبعد إليها كما تروى أخبار الشيعة بالباطل[5]:

---

(١) العواصم: ص٧٢، ٧٣.

(٢) التمهيد: ص٢٢٢.

(٣) الآية رقم ٣٤ من سورة التوبة.

(٤) العواصم: ص٧٤.

(٥) التمهيد: ص٣.

أما القاضى عبد الجبار فيذهب إلى أن خروج أبى ذر إلى الربذة لم يكن ظلماً له بل ربما كان إشفاقاً عليه حتى لا يلحقه ضرر من أهل المدينة لما كان يعلنه من آراء[(١)].

أما ابن تيمية فإنه يتوسع فى المعنى الفقهى لحق الأموال، ويعتبر أبا ذر غير محق فى الحجج التى أوردها من الكتاب والسنة حيث جعل الكنز ما زاد عن الحاجة. وقد استشهد ابن تيمية بحديث للرسول ﷺ وأقوال الصحابة، ويرى طبقاً للتعريف الذى أورده بعض الصحابة أن الكنز هو المال الذى لم تؤد حقوقه. كما استند إلى تقسيم الله للمواريث فى القرآن، مما كان من شأن بعض الصحابة الذين امتلكوا المال سواء من المهاجرين والأنصار، بل إن أكثر من واحد من الأنبياء كانوا يمتلكون أموالا. وتفسير أبى ذر: «يريد أن يوجب على الناس ما لم يوجب الله عليهم ويذمهم على ما لم يذمهم الله عليه مع أنه مجتهد فى ذلك مثاب على طاعته رضى الله عنه كسائر المجتهدين من أمثاله»[(٢)].

والدليل على أن أبا ذر قد اختلف فى التفسير مع معاوية دون أن يؤدى هذا الاختلاف إلى أبعاده قسراً كما تزعم الروايات، أن معاوية قد عرف بحلمه وصبره، فإذا كان قد استفز ولجأ إلى الشكوى من أبى ذر، فلابد أن السبب كان خطيراً حيث قدره معاوية فى ضوء تجربته فى حكم أهل الشام.

وقد وقر عثمان أبا ذر لأنه كتب إليه مباشرة ليقدم إلى المدينة بقول: «أقبل إلينا فنحن أرعى لحقك جوار لك من معاوية» فأطاعه وقدم إلى عثمان، فخلاصة القصة كيفما صورت لا تخرج إذا عن أنها: «مظهر من مظاهر تقرير سلطان الرياسة العليا للدولة وتوطيد دعائم الحكم، ولوناً من ألوان سياسة الأمة»[(٣)].

وكذلك الحال فى قصة أبى الدرداء. فإنه كان زاهداً فاضلا، حاول تطبيق ما كان يفعله عمر بن الخطاب فى قوم لم يحتملوا هذه الطريقة، فلما عزل خرج إلى المدينة: «وهذه كلها مصالح لا تقدح فى الدين، ولا تؤثر فى منزلة أحد من المسلمين بحال»[(٤)].

٧- رد الحكم بعد أن نفاه الرسول ﷺ:

إن هذا الخبر قد أنكره الكثيرون قائلين أن الحكم استأذن فى الخروج إلى أهله فأذن له رسول الله ﷺ كما حدث اختلاف فى رواية الطرد. منها أنه كان يحاكى الرسول ﷺ فى

(١) المغنى: جـ٢٠ـ قسم٢، ص٥٥. (٢) ابن تيمية: منهاج السنة. جـ٣، ص١٠٨ و١٩٩.

(٣) صادق عرجون: الخليفة المفترى عليه. ص٩٩ و١٠٠.

(٤) العواصم: ص٧٧.

مشيته أو يحاكيه خلف الصفوف[1].

وروى أيضاً أن عثمان طلب رده من أبى بكر وعمر لأنه كان قد استأذن رسول الله ﷺ فأذن له، ولكن الخليفتين طلبا منه شاهداً آخر معه، فلما لم يجد هذا الشاهد وولى الحكم بعد ذلك رده بعمله وهو مما يجوز له فعله كحاكم[2].

وما كان عثمان ليصل مهجور رسول الله ﷺ ولو كان أبوه، ولا لينقض حكمه[3].

ولا يكتفى ابن تيمية بالطعن فى مصادر الخبر، لأنه ليس فى الصحاح ولا يعرف له إسناد، بل يحلل معناه، ولا يراه طرداً من مكة إلى المدينة - إن صحت الرواية - لأن الحكم بن العاص كان من مسلمى الفتح وكان ابنه مروان صغيراً إذ ذاك، ولم يكن الطلقاء يسكنون بالمدينة فى حياة النبى ﷺ، فإن صح الطرد فقد يكون طرده من مكة لا من المدينة وإن طرده من المدينة لنفاه إلى مكة، كل هذا من أن كثيراً من أهل العلم طعنوا فى صحة الرواية قائلين أنه ذهب باختياره. ويقول: «وإذا كان النبى ﷺ قد عزر رجلا بالنفى لم يلزم أن يبقى منفياً طول الزمان فإن هذا لا يعرف فى شىء من الذنوب ولم تأت الشريعة بذنب يبقى صاحبه منفيا دائماً بل غاية النفى المقدر سنة وهو نفى الزانى والمخنث حتى يتوب»[4].

فإذا كان قد نفاه الرسول ﷺ فإن ذلك قد تم فى آخر الهجرة ولم تطل مدته بخلافة أبى بكر وعمر لقصرها ولكنها طالت فى عهد عثمان. وقد حدث أن شفع عثمان فى عبد الله بن أبى سرح إلى النبى ﷺ وكان قد أهدر دمه لارتداده عن الإسلام بعد أن كان كاتباً للوحى، فأذن له. وهذه الرواية ثابتة بالإسناد، فكيف يقبل الرسول ﷺ العفو عن عبد الله بن أبى سرح - وهذا ذنبه - ولا يأذن لعثمان برد الحكم مع أن ذنبه دون ذنب الأول؟

ومع ما عرف من فضائل عثمان التى تقطع بأنه من أولياء الله المتقين، فإنه كان مجتهداً فى رد من نفاه النبى ﷺ لما تبين له توبته بينما لم يتبين لأبى بكر وعمر توبته، وأن أقصى ما يمكن أن يتحمل مسئوليته عثمان هو الخطأ فى الإجتهاد. ومع هذا فإن نقل الخبر لا يعرف له إسناد ولا كيف وقع، بل هى تهمة تلقى على عاتق عثمان بواسطه الشيعة ابتغاء الفتنة[5].

---

(١) التمهيد: ص٢٢٣.

(٢) التمهيد: ص٢٢٣

(٣) العواصم من القواصم: ص٧٧.

(٤) منهاج السنة: جـ٣، ص١٩٦

(٥) المصدر السابق: ص١٩٧.

٨- إبطال سنة القصر فى الصلوات فى السفر:

إن النبى ﷺ كان يتم الصلاة أثناء السفر تارة ويقصر تارة أخرى. وكانت السيدة عائشة تفعل ذلك وغيرها من الصحابة فلم يعترض أحد حينئذ فهو إذا قول باطل عن عثمان وهو دليل على العناد فى خصومته وكان استناد عثمان فى إطالة الصلاة على سببين:

أحدهما قوله: «كان أهلى بمكة فصرت فى حضر وخرجت عن حكم المسافر» والثانى: «بلغنى أن العرب انصرفت إلى مياهها وصلت ركعتين وقالت: إن الصلاة قصرت فخفت دخول الشبهة عليهم»[١].

فترك القصر إذاً اجتهاد من عثمان، إذ سمع افتتان الناس بقصر الصلاة حتى أدوها أيضاً فى منازلهم لا فى السفر وحده، ورأى أن هذه السنة قد تؤدى إلى إسقاط الفريضة نفسها فتركها خوف الذريعة[٢].

٩- تولية:

(أ) معاوية.

(ب) عبد الله بن عامر بن كريز.

(جـ) مروان بن الحكم.

(د) الوليد بن عقبة.

(أ) معاوية:

إن معاوية كان من أمراء عمر ولم يعترض عليه أحد فى زمان عمر[٣] وقد جمع عمر الشامات كلها واستمر فى أيام خلافة عثمان، بل إن الذى ولى معاوية هو أبو بكر الصديق لأنه كان قد ولى أخاه يزيد فى الشام فلما استخلفه يزيد لم يعترض على ذلك أبو بكر، وجاء عمر فأقر ولاية معاوية[٤].

وكانت سيرة معاوية مع رعيته من خيار سير الولاة، لأنهم كانوا يحبونه ويحبهم، وقد ظهرت الأحداث بعد قتل عثمان حيث شملت الفتنة أكثر الناس دون أن يختص بها معاوية وحده «وكان معاوية أطلب للسلامة من كثير منهم وأبعد من الشر من كثير منهم»[٥].

(١) التمهيد: ص٢٢٣و ٢٢٤.
(٢) العواصم: ص٧٨، ٧٩.
(٣) التمهيد: ص٢٢٤.
(٤) العواصم: ص٨٠، ٨١.
(٥) منهاج السنة: جـ٣، ص١٨٩.

(ب) عبد الله بن عامر:

إن من أظهر مزايا عبد الله بن عامر افتتاحه خراسان كلها، وأطراف فارس، وسجستان وكرمان كما قضى على يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس. ولهذا فقد أحرق قلوب أهل النزعة المجوسية فى الإسلام فظلوا يحاربونه - كما حاربوا عثمان - بسلاح الكذب والدس والبغضاء. أما صادقوا الإسلام فهم يحبونه ويجلونه[١].

ولا عصمة لغير الأنبياء، فإذا أخطأ مثل عبد الله بن عامر فإنه حسناته الكبيرة تغفر له هفواته، وإذا فعل منكراً، فإنه يتحمله وحده، ولم يرض عثمان بفعله[٢].

(جـ) مروان بن الحكم:

إن مروان من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين[٣].

وكان ابن المطهر الحلى قد أخذ على عثمان توليته مروان أمره وأنه ألقى إليه مقاليد أموره ودفع إليه خاتمه وحدث بسبب هذا قتل عثمان وما وقع من فتنة بين الأمة[٤]، ولكن ابن تيمية فى جوابه على هذا يعلل قتل عثمان والفتنة بصفة عامة - لا لسبب مروان واحده - ولكن لأسباب عديدة تجمعت وتكاثفت، ومنها أمور تنكر من مروان بن الحكم. وقد يرجع السبب أيضاً إلى كبر سن عثمان، فكان الولاة أحياناً يعلمونه بما يفعلون وأحياناً أخرى لا تصل هذه الأخبار إلى مسمعه، فلما تقدم المفسدون الذين أرادوا قتله أزال لهم أسباب شكواهم، فعزل من يريدون عزله، وأعطى مفاتيح بيت المال لمن يختارونه، وتعهد ألا تصرف أية أموال من بيت المال إلا بعد مشاورة الصحابة وموافقتهم.

فلما اتهموا مروان بأنه كتب الكتاب الذى يحض على قتلهم - بعد إنكار عثمان أنه صدر منه - طلبوا تسليمهم مروان، فأبى. وكان عثمان محقاً فى هذا، لأنه إن كان مروان قد أذنب بما أراده من قتلهم، فإن هذا الفعل - أى قتلهم - لم يتم؛ فلا ينبغى قتله إذاً لهذا السبب، وإنما يكفى تأديبه بأية وسيلة «أما الدم فأمر عظيم»[٥].

ويحقق الشيخ محمد صادق عرجون هذه المؤامرة كما أوردها الطبرى، ولا يخرجها عن احتمالين: الأول، أنه لم يكتب هذا الكتاب قط وإنما هو مجرد أكذوبة افتراها المفترون وتصايحوا فى المدينة ليؤلبوا العامة، ومما يؤيد هذا الاحتمال قول علي بن أبى طالب: «هذا

(١) العواصم: هامش ص٨٤.
(٢) منهاج السنة: جـ٣، ص١٩٠.
(٣) العواصم من القواصم: ص٨٦.
(٤) منهاج السنة: جـ٣، ص١٩٠.
(٥) منهاج السنة: جـ٣، ص١٩٠.

أمر أبرم بالمدينة». والاحتمال الثانى: أن هذا الكتاب كتبه الثائرون أنفسهم ودبروا المؤامرة بكامل تفاصيلها من النقش على خاتم عثمان إلى سرقة إبل الصدقة وإغراء غلام عثمان أو مروان، ويؤيد هذا الاحتمال أن هذا الراكب كان يتعمد التعرض للتأثرين أثناء رجوعهم ثم يفارقهم تارة أخرى ليثير انتباههم. فمما لا يتصور عقلا أن يولى عثمان محمد بن أبى بكر مصر ويبعث معه جماعة من المهاجرين والأنصار ثم يأتى مروان أو غيره لينقض ما أبرمه الخليفة ويكتب كتاباً يأمر فيه بقتلهم، وهو الأمر الذى أثار تساؤل على ابن أبى طالب حين سأل الثائرين: «كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر، وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا؟» ولهذا السبب استنتج أن المؤامرة أبرمت بالمدينة كما تقدم. وكانت إجابتهم له: فضعوه كيف شئتم. لا حاجة لنا فى هذا الرجل، ليعتزلنا وظهرت نيتهم المبيتة:

فهو إذا تدبير خبيث كان لحزب السبئيين فيه اليد الطولى، لتقويض الخلافة الإسلامية وتفريق شمل الأمة.

ولا يستغرب ما حدث من تزوير الكتاب على عثمان لأنه سبق أن زور على السيدة عائشة كتاب الخروج على عثمان، وعلى عمر بن الخطاب لاختلاس المال من بيت مال المسلمين، كما روى ابن عساكر والبلاذرى[1].

(د) الوليد بن عقبة:

روى بعض المفسرين أن الله سماه فاسقاً: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾[2]. عندما أرسله النبى ﷺ إلى بنى المصطلق، فأخبر عنهم ارتدادهم، ولكن خالد بن الوليد قد تثبت من الأمر فتبين له بطلان قول الوليد، واختلفت الرواية من ناحية أخرى؛ إذ أن الوليد كان صبياً يوم الفتح، وعلى هذا فإن من يكون فى هذه السن لا يوفد فى مهمة كهذه «وبهذا الاختلاف يسقط العلماء الأحاديث. وكيف يفسق رجل بمثل هذا الكلام؟ فكيف برجل من أصحاب محمد ﷺ»[3].

ولكن ابن تيمية يميل إلى تصديق التفسير الأول، ويأخذ دفاعه وجهة أخرى، فيرى أنه إذا كان أمره قد خفى عن رسول الله ﷺ فكيف لا يخفى على عثمان؟ وقد ولاه عثمان بعد أن تاب لأن باب التوبة مفتوح. وإن أقصى ما يقال عن عثمان أنه ولاه مع وجود

(١) الخليفة المفترى عليه: ص٨٧ - ٩٠.
(٢) الآية رقم ٦ من سورة الحجرات.
(٣) العواصم: ٩٠ - ٩٣.

الأفضل منه، ولكن عذر عثمان في هذا أنه حين ولاه لم يظهر عليه ما يدل على الفسق - كشرب الخمر - وإن ظهر بعد ولايته، وقد أقام عليه الحد في شرب الخمر؛ وتوليته كان اجتهاداً من عثمان وميلا لأقاربه مما لا يقدح فيه لأنه ظن أنهم أحق من غيرهم[1].

١٠- أعطى مروان خمس أفريقية:

إن هذا الخبر لم يصح، ولكن الذي صح هو أن عثمان أعطى خمس الخمس لعبد الله بن أبي سرح جزاء جهاده في غزو أفريقية «وقد ذهب مالك وجماعة إلى أن الإمام يرى رأيه في الخمس، وينفذ فيه ما أداه إليه اجتهاده، وإن أعطاه لواحد جائز»[2].

ولكن الشيخ صادق عرجون يرى أنه بعد أن فتح أبو سرح أفريقيا وغنم مغانم كثيرة قسمها على الجند وأرسل الخمس من الذهب إلى الخليفة وكان خمسمائة ألف دينار. ولما بقي من الخمس ما لا يمكن نقله اشتراه مروان ابن الحكم بمائة ألف درهم وسدد أكثر هذا المبلغ، إلا أن عثمان وهب له مالا بدفعه وكان قليلا وذلك عندما بشره بخبر الفتح لأفريقيا، وكان المسلمون جميعاً مشغولين بهذا الغزو لبعده عن بلاد العرب، وهذا من حق الإمام، فقد نفل أبو بكر خالداً بن الوليد قلنسوة الهرمزان وكانت تقدر بمائة ألف[3].

١١- وكان يضرب بالعصا بينما ضرب عمر بالدرة:

. وهذا اتهام باطل أيضا[4]، ويكشف عن تخبط المهاجمين لعثمان، فهو أحياناً في نظر الثائرين ضعيف مستضعف، لأنه سلم زمام الأمر إلى ابن عمه مروان بن الحكم وبعض أقاربه، وهو في زعمهم أيضاً قاسياً شديد القسوة يضرب بالعصا. وإن صح هذا فإنه قد «أدب، ببعض طرائف الأدب الفني يوجبه عليه منصبة ومكانه من المسلمين، بعض من رأى تأديبة ولأنه ساس بعض رعيته سياسة تدفع عن الأمة ضرراً محققاً لو تركت الأمور للمصادفات»، ولم يبتدع عثمان أمراً جديداً في هذا التأديب، بل سبقه إليه عمر بن الخطاب الذي خفق سعد بن أبي وقاص بالدرة حينما إقتحم المكان عليه غير هياب. كما قص من عمرو بن العاص لرجل من رعيته، وأمر عمر أبا موسى الأشعري أن يجلس لرجل من رعيته ليقتص منه - بل عزل بعض الولاة والقواد الكبار وأحل مكانهم غيرهم. فكيف يكون التصرف هنا مباحاً لا يعترض عليه، وبالنسبة لعثمان بطشا وقوة وشدة بأس[5]؟

---

(١) منهاج السنة: جـ٣، ص١٨٧.
(٢) العواصم: ص١٠٠ - ١٠١.
(٣) المصدر السابق: ص٩٦.
(٤) الخليفة المفترى عليه: ص٩٧، ٩٨.
(٥) العواصم من القواصم: ص١٠٢.

١٢- علا على درجة الرسول ﷺ وقد انحط عنها أبو بكر وعمر:

لم يثبت هذا أيضاً عن عثمان، وحتى إن صح فإنه لا يحل معه دم عثمان لأنه إذ هداه اجتهاده إلى أن الصعود فيه مصلحة، وأكثر رهبة للعدو، وأبلغ للقول، وأقمع للطامع فى إذلال الإمام، جاز له أن يفعل ذلك.

ومن المعلوم أن عثمان لم يتقدم عن أبى بكر وعمر فضلا عن الترفع عن النبى ﷺ[١]، بل كان مسجد الرسول ﷺ ضيق المساحة أثناء خلافة أبى بكر وقد وسعه عمر بن الخطاب. ثم زاد فى مساحته عثمان لازدياد عدد المصلين، ومن الجائز أن عثمان قد ارتفع بالمنبر لما رآه من ضرورة ذلك، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة هذا التصرف[٢].

١٣- لم يحضر بدراً، وانصرف يوم حنين وغاب عن بيعة الرضوان:

تقف مصادر أهل السنة[٣] فى صف واحد فى مواجهة هذه الوقائع الثلاثة، وتستند فى دفاعها على نفس الحجج، فإن سبب تغيبه عن موقعة بدر هو مرض بنت رسول الله ﷺ - وهى زوجة عثمان - وكان صلوات الله عليه يقول: «إن قوماً بالمدينة تخلفوا وما تخلفوا عما نحن فيه». وقد عرف من حوله حينئذ أنه يقصد عثمان، لأن الرسول ﷺ جعل لعثمان فضل المحاربين وضرب له سهمه من غنيمة بدر.

أما إذا كان قد تخلف بغير عذر مقبول، لا ستحق الذنب والتنبيه على سوء فعله «وهذا عائد بالطعن على النبى ﷺ بالتهمة دون غيره»[٤].

أما عن يوم حنين، فمن الثابت أنه لم ينصرف انصراف المنهزم، وإنما كان متحرفاً لقتال ومنتهزاً لفرصة، وقد روى أن ما بقى مع الرسول ﷺ فى هذا اليوم عمه العباس وابنيه عبيد الله بن العباس وقثم، أو نفر يسير فى خبر آخر، وقد اشترك فى الانصراف باقى الصحابة، فلم يقع هذا الذنب على عاتق عثمان وحده، ومع هذا فإنه قال: «فإن كان الأمر على ما وصفتم، فقد عفا الله عنى وعن المنصرفين»[٥] حيث يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ

---

(١) التمهيد: ص٢٦.	(٢) العواصم: ص١٠٣ والهامش.

(٣) صحيح البخارى: التمهيد للباقلانى. العواصم من القواصم، منهاج السنة.

(٤) التمهيد: ص٢٢٧.	(٥) التمهيد: ص٢٢٦.

عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾[2].

أما القول بأنه تغيب عن بيعة الرضوان فهو دليل على الرغبة في اللجاج بل والجهل أيضاً بالمقصود بهذه البيعة، ذلك لأن رسول الله ﷺ قد أوفده إلى مكة ليحمل رسالة إلى أهلها، وقد اختاره دون غير لأن له شوكة تحميه هناك، وهم بنو أمية من أشراف مكة، فلما وصلت أخبار تفيد قتلهم عثمان، أخذ النبي ﷺ البيعة من الصحابة للقتال حيث قال: «والله لئن كانوا قتلوه لأضر منها عليهم ناراً»، ثم أخذ البيعة له قائلا: «هذه شمالي عن يمين عثمان، وهي خير له من يمينه».

ولهذا كان عثمان سبباً في بيعة الرضوان وغضب الرسول ﷺ، فكيف يكون يتأخره عنها منقوصاً[3]؟

١٤- لم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان:

لم يترك عثمان قتل عبيد الله إلا بعد أخذ المشورة، وكانت هذه المشورة تنصح بألا يقتل لأن أباه قتل من قبل، فإذا قتل عبيد الله أيضاً فسيتحدث به الناس جميعا، وفي ذلك ما يوهن من شأن الدين ويذل سلطان المسلمين، لما له من وقع في غير بلاد الإسلام.
يقول القاضي عبد الجبار: «وللوالي أن يعفو كما له أن يقتل، فجاء لعثمان أن يعفو، ولم يفعل إلا ما جاز له،و روى أنه سأل المسلمين أن يعفو وأن يتركوه فأجابوه إلى ذلك وإنما أراد عثمان بترك قتلة وبالعفو عنه ما يعود إلى عز الدين، لأنه خاف أن يبلغ العدو قتله، فيقال: قتلوه وقتلوا ولده»[4].

ومن الجائز أن بعض الصحابة كانوا يرون الاقتصاص من عبيد الله بقتله كما قتل الهرمزان، ولكن عثمان لم يشاركهم هذا الرأي خشية ما يمكن أن يتكرر من أفعال بواسطة أشخاص مثل الهرمزان فيستهان بالأئمة، ويتوثب عليهم قتلا[5].

وكان الهرمزان من المحاربين في صفوف كسرى ضد المسلمين، فلما أسره المسلمون وجيء به إلى عمر أعتقه.

وللموضوع سابقة تجعل عبيد الله يقع في الشبهة، لأن عبد الله بن عباس – وهو

---

(1) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.
(2) سورة التوبة: الآية ٢٧.
(3) التمهيد: ص٢٢٧.
(4) المغني: جـ٢٠، قسم ٢، ص٥٦.
(5) التمهيد: ص٢٢٤.

أفقه من عبيد الله بن عمر وأدين وأفضل بكثير - قد استأذن فى قتل الفرس الذين يحضرون إلى المدينة جميعاً عندما شاع منهم الفساد، فكيف لا يعتقد عبيد الله جواز قتل الهرمزان[1]؟

وكما اختلف الفقهاء فى قتل المشتركين فى قتل الأشخاص العادين، تنازعوا أيضاً فى قاتل الأئمة - هل يقتل قاتلهم حداً أو قصاصاً؟ فهم من المفسدين فى الأرض، وفسادهم أكبر من قاطعى الطرق الذين يجب قتلهم «وعلى هذا خرجوا فعل الحسن بن على رضى الله عنهما لما قتل ابن ملجم قاتل على وكذلك قتل قتلة عثمان»[2].

ولهذا السبب أيضاً يجب قتل الهرمزان لإعانته على قتل عمر. وإذا كان عبيد الله بن عمر قد قتله بنفسه، دون أن يترك لولى الأمر قتله، فقد فعل هذا متأولا بشبهة، فتدرأ هذه الشبهة القصاص عنه. كما حدث مع أسامة بن زيد فقد عزره رسول الله ﷺ بالكلام لقتله رجلا بعد قوله لا إله إلا الله لأنه كان متأولا. وتأويل عبيد الله أصبح بالمثل شبهة تمنع من وجوب القصاص منه.

واستشهاداً بالحديث الذى رواه مسلم ونصه: «من جاءكم وأمركم على رجل واحد يريد أن يفرق جماعتكم فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان»، يرى أبن تيمية أنه ﷺ أمر بقتل الواحد المريد تفريق الجماعة، ومن قتل إمام المسلمين فقد فرق جماعتهم[3]. فإذا كان قتل الأئمة - عمر وعثمان وعلى يعتبر محاربة لله ورسوله وفساد فى الأرض، كذلك الذين يشتركون فى القتل - كالهرمزان يجب قتلهم أيضا - ولهذا يحل قتله لإعانته على قتل عمر[4].

مما يثير دهشة ابن تيمية الدفاع عن الهرمزان، هذا الذى اشترك فى قتل عمر، بينما لا يجعل لدم عثمان حرمة، وهو إمام المسلمين[5].

١٥- الكتاب الموجه إلى ابن أبى سرح لقتل المذكورين فيه:

إن الغلام لم يكن غلامه وإنما هو أحد رعاة إبل الصدقة، ولكثرتهم وتبدلهم، فإن

---

(١) منهاج السنة: ج٣، ص٢٠٠.
(٢) منهاج السنة: ج٣، صفحة ٢٠٠.
(٣) منهاج السنة: صفحة ٢٠١.
(٤) منهاج السنة: ج٣، صفحة ٢٠٢.
(٥) منهاج السنة: ج٣، ص٢٠٢.

رؤساءهم لا يعرفونهم فضلا عن أمير المؤمنين. ومن اليسير استئجاره بواسطة أحد الثائرين لتحقيق أغراضهم، لا سيما وأن اثنين ممن كانوا على رؤوسهم - وهم الاشتر وحكيم بن جبلة - تخلفا في المدينة بعد أن اقتنع أهل الأمصار بدفاع عثمان عن نفسه، وعز عليهما أن تخمد الفتنة على هذا النحو، وتعود الطوائف من حيث أتت، فدبرا أمر هذا الكتاب. وهما صاحبا مصلحة في تجديد الفتنة[1].

وقد طلب عثمان من الثائرين أن يقيموا شاهدين، وحلف لهم بأنه لم يكتب هذا الكتاب - وهو الصادق المعروف بصدقه - ورفض تسليم مروان لانه لو سلمه لهم لكان ظالماً إذ ينبغي أن يطلبوا حقهم عنده على مروان أو سواه «وأمثل ما روى في قصته أنه تألب عليه قوم لأحقاد اعتقدوها، ممن طلب أمراً فلم يصل إليه»[2]، وكان على رأس هؤلاء جميعاً الغافقي المصري وكنانة ابن بشر التجيبي و هما من أتباع ابن سبأ، وسودان بن حمران الذي تسور دار عثمان، وكان آتياً من اليمن قائداً لأحدى فرق الفتنة، وعبد الله الخزاعي، وحكيم ابن جبلة الذي عرف عنه تخلفه عن الجيوش، وإغارته على أهل الذمة فشكوه إلى عثمان، فأمر بألا يخرج من البصرة، فحملها في نفسه ثم كان عوناً لابن سبأ، ومالك بن الحارث الأشتر الذي عرف أيضاً بمساهمته في الفتن. فهم جميعاً من ذوي الأحقاد والضغائن، ولم يسلم أحدهم من النقائص - سواء النفاق أو الاشتراك في الفتن.

ومما يثبت أن نيتهم كانت مبيتة على قتله قبل العثور على الكتاب، أنه كان يناقشهم فيما حملوه عليه من نقد، فرد عليهم وأجابهم على كل ما استفسروا بشأنه: «فأخذوا ميثاقه، وكتبوا عليه شرطاً أو خمساً أن المنفي يعاد، والمحروم يعطى، ويوفر الفيء، ويعدل في القسم، ويستعمل ذوو الأمانة والقوة، فكتبوا ذلك في كتاب، وأخذ عليهم أن لا يشقوا عصاً ولا يفرقوا جماعة»[3].

وبالرغم من كل هذا فقد أعادوا الكرة عليه احتجاجاً بالكتاب المزعوم، وأنكروا دفاعه عن نفسه بالرغم من ردوده المقنعة، مثل قوله: (أنشدكم الله، هل سمعتم رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس؟» ثم استشهاده بأمثلة أخرى، كقيامه بتوسيع المسجد بالمدينة،

(1) العواصم من القواصم: هامش ص١٥٦ لمحققه محب الدين الخطيب.

(2) العواصم من القواصم: ص١١١.

(3) العواصم: ص١٢٥.

وتجهيزه جيش العسرة، وشرائه البئر للمسلمين، وقيامهم بالتصديق على هذه الأفعال كلها، فسألهم: «فما بالكم تمنعوني الصلاة في المسجد؟ وما بالكم آمنون وأنا خائف؟»[1].

وإن ماضيهم لينبىء عن طول باعهم في الفتن، فقد أبعدوا من المدينة إلى الشام، فلما أبعدهم معاوية من الشام، انتهى بهم المطاف إلى الجزيرة، وكان أميرها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، الذي استطاع قمعهم وكان من أقواله لهم: «يا حزب الشيطان.. قد انصرف الشيطان محسوراً وأنتم في ضلالكم تترددون، أنا عبد الرحمن، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن فاقىء عين الردة، لم لا تقولون لي ما كنتم تقولونه لمعاوية وعبد الله بن عثمان؟[2]، وتوعدهم وساسهم بالحزم والشدة فأظهروا التوبة والندامة لطعنهم على عثمان، وجددوا التوبة على يد عثمان، فعفا عنهم، وتركهم يختارون البلاد التي يحبون الإيواء إليها، إلا أنهم عادوا هذه المرة يكيدون لعثمان، بصدور وغرة ونفوس حانقة لم يقنعوا إلا بالإصرار على قتل الخليفة الثالث.

وينفي ابن تيمية حادثة قتل محمد بن أبي بكر التي قيل أن عثمان قد أمر به في هذا الكتاب، إذ أن «كل ذي علم بحال عثمان وإنصاف له يعلم أنه لم يكن ممن أمر بقتل محمد بن أبي بكر وأمثاله ولا عرف عنه قط أنه قتل أحداً من هذا الضرب»[3].

وابن خلدون أيضاً ممن ينفون صدور هذا الكتاب عن عثمان، ويصف الثائرين عليه بأنهم من الغوغاء لم يكن مقصدهم كالظاهر من افوائهم، ولكنهم كانوا يضمرون قتله، لأنه بعد ما نفذ لهم ما يطالبون به رجعوا ثانية «وقد لبّسوا كتاب مدلس، يزعمون أنهم لقوه في يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم»[4].

١٦- إيثار أهله بالأموال:

ويرى القاضي عبد الجبار أن ما يدحض هذا الطعن هو أنه كان موثرا، فلا يستبعد أنه كان يعطي أهله من ماله الخاص[5].

أما ابن تيمية فإنه يورد مذاهب الفقهاء في الموضوع، وله تأويلات، أحدها: أنه ما أطعم النبي ﷺ طعمة إلا كانت طعمة لمن يتولى الأمر بعده، وأن ذوي القربى في حياته ﷺ ذوو قرباه، وبعد موته هم ذوو قربى من يتولى الأمر بعده. وكان لعثمان أقارب أكثر

(١) التمهيد: ص٢١٥.

(٢) التمهيد: ص٢١٤ و٢١٥.

(٣) منهاج السنة: جـ٣، ص١١٨.

(٤) المقدمة: ص٢١٦.

(٥) المغني: جـ٢٠، قسم ٢، ص٥١.

ممن لأبى بكر وعمر، وهم مما يستحقون من بيت المال مما جعله الله لذوى القربى، خاصة وأنهم يناصرون ولى الأمر ويدافعون عنه، وهذا ما لا يفعله غيرهم «فإن لم يكن الناس مع إمامهم كما كانوا مع أبى بكر وعمر احتاج ولى الأمر إلى بطانة يطمئن إليهم وهم لابد لهم من كفاية»[1] والتأويل الثانى: أنه كان يعمل فى المال وقد قال الله تعالى: ﴿ والعاملين عليها ﴾، وإذا كان العامل على الصدقة، وولى اليتيم، وناظر الوقوف يأخذون أجورهم فإن عثمان أيضاً يستحقه لأنه ولى المال[2].

١٧- زاد الآذان الثانى يوم الجمعة:

سمع على بن أبى طالب هذا الآذان ولم يعترض عليه أو ينكره، كما أنه لم يأمر بمنعه بعد أن صار خليفة. وإذا كان هذا بدعة، كما يرى ابن المطهر الحلى، لهان على علىّ إزالتها وهو الذى أمر بعزل معاوية وغيره. فإذا قيل أنه أمر بإزالة الآذان ولكن الناس لم يوافقوه على هذا، لدل على أنهم استحسنوه واستحبوا وفيهم أكابر الصحابة الذين لم ينكروه[3].

مقارنة بين موقف أهل السنة والشيعة:

إنه لأمر يدعو إلى التساؤل: كيف جمع الشيعة، أو الخوارج، أو هما معاً - لأن أغلب المراجع لا يبين لنا مصدرها - هذا الحشد الكبير من التهم الموجهة إلى عثمان، فنزعوا بها عنه كل فضيلة، ولم ينسبوا إليه قط أية حسنة، بل وقلبوا الفضائل إلى رذائل، كموضوع جمعه للقرآن. وجعلوا من خصومتهم للخليفة الثالث موضوع جدل أدخلوه ضمن حجاجهم العقائدى.

ويبدو لأول وهلة من مجرد تجميع هذه الأفعال المنسوبة إليه، والتى نقموا عليه من أجلها، وطعنوا فى إمامته بسببها - أن هذه العملية قد بلغت حدا يفوق التصور، إذ لم يميزوا بين الحسن والسيئ من الأفعال، بل كان الغرض حشدها وتجميعها، وفيها ما يعتبر من مفاخر عثمان لدى أهل السنة عند نسبتها إليه. فقد أخفى خصومه فضائله فى الفتيا والرواية والجهاد فى سبيل الله وانفراده بأن رسول الله قد بايع عنه وحده بيساره عن يمين عثمان فى بيعة الرضوان كما ذكرنا وله هجرتان وسابقة وصهر مكرر - لقب من أجله بذى النورين، وهو معدود من أهل بدر، ولو لم يحضرها.

---

(١) منهاج السنة: جـ٣، ص١٦١.

(٢) منهاج السنة: جـ٣، ص١٩١.

(٣) منهاج السنة: جـ٣، ص٢٠٤.

ويذكر له ابن حزم أيضاً فتوحاته في الإسلام، وعدم تشبثه بسفك دم مسلم، وهو من المبايعن تحت الشجرة الذين بشرهم الله تعالى: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾[1] مع أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعمار والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهم[2].

وهكذا، جمع ابن حزم - كما يفعل أهل السنة - بينهم جميعاً كصحبة واحدة فاضلة مع أن لعثمان خصلتين ليستا لأبى بكر ولا لعمر، صبره على نفسه حتى قتل، وجمعه الناس على المصحف[3]. وهو الذى قال عنه سيد التابعين - سعيد بن المسيب - (٩٣هـ - ٧٠٩م): «قتل عثمان مظلوماً، ومن قتله كان ظالماً، ومن خذله كان معذوراً»[4].

ويبدو أن موقف الشيعة والخوارج من عثمان، وإدخال هذه الشبهات ضمن المسائل الجدلية التى تحفل بها كتبهم، أدى إلى أن يجاريهم أهل السنة فيدافعون عن عثمان بنفس الحرارة، حتى أدخل الجدال فى كتب علم الكلام، إذ يتناولونه بالمناقشة والنقد والرد كما يفعلون فى المسائل الاعتقادية سواء بسواء، ولكن دون المساس بعلى أو الطعن فيه، فعلى عندهم له الفضائل والمعارف التى تفوق المألوف، وهو «ربانى هذه الأمة» كما لقبه الحسن البصرى، وهو أيضاً «أنشودة الإسلام الكبرى - لأنه كان خليفاً بكل محبة وإجلال وبكل صورة للهيام والعشق فى قلوب المسلمين»[5].

وعملا بطريقة أهل السنة فى الجدال، ينسب ابن حزم الفضائل إلى المسلمين الأوائل جميعاً، منذ بداية عهد المهاجرين والأنصار، إلى بيعة الرضوان، لأنهم مؤمنون صالحون كلهم، ماتوا على الإيمان والهدى والبر، مستشهداً بالآية: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾[6].

فالاختلاف إذا واضح بين هؤلاء وأولئك، ففريق يسرف فى التجريح والخصومة ويصل بها إلى أبعد مدى كما ذكرنا، بل ويفخر الخوارج «بقتل عثمان ويرون أن الإقرار بهذا العمل الذى كان حجر الزاوية فى الثورة هو بمثابة الشهادة»[7]، وفريق أهل السنة الذى «أعلن الحب وتولى الجميع»[8]، فينظرون إلى الصحابة نظرة متسامحة تتفق مع روح

(١) الآية رقم ١٩ من سورة الفتح.
(٢) ابن حزم: المفاضلة بين الصحابة. ص٣٦٣.
(٣) السيوطى: تاريخ الخلفاء: ص١٦٢.
(٤) السيوطى: تاريخ الخلفاء. ص١٥٧.
(٥) الدكتور النشار: نشأت الفكر. جـ٢. ص.
(٦) الآية رقم ١٨ من سورة الفتح.
(٧) فلهاوزن: الخوارج والشيعة: ص٣٢.
(٨) نشأة الفكر: جـ٢.

الدين وتعفو عن الهنات إن وجدت باعتبارها مواضع اجتهاد. وإذا اضطروا إلى الالتجاء إلى منهج المقارنة بين الصحابة، فعلوا ذلك للرد على الخصوم فحسب، لا لغرض آخر، وبرفق، لا يلبث أن ينسم عنه الاعتذار، بل ويفضلون عدم الخوض في الخلافات التي نشبت بينهم. قال عمر بن العزيز: «تلك دماء طهر الله منها يدي فلا أحب أن أخضب بها لساني»[1]

أما إذا اضطروا إلى ذكرها، فإن الدافع حينئذ هو أنه «إذا ظهر مبتدع يقدح فيهم بالباطل فلابد من الذب، عنهم وذكر ما يبطل حجته بعلم وعدل»[2]. وهنا يظهر المذهب الوسط لأهل السنة في أجلى صورة.

عثمان ونظرية خلع الإمام:

بعد أن انتهينا من إيضاح رد أهل السنة على الشبهات التي ألقيت على إمامة عثمان، ينبغي أن نتناول الموضوع من جانب آخر، لنرى إلى أي مدى يحق قتله وما هو موقف أهل السنة من خلعه، وهل يتفق الذي أقدم عليه الثائرون مع نظرية خلع الإمام؟

أول ما يلاحظ أن الوفود التي تأثرت بالفتنة عندما ذهبت إلى الخليفة الثالث تطلب طرد عامله على مصر ابن أبي سرح، رجعت من حيث أتت راضية مطمئنة. وهو ما يدل دلالة قاطعة على استجابة عثمان للرأي العام ورغبته في علاج أسباب الشكوى، فلم يتعنت مصراً على موقفه، فاختار لهم محمد بن أبي بكر حسب اختيارهم. وقد رفض عثمان بإباء أن يدافع عنه أحد ممن حوله وأمرهم جميعاً بأن يلقوا السلاح، كما رفض أن يترك دار هجرته وجوار الرسول صلوات الله عليه، فكان يضع نصب عينيه إتقاء شر الفتنة وما تجره على المسلمين، وتجمع أغلب المصادر على ذكر هذه الحقائق[3] مما دفع ببرو كلمان إلى إقرار هذه الحقيقة فقال: «مما لاشك فيه أن الخليفة أنكر أنه علم بالرسالة التي أطلعوه عليها، ولكنه طولب بالتنازل عن الحكم.. وقد رفض هذا التلميح بكراهة، وحوصر في بيته الذي تحرسه أقاربه وبعض العبيد والموالي»[4].

وقد ظهر تأثير التيارات الخارجية في الفتنة، إذ وجد أتباع ابن سبأ الفرصة سانحة لتأليب المسلمين على خليفتهم مدعين اغتصابه حق الخلافة من علي، ومن أهل السنة من

---

(١) منهاج السنة: جـ٣، ص١٩٢. (٢) منهاج السنة: جـ٣، ص١٩٢.

(٣) منها الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة. جـ١، ص٣٦، ٣٧ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٦١.

(٤) Histoire des Peuoles et des Etats Islamique (p.64).

يلقى التبعة على عبد الله بن سبأ وحده، ومنهم من علل الحركة بما يكنه الفرس من حنق وغيظ دفين على الإسلام. وسواء صح هذا الاحتمال أم ذاك، فالمصادر تشير إلى أصابع غريبة عن المعتقدات الإسلامية الخالصة التى كان يروج لها ابن سبأ. فقد نادى على بن أبى طالب «أنت أنت» فجعله إلهاً، ونفاه على هذا السبب إلى المدائن. كما أنه أول من «أشهر القول بالنص بإمامة على ومنه انشعبت أصناف الغلاة وزعموا أن علياً حى لم يقتل وفيه الجزء الإلهى[١] وتمتد دائرة المؤامرة فتشمل من أسلم من الفرس تظاهراً. يقول ابن حزم: «وكان العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً فتعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى»[٢]. وهكذا أظهر بعضهم الإسلام مستميلين أهل التشيع بإظهار محبتهم لآل البيت والطعن فى الصحابة، ومنهم الخليفة الثالث. ولا ينفى صحة وجود تيار غريب عن الإسلام. ما يراه فلهوزن حيث يقول: «بيد أنه يلوح أن مذهب الشيعة الذى ينسب إلى عبد الله بن سبأ أن مؤسسة إنما يرجع إلى اليهود أقرب من أن يرجع إلى الإيرانيين»[٣]، لأنه على أية حال - أشار إلى عامل خارجى للفتنة لم ينبع من المسلمين الخلص. وقد عملت هذه التيارات للنيل من الفكر الإسلامى الخالص بما أغرقت به طائفة السبئية كتب التفسير والحديث سعياً وراء هدم الإسلام «فاشتغلت به العقول بين رفض وقبول»[٤].

أما الصلة بين كل هذا وبين حق الثائرين فى خلع عثمان، فقد بحثه المتكلمون بعناية - ونقصد متكلمى أهل السنة ومن اتبع نفس استدلالاتهم. وموضوع خلع الإمام من النظريات التى انفرد بها أهل السنة عن الشيعة لأن العصمة لا تستتبع الوقوع فى الأخطاء والمعاصى وبالتالى لا ينتج عنها خلع الإمام. أما نظرية أهل السنة فى الإمامة التى تضع ضمن أسسها أن الإمامة تتم عن طريق الاختيار، عندئذ يصبح خلع الإمام فى الحالات التى توجب ذلك، موضع بحث ونظر. وقد ناقش المتكلمون موضوع خلع عثمان، وهل فعل حقاً ما يستحق الخلع من أجله؟ ثم من هم أصحاب الحق فى خلعه إذا صحت الشبهات؟

يرى الباقلانى أنه لم يصدر من عثمان ما يوجب القتل، ومن سعى فى قتله هم أهل فتنة دون حجة يستندون إليها. فإنه مع ما ثبت عن عثمان من فضائل، فضلا عن صحة إمامته وثبوت البيعة له. فإنه ينبغى الطاعة له وعدم الخروج عليه. ومع هذا، فإن ثبت أنه

---

(١) الشهرستانى: جـ٢، ص١١٥.
(٢) الفصل: جـ٢، ص١١٥.
(٣) الخوارج والشيعة: ص٢٤٤.
(٤) سعد حسن: المهدية فى الإسلام. ص٩٢.

فعل ما يستحق به الخلع، لم يكن مبيحا لقتله على النحو الذى فعله قتلته «لأن لم يحم داراً ويمتنع على المسلمين، ولا نصب الحرب بينه وبين من سار إليه»[1]، وكان لهم اختيار أحق الطريقتين - إما القبض عليه وإبعاده عن المدينة، أو خلعه لو كان مستحقاً للخلع. أما قتله دون أن يبدأهم بالحرب، فإنه لا محالة ظلم جائر، وخروج بقصد الفتنة.

وحتى لو استحق الخلع أو القتل، لما كان ينبغى أن يتم هذا أو ذاك بواسطة هؤلاء النفر الذين ساروا إليه لأنهم ليسوا من أهل الحل والعقد. ولا يحق للرعية إقامة الحد على أقل الناس قدراً فكيف بقتل عثمان؟ ولم يكن إذاً الغرض من اجتماع الثائرين إلا «لأجل إمرة طلبوها، ولأجل غيظ منهم على أمرائه، ولأن بعضهم كان طفلا فى حجره، ولأن بعضهم حرمه بعض طلبه»[2] وكانت مصلحة المسلمين العليا بعيدة تماماً عن أذهانهم.

وينقل لنا القاضى عبد الجبار رأى شيخه أبى على وخلاصته أنه لو كانت المطاعن صحيحة لوجب أن يطلبوا رجلا ينصب للإمامة لأنه متى ظهر من الإمام ما يوجب خلعه ينبغى إقامة غيره «فلما علمنا أن طلبهم لإقامة الإمام كان بعد قتله، ولم يكن من قبل. والتمكن قائم، فذلك من أدل الدلالة فى الجملة على بطلان ما أضافوه إليه من الأحداث»[3].

ولم يؤد الثائرون دور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما يزعمون، لأن قتلهم لعثمان أدى إلى تفرق الأمة وإيقاد نار الفتنة، ولم يستحق عثمان أن يقتل وتحرق داره وينهب تراثه. حتى لو استحق القتل بأحد الأسباب الموجبة له، كالارتداد عن دينه أو الزنى بعد الإحصان. فلا شك أن قتله بهذه الصورة كان ظلماً بيناً، وأن واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو مهمة أماثل من أهل الحل والعقد[4].

وإذا قال الخوارج أن هذه الأحداث وقعت فى الست الأواخر من حكم عثمان، فإن الرد عليهم يتضمن أنه كان ينبغى الخلع منذ بداية ما حدث «وألا ينتظر حصول غيره من الأحداث، لأنه لو وجب انتظار ذلك لم ينته إلى حد وينتظر غيره. وذلك يؤدى إلى ألا يقطع أبداً»[5].

بقى بعد هذا أن نذكر صدى مقتل عثمان فى قلوب المسلمين. فقد بكوه طويلا، كما

---

(1) التمهيد: ص٢١٣.

(2) التمهيد: ص٢١٤.

(3) المغنى: جـ٢٠، قسم ٢، ص٤١.

(4) التمهيد: ص٢١٤.

(5) المغنى: جـ٢٠، قسم ٢، ص٤٢.

فعلوا حين قتل على بعده، ونظمت فى رثائه القصائد، اخترنا منها ما قاله كعب بن مالك لأنه يلخص وجهة نظر أهل السنة. قال:

فكف يديه ثم أغلق بابه وأيقن أن الله ليس بغافل

وقال لأهل الدار لا تقتلوهم عفا الله عن كل امرئ لم يقاتل

فكيف رأيت الله صب عليهم الـ ـعداوة والبغضاء بعد التواصل؟

وكيف رأيت الخير أدبر بعده عن الناس إدبار الرياح الجوافل[1]؟

والحق أن مقتل عثمان هو أحد حادثتين بارزتين كان لهما التأثير البالغ فى انفراط عقد الجماعة الإسلامية، إذ يعتبر حادثة اغتيال الخليفة الثالث ممهدة للحادث الجلل الثانى، وهو استشهاد على بن أبى طالب.

وننتقل بعد هذا إلى عرض خلافة على بن أبى طالب وما أحاط بها من أحداث، إذ نرى لزاماً علينا توضيحها بشىء من التفصيل، لأنها كانت موضع بحث وعناية مفكرى الإسلام، وترددت أصداؤها فيما بعد فى أبحاث الفقهاء والمتكلمين وتناولتها كافة الفرق الإسلامية بالتحليل والتفنيد.

(١) السيوطى تاريخ الخلفاء. ص١٦٤

الفصل الخامس
خلافة على بن أبى طالب
(٤٠هـ - ٦٦٠م)

* تمهيد
* الصعوبات التى واجهت استخلاف على رضى الله عنه.
* البيعة لعلى بن أبى طالب.
* نظرة تحليلية.. لموقف طلحة والزبير من بيعتهما لعلى.
* أم المؤمنين عائشة والفتنة.
* موقعة الجمل..
وانتهاؤها بندم طلحة والزبير وأم المؤمنين.
* تناول الفرق الإسلامية للموقعة.
* الصواب مع على.

خلافة على بن أبى طالب
(٤٠هـ - ٦٦٠م)

• تمهيد

تبين لنا فى الفصول السابقة أن الخلافة فى اجتماع السقيفة كان ضعيف الأثر، سرعان ما حسمه المسلمون ببيعة أبى بكر، وكذلك كان الحال عند خلافة عمر الذى وقع عليه الاختيار بواسطة الخليفة الأول، فاجتثت جذوره ولم تترك أثراً ذا بال فى النفوس.

ولما عهد عمر إلى الستة، التقت وجهات النظر حول عثمان وعلىّ وانحصر الأمر فى النهاية بينهما إلى أن اجتمعت الأغلبية على الأول، ففاز بالخلافة على النحو الذى فصلناه آنفا، وهكذا التأم شمل المسلمين إلى أن قتل الخليفة الثالث على تلك الصورة المروعة البشعة، وأطل الشيطان على المشاهد الدامية التى بدأت تأخذ مكانها لبث الفرقة فى مجتمع كان قد التف حول راية الرسول صلوات الله عليه وعلى الخلفاء من بعده لنشر الدين وإعلاء كلمة الحق، وتوطيد دعائم الإسلام.

حينئذ ظهر الاختلاف على أشده، وكان بحق كما يرى ابن تيمية أنه أول نزاع ظهر على الإمامة. إذ اعتبر ما جرى من قبل لم يكن نزاعاً بالمعنى الحقيقى «إلا ما جرى فى اجتماع السقيفة وما اتصلوا حتى اتفقوا ومثل هذا لا يسمى نزاعاً»[1].

وقد شق الخلاف طريقه تاركا آثاره العميقة زمناً طويلاً، وفرق المسلمين شيعاً وأحزاباً وصبغ الخلافات بلون الدماء، وانبثقت آراء ومعتقدات جديدة معروفة من قبل.

الصعوبات التى واجهت استخلاف على رضى الله عنه:

والخلافة على سمات خاصة انفرد بها على الخلفاء الثلاثة الأول وهى:

١- اتهامه باطلا بقتل عثمان ومطالبته بدمه وكانت الزعامة فى هذه الثورة معقودة لطلحة والزبير والسيدة عائشة ثم معاوية، كما تأخر عن البيعة «قوم من الصحابة بغير عذر شرعى، إذ لاشك فى إمامته»[2].

---

(١) منهاج: جـ١، ص٢٦.

(٢) ابن حزم: جوامع السيرة. ص٢٥

٢- الإنكار الجماعى من بنى أمية، وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان.

٣- وقوف المسلمين - أهل الحجاز وأهل الشام - وجهاً لوجه فى اصطدام مسلح لم يسبق له مثيل، بينما ظهرت طائفة محايدة أعياها البحث عن الحقيقة فيما يحدث حولها.

فهناك من بايعه على أثر مقتل عثمان حتى لا تتسع دائرة الفتنة، وخذله نفر من المسلمين ومنهم من أنكر عليه الخلافة. ويلخص الإمام الأشعرى الموقف فيقول:

«ثم بويع على بن أبى طالب رضوان الله عليه فاختلف الناس فى أمره فمن بين منكر لإمامته ومن بين قاعد عنه ومن بين قائل بإمامته لخلافته وهذا اختلاف بين الناس إلى اليوم»[١].

ولقى على صعوبات جمة لا من معارضيه فحسب بل ومن مؤيديه وأتباعه أيضاً إذ منهم من امتنع عن مناصرته ومنهم من لم يستمع لنصحه ومنهم من خرج جهاراً على حكمه.

لقد خذله أنصاره فى الموقف الحاسم - أعنى موقعة صفين - لأنه نصحهم بألا يقبلوا مناداة حزب معاوية حين رفعوا المصاحف، وقال: «أنها مكيدة وليسوا بأصحاب قرآن».. ثم اضطر اضطراراً إلى قبول التحكيم لأنه خشى افتراق أصحابه[٢] وترتب على هذا ما كان من انفراد معاوية بعد ذلك بالحكم بينما كان على بين قوسين أو أدنى من النصر الحاسم على أهل الشام.

وظل فى نفسه شىء كثير من أثر مخالفتهم إياه وعدم استجابتهم لنصائحه إلى أن مات فكان يبتهل إلى الله فى دعائه قبل موته قائلا: «اللهم ابدلنى بهم من هو خير لى وأبدلهم بى من هو شر لهم منى»[٣].

وإن أبرز ما يظهر واضحاً فى كل ما حدث هو أن النزاع المسلح قد ترك أثره فى المعتقدات الدينية، ووضع أمام المسلمين لأول مرة مشاكل لم يكن لهم بها عهد من قبل. فاصطبغ الدين بالسياسة كما تلونت المطالب السياسية واستندت فى بعض المواقف على الدين. ومع استعمالنا هنا للفظ السياسة فلا ينبغى أن ينصرف الذهن إلى معنى السياسة بمفهومة الحديث إذ أن الفصل بين أمور الدين من جهة والسياسة لم يكن معروفا فى ذلك الوقت.

---

(١) الأشعرى: مقالات الإسلاميين. ص٣.

(٢) تاريخ اليعقوبى: ص١٦٥.

(٣) مقاتل الطالبيين: ص٤٠، ٤٥.

فالخوارج اشتطوا فى تفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية بما يخدم موقفهم إزاء على ومعاوية، وكان للشيعة فيما بعد أيضاً حججهم فى الاعتقاد بالنص على إمامة علىّ وما ترتب على ذلك من نظريتهم فى الإمامة كركن من أركان العقيدة الإسلامية.

وعلى هذا النحو كانت الأصول الخمسة التى وقعها المعتزلة وهى بالإجمال: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تختلط فيها أمور الدين بالسياسة فالواضح منها أن القاعدة الخامسة تعتبر مبدأ سياسياً، «فاعتبار الأخير جزءاً من الإيمان له أهميته الكبرى وترتب عليه نتائج ذات بال»[1].

أما مسألة مرتكب الكبيرة التى وضع واصل بن عطاء صاحبها فى «منزلة بين المنزلتين»، فلا يمكن القطع بأن المقصود بها هو الخروج على الإمام[2]، وإنما الأقرب إلى القبول أن يعتبر البحث فى هذا المبدأ قد أنشأ «كنتيجة لتكوين الأحكام على أعمال الصحابة وتابعيهم» بوجه عام[3].

والذى يعنينا هنا فى تناول الاعتزال كموقف سياسى، هو أن أحد المصادر قد انفرد بارجاع نشأتهم – لا إلى اعتزال واصل شيخه الحسن البصرى كما هو معروف – وإنما قبل هذا. فكانت النشأة منذ أن بايع الحسن بن على معاوية «فكان هؤلاء المعتزلة من أصحاب على، فلزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة»[4].

وبيعة الحسن إلى معاوية قريبة العهد جداً بمقتل على فالأحاديث إذاً متقاربة ونتائجها على مختلف الفرق تكاد تتشابك وتلتحم عند بؤرة واحدة هى هذه الأحداث الضخمة والمعارك الطاحنة التى تركت نتائج بقدر ما أتت على ضحايا، وأظهرت من الأفكار والمعتقدات بقدر ما ألقت من بذور الفتن والاضطرابات.

ومن الجهود التى تهدر عبثاً محاولة البحث فيما إذا كانت الاختلافات حينئذ قد بدأت دينية أم سياسية، ذلك لأن الإسلام لم يفصل بين أمور الدنيا والدين، بل ربط بين الدنيا – كدار عمل وجهاد وعبادات – والآخرة كدار بقاء يلقى فيها بنو الإنسان جزاءهم عن أعمالهم فى دنياهم الأولى: «إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها

(١) د. الريس: النظريات السياسية ص٦٥.

(٢) كما يذهب إلى المعنى الدكتور البير نصرى نادر فى كتابه (أهم الفرق الإسلامية) والكلامية ص٤٨.

(٣) د. الريس: النظريات السياسية. ص٦٥.

(٤) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع: ص٤١ ويؤيده الشيخ الكوثرى فى هذا المعنى.

بمصالح الآخرة»[1].

وقال الشافعي: لا سياسة إلا ما وافق الشرع.

ويشرح أبو الوفا بن عقيل هذه القاعدة، فالسياسة عنده هي الفعل الذى يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يصنعه الرسول صلوات الله عليه ولا نزل به وحى.

فإن كان الشافعى قد أراد بقول: «إلا ما وافق الشرع» أنه لم يخالف ما نطق به الشرع فتفسير صحيح. أما إذا كان يقصد بهذا المعنى ما نص عليه الشرع، فيعتبر هذا التفسير خطأ وتغليط للصحابة لأنه جرى من الخلفاء الراشدين من الأفعال ما لم ينص عليها الشرع كإحراق المصاحف بواسطة عثمان وتحريق على للزنادقة ونفى عمر بن الخطاب نصر بن الحجاج[2].

ومن الأمثلة التى نقدمها لتوضيح التحام موضوعات الدين والسياسة معاً ما نلاحظه من موقف المسلمين أزاء هذه الأحداث الجسام.

فإن إقرار المأمون لمذهب خلق القرآن صاحبه تفضيل علىّ على أبى بكر وعمر، فلما أبطل المتوكل هذا المذهب، أعلن أفضلية الشيخين[3] وكان من الآثار العميقة لحركة الاضطهاد الدينى التى تزعمها المأمون أنها قررت طابع أهل السنة الذى اتخذه الإسلام فى كافة العصور التالية[4].

ومثال آخر:

كانت حجة على فى مواجهة من قعدوا عنه وتخلفوا عن حرب الجمل وصفين: أن قال لهم: «ألستم تعلمون أن الله عز وجل قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر[5] فقال تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾؟؟»[6].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة. ص١٩١.

(٢) سيد محمد صديق حسن خان بهادر: ط١٢٩٤ (بهوبال). أكليل الكرامة فى تبيان الإمامة: ص٨٠.

(٣) ولتر باتون: أحمد بن حنبل والمحنة. ص٩٦.

(٤) المصدر السابق: ص٣٤.

(٥) نصر بن مزاحم (متوفى سنة ٢١٢هـ - ٧٧٢م): وقعة صفين. ص٦٣٥.

(٦) الآية ٩ من سورة الحجرات.

وكان ممن تخلف عن على سعد بن أبى وقاص فقال له: «يا على اعطنى سيفاً يعرف الكافر من المؤمن أخاف أن أقتل مؤمناً فأدخل النار»[1].

ولكن علياً لم يقتنع بهذه الحجة بل قارعها بما هو أقوى منها، ذلك لأن من تخلفوا عنه استندوا فى التخلف على قتل عثمان وجهلهم بما إذا كان قد أحل أم لا «وقد كان أحدث أحداثاً ثم استتبتموه فتاب فلما دخلتم فى قتله حين قتل فلسنا ندرى أصبتم أم أخطأتم»[2].

وبلغ رد على من الشمول والإحاطة ما يربط بين أمور الدين والسياسة بعرى متينة مستنداً إلى آية من كتاب الله ومعتمداً على رسوخه فى ميدان الفقه.

قال لهم:

«ألستم تعلمون أن عثمان كان إماماً بايعتموه على السمع والطاعة؟ فعلام خذلتموه إن كان محسناً وكيف لم تقاتلوه إذا كان مسيئاً؟

فإن كان عثمان أصاب بما صنع فقد علمتم إذ لم تنصروا إمامكم وإن كان مسيئاً فقد ظلمتم إذ لم تعينوا من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر. وقد ظلمتم إذ لم تقدموا بيننا وبين عدونا بما أمركم الله به». ثم تلا عليهم الآية السابقة[3].

فهذا على يقرر المبادىء التى رسمها القرآن الكريم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلم يحدد فى أى ميدان يتم فيهما - فليس إذاً هناك فاصل بين أمور الحياة الأولى والآخرة لأن هذه القاعدة تطبق فى جميع أمور الحياة من دينية ودنيوية سياسية كانت أم غير سياسية.

وهو يحضهم على الانضمام إلى صفه عملاً بما جاء فى الآية التى ذكرها لهم من ضرورة اتخاذ موقف فى الانحياز والمقاتلة مع الطائفة التى يظهر معها الحق.

ولا يعدم أيضاً دفاع سعد بن أبى وقاص الحجة فى خشيته من عقاب ربه. فأمور الدين والدنيا إذا عنده سواء، يخشى أن يؤدى به الانخراط فى صف واحد من الفريقين - مع عدم تيقنه من صاحب الحق فيهما - إلى التهلكة.

وقد تنبه المستشرق نللينو إلى الأثر الذى انعكس على المسلمين من جراء الاختلاف

---

(١) وقعة صفين: ص٣٦٥. (٢) وقعة صفين: ص٣٦٥.

(٣) المرجع السابق: ص٦٣٦.

الذى حدث بين متكلمى الخوارج ومتكلمى أهل السنة حول مسألة مرتكب الكبيرة من جرا الثورات التى قام بها الخوارج، إذ ترتب على هذه المسألة نتائج خطيرة لا تتعلق بالوجهة السياسية فحسب بل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين أيضاً، وهنا نجد أنفسنا أمام نفس القضية - أى لا انفصام بين دعوى الدين والسياسة حينئذ - ذلك لأن التسليم بمذهب الخوارج فى اعتبار مرتكب الكبيرة كافراً لأصبح خارجاً على الأمة الإسلامية وبهذا لا يعتد بزواجه بمؤمنة ويقع باطلا كما لا تقبل شهادته ويستباح دمه. ومن الناحية السياسية أصبح واجباً على المسلمين قتال بنى أمية لأنهم عصاة الله.

وبخلاف هذا إذا نظرنا إلى المسألة من وجهة نظر أهل السنة، فإن فيه تخفيفاً من هذا التشدد والغلو الذى يتخذه الخوارج لأن الفاسق لا يعد عندهم كافراً وبالتالى لا يبطل زواجه بمؤمنة وتصح شهادته، ولا يصبح الخروج على بنى أمية واجباً دينيا[1].

ويرى نللينو أن الرأى المحايد فى هذه المسألة هو رأى المعتزلة لأن موقفهم كان شبه حياد بين الرأيين السابقين بقولهم أن الفاسق أو صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين، وترتب على هذا حيادهم فى النزاع السياسى، وابتعادهم عن المنازعات القائمة بين المسلمين.

ويستند نللينو فى هذا الرأى إلى رأى المسعودى ويميل إلى الأخذ به، لأن الأخير يرى أن اسم المعتزلة أطلق للدلالة على موقفهم كأناس مبتعدين محايدين بين طرفى رجال الدين والسياسة[2].

ومهما يكن الأمر فإن الموقف السلبى الذى اتخذه المعتزلة لا يعتبر موقفاً وسطاً. فالحق أن الخوارج تشددوا وتعسفوا وكفروا ما شاء لهم أن يفعلوا وأصبح المجتمع الإسلامى نهباً لحروبهم وفتنهم التى ذهبت بالطمأنينة وهزت كيان المسلمين، إلى جانب الأخذ بآرائهم المتطرفة من هدم المجتمع الإسلامى هدماً.

فإذا اتخذ أهل السنة موقفاً آخراً بعدم تكفيرهم مرتكبى الكبائر والاعتداد بكافة تصرفاتهم فإن هذا هو الموقف الوسط الحقيقى.

أما الانعزال والحياد فإنه سلبية مطلقة لا تعنى اتخاذ الموقف الوسط بأى حال.

(١) عبد الرحمن بدوى: التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية (دراسات لكبار المستشرقين) ص ١٨٠و١٨١.

(٢) نفس المصدر: ص١٨٣.

البيعة لعلى بن أبى طالب:

هرع المسلمون إلى على بعد مقتل عثمان يطلبون تولى قيادتهم فى هذه الظروف العصيبة، لإجماعهم على تفضيله على باقى الصحابة. ويقارن سعد بن أبى وقاص بينه وبين غيره، ويجمع فى إيجاز ميزات علىّ على سائر القادة حينذاك نقتبسه من خطاب له إلى معاوية يقول فيه: «غير أن علياً قد كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه»(١).

ويمثل هذا الإيثار والتفضيل تكاتف المسلمون على بيعة على برغبونه فى قبولها وهو عنها معرض ولم يقبل إلا بعد إلحاح الناس عليه والتلويح له بالفتنة المنتظرة لو لم يحسم أمره ويقودهم فى تكل الآونة الخطيرة.

فلم يكن على إذاً مقبلاً على الخلافة مرحباً بها ساعياً إليها، وإنما تزخر كتب التاريخ بما يشبه إرغامه على قبولها تحت ضغط فتنة مقتل عثمان التى رزئت بها الأمة الإسلامية. فقد هزع إليه وجوه المهاجرين والأنصار «وناشدوه الله يعمل على حفظ الأمة وصيانة دار الهجرة.. ورأى القوم ذلك لعلمهم وعلمه بأنه أعلم من بقى وأفضلهم وأولاهم بهذا الأمر»(٢).

ومع هذا فإنه أصر على أن تنعقد البيعة له وفقاً لمبدأ الشورى الذى سار على نهجه الأولون «فمن رضى به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة فنجتمع وننظر فى هذا الأمر»(٣).

وكان أول من بايعه طلحة.. ثم تلاه الزبير طالبا البيعة لعلى «وقد تشاورنا فرضينا عليا فبايعوه وأما قتل عثمان فإنا نقول فيه إن أمره إلى الله»(٤).

وتمت بيعة طلحة والزبير نيابة عن المهاجرين، كما انعقدت له بيعة الأنصار على لسان ممثليهم وتخلف عن البيعة ثلاثة من قريش هم:

مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة.

وكان عذر المتخلفين ما ورد على لسانهم إجمالا، حيث وضعوا شروطاً للبيعة هى أن: «تضع عنا ما أصابنا وتعفى لنا عما فى أيدينا ونقتل قتلة صاحبنا»(٥).

(١) تاريخ اليعقوبى: جـ٢، ص١٦٣. (٢) الباقلانى: التمهيد: ص٢٢٩، ٢٣٠.
(٣) الإمامة والسياسة. ص٤٣. جـ١ المنسوب لابن قتيبة.
(٤) المصدر السابق: نفس الصفحة. (٥) اليعقوبى: جـ٢، ص١٥٤.

وكانت هذه الشروط فى الواقع هى أول ما علقت به بيعة فى أثناء تولى خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة. إذ أن ما دار من مناقشة وتشاور الستّة قبل وقوع الاختيار على عثمان من قبل، كذلك ما كان من اشتراط عبد الرحمن بن عوف على كل من عثمان وعلى للعمل بكتاب الله وسنة الرسول والخليفتين على النحو الذى بيناه آنفاً فى الفصل السابق - فلا يسمى شروطا وإنما تحديداً لخط السير ووضع معالم الخطوط العريضة للسياسة التى ألزم الخليفة باتباعها حينذاك.

أما هنا فإننا أمام شروط مفصلة لا تتم البيعة إلا بعد قبوله لها. وهو ما لم يرضاه فليس من طبيعة شخص كعلى امتاز بصفات قل أن يوجد مثلها فى غيره من حيث العلم والتقوى والشجاعة أن يقبل أن يحيد عما خطه كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ويأبى أن ينقاد إلى الخلافة باغراء كهذا يحمله على ترك الحق وهو الذى كان يرفض توليها.

وقد ألقى فى وجوههم ببيعتهم المعلقة على تلك الشروط: «فمن ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم»[1].

أما فيما يتعلق بمطالبتهم إياه بقتل قتلة عثمان فإنه رد عليهم بقوله:

«فلو لزمنى قتلهم اليوم لزمنى قتالهم غداً، ولكن لكم أن أحملكم كتاب الله وسنة نبيه»[2] واستتبع هذا بوضعه تخطيطاً أساسيًا لسياسته المبنية على تدعيم حقوق الله وتنفيذ العدالة بوضوح لا يحتمل اللبس فيقول:

«أما وضعى عنكم عما فى أيديكم فليس لى أن أضع حق الله.. وأما إعفائى عما فى أيديكم فما كان لله والمسلمين فالعدل يسعكم»[3].

ومع هذا كله فإن الباقلانى ينبرى لمثل هذه الاعتراضات ووضع الشروط أو حتى التخلف عن بيعة على، فيرى أن إمامة على منعقدة بالرغم من كل ما حاول البعض من فرض شروط أو تقاعس آخرين عن البيعة «وليس تفسد إمامة على بخلع من عقدها له ولا بالتأويل عليه بأنها عقدت على شروط فيها ولا يوهنها قعود من قعد عنها»[4].

ويقى أن نستدل من كافة هذه الوقائع- سواء عن طريق الاستدلال بترتيب خطوات البيعة أو بتتبع أقوال على ومؤيديه- على فكرة النص أو الوصية بواسطة الرسول صلوات الله عليه.

(١) تاريخ اليعقوب: ص١٥٥.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) المرجع السابق: نفس الصفحة.
(٤) الباقلانى: التمهيد، ص٢١٢.

فهـا هو الاتسـاق التـاريخى المنظم الحلقـات من واقع أحد المصـادر الشيـعيـة تاريخ اليـعقـوبى يؤكد امتناعـه أول الأمر عـلى البيـعـة فلم يتلهف ولم يطالب.. وإنما حرص كل الحرص على أن تنعقد له بنفس الطريقة التى سار على منوالها سابقوه ورفض بإباء وشمم المطالب والشروط.

كمـا أنه لم يرد ذكر النص أو الوصيـة على لسانه قط. فإذا وجدت بعض الأقوال التى يحتـمل تأويل الشيـعة لها فيـما بعد- وهى متناثرة هنا وهناك-، فـمن الملاحظ أنه لا رابط بينها بل ويقدم المصادر الشيعية ما ينفيها وينقضها.

فإذا جاء على لسان خطيب الأنصار:

«والله يا أمـير المؤمنين لئن كانوا تقدمـوك فى الولاية فـما تقدمـوك فى الدين، ولئن كانوا سبـقوك أمـس لقد لحقـتهم اليوم، ولقد كـانوا وكنت لا يخفى مـوضـعك ولا يجـهل مكانك، يحتاجون إليك فيما بعد لا يعلمون وما احتجت إلى أحد مع علمك»[1].

أما ما ورد بواسطة على نفسه فى كلام طويل مـوجه إلى ابنه الحسن فى مجال الدفاع عن نفسه لمقتل عثمان كقوله: «وأيم الله يا بنى مازلت مبغيًا على منذ هلك جدك»[2].

فإن تخريج مثل هذه العبارات والأقوال لا يبرهن على استناد الشيعة إلى نظرية النص لأنه لو كـان الأمـر كذلك لظهـر من السـيـاق الوارد لواقعـة البـيـعـة بواسطة هذا المصـدر الشيعى.

ومما يناقض هذه الأقوال وما يستخرج منها من معانى، وما نفاه صراحة:

«إما أن يكون عندى عهد من رسـول الله ﷺ فلا والله، ولكن لما قتل الناس عثـمـان نظرت فى أمرى فإذا الخليـفتـان اللذان أخذاها من رسول الله ﷺ قد هلكا ولا عهـد لهـمـا وإذا الخليـفـة أخذها بمشورة المسلمين قد قـتل وخرجت ربقـته من عنقى لأنه قتـل ولا عهـد له»[3].

أو من أقواله التى جمعها اليعقوبى مثل:

- «الأئمة من قريش، خيارهم على خيارهم، وشرارهم على شرارهم»[4].

ويثبت الدكتـور النشار بما لا يدع مجالاً للشك أن كلمة الشيـعـة لم يرد ذكرها على

(١) تاريخ اليعقوبى: ج٢، ص١٥٥.
(٢) الإمامة والسياسة: ص٤٥، ٤٦.
(٣) الإمامة والسياسة: ص٧١.
(٤) تاريخ اليعقوبى: ج٢، ص١٨٧.

الإطلاق حتى هذه المرحلة من تاريخ الإسلام إذ لم يذكرها أى من اليعقوبى أو المسعودى وهما مؤرخان شيعيان(1).

والدليل الأول على أن ما وضع بشأن النص أو الوصية إنما أتى فى زمن متأخر. على أن أول ما جاء ذكرها فى الكتاب الذى وجهه الشيعة إلى الحسين بعد موت الحسن وفيما يلى نص هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرّحيم.. للحسين بن على من شعيته وشيعة أبيه أمير المؤمنين ما أعظم ما أصيب به هذه الأمة عامة وأنت وهذه الشيعة خاصة بهلاك ابن الوصى وابن بنت النبى علم الهدى ونور البلاد المرجو لإقامة الدين وإعادة سير الصالحين.. ونحن شيعتك المصابة بمصيبك المحزونة بحزنك المسرورة بسرورك السائرة بسيرتك المنتظرة لأمرك..»(2).

وإن وجدت مثل هذه الوصية لحرص علىّ على أن يتولاها أبناؤه من بعده ولكن وصيته التى أوصى بها المسلمين على أثر طعنة بيد اللعين ابن مجلم لا تشير بكلمة واحدة إلى هذا المعنى، وإنما يحرص الحرص كله على التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلوات الله عليه بشأن أقرانه من الصحابة الأولين.

أنه أوصى بالشهادتين، وخص ولديه وأهل بيته ومن بلغ كتابه بتقوى الله واجتماع الشمل دون الفرقة.

كما حرص على الوصية بذوى الأرحام والأيتام والجيران.. وشدد فى التمسك بكتاب الله وفروض الدين من إقامة الصلاة وحج البيت وصيام رمضان والجهاد فى سبيل الله والزكاة.

وحث على إقامة العدل ودحض الظلم فى أمة الإسلام. وأوصى بالفقراء والمساكين وأصحاب النبى ﷺ.

وجمع فى وصيته أيضًا الحض على التحلى بالخصال الحميدة من التواضع والبر.

وهكذا لم يترك مبدأ من المبادئ القويمة التى أتى بها الإسلام إلا وأوصى بها وحث على التمسك بها وحرض أبناءه وأهل بيته خاصة والمسلمين عامة على فعل المعروف والتناهى عن المنكر. وجاءت هذه الوصية خالية تمامًا من العهد لأحد من أولاده أو لشخص

(1) نشأة الفكر: ج2، ص15.

(2) تاريخ اليعقوبى: ج2، ص203.

آخر من المسلمين. فإن ما استحوذ على اهتمام فى هذه الساعات التى يقترب فيها من الموت هو تأكيد المعانى السامية التى وضعها الإسلام وإظهار الأسس القويمة التى بنى عليها فهو يوصى: (بتقوى الله ربنا ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام».. وكقوله: «الصلاة الصلاة. لا تخافوا فى الله لومة لائم فإنه يكفيكم من بغى عليكم وأرادكم بسوء قولوا للناس حسنًا كما أمركم الله ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيولى الأمر عنكم وتدعون فلا يستجاب لكم»)(1).

لا غرو فإن المدرسة التى خرجت أصحاب رسول الله ﷺ لم تحد عن الخطوط التى وضعها لهم معلمهم الأول ﷺ وظلت تعض عليها بالنواجذ إبان حياتها وتلقى بها لم يليها

فهل لو كان على تلقى مثل هذه الوصية من النبى ﷺ لأنكرها أثناء حياته وعند مماته؟ إن هذا أمر بعيد عن التصديق.

وسندعم هذه الملامح فيما بعد بالأدلة التى قدمها لنا أهل السنة تباعًا، إذ أجمعوا على نفى وجود الوصية أو النص على خلافة على، وبرهنوا على ذلك بأدلة دامغة ستأتى فى موضعها من البحث.

نظرة تحليلية لموقف طلحة والزبير من بيعتهما لعلى:

كان طلحة أول من صعد المنبر فبايع عليًا كما قدمنا، وإن لم تصدر بيعته على طيب خاطر كما يبدو، واعتذر فميا بعد بأنه أرغم على ذلك بحد السيف.

ثم تلاه الزبير فكان ترتيبه عقب طلحة مباشرة.

ولهذا يبدو غريبًا عودتهما لإعلان الحرب على علىّ ومطالبته بدم عثمان، ولهذا السبب أيضًا تضاربت الأسباب التى يقدمها الباحثون فى تعليل نكث البيعة.

فمن قائل أن «الزبير مغلوب يغلبه أهله ويطلبه بذنبه»، أو أن طلحة «لو يجد أن يشق بطنه من حب الإمارة لشقه»(2).

---

(1) مقاتل الطالبيين: ص٤٥ (الوصية من ص٣٨ إلى ٤٠).

(2) الإمامة والسياسة: ص٤٤.

أو أن طلحة كان يأمل ولاية اليمن بينما لا يشك الثاني فى العراق، وهو السبب الذى من أجله صرف على عنهما ولاية هذين القطرين إذ يقول: «ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى»(١).

كم يبسط لنا ابن قتيبة نقاشًا دار بينهما وبين على، يستنتج منه أن هدفهما من البيعة أن يكونا شريكاه فى السلطة، وهو ما أثار دهشة على لاستبعاده تماماً مثل هذه المشاركة ولأن البيعة تمت فى اعتقاده على السمع والطاعة كما ينبغى أن تكون، «أما الشركة فهى فى القول والاستقامة والعون على العجزة والأولاد»(٢).

ومن المحتمل أن هذه الأسباب المتشابكة بين المطالبة بدم قتلة عثمان، والرغبة فى ولاية إمارتى اليمن والعراق، ومشاركة على فى الحكم وتصريف أمور المسلمين، هى التى أوجدت التضارب فى النتائج عند الباحثين المحدثين.

وقد كثرت التعليلات والتخمينات، فهى إما أن «كلا من طلحة والزبير يريد الخلافة لنفسه»(٣) أو أن طلحة والزبير- وهما على رأس خصوم عثمان- استطاعا الاستفادة من الاستياء العام «مع أنهم كانوا يعتبرون من واجبهم الدفاع عن الثيوقراطية الصحيحة ضد إدارة عثمان الدنيوية فلم يجرأوا على النضال جهاراً، بل تركوا هذه المهمة البغيضة لأهل الأمصار الذين تركزت فى أيديهم قوة الإسلام المادية على كل حال»(٤).

وهذا الرأى الأخير الذى استحدثه بروكلمان حيث وضع هذه الشخصيات فى نماذج جاهزة فكأن الموضوع ينحصر فى خطط ومؤامرات تحاك على منوال ما يتم على مسارح السياسة فى العصر الحديث مع بعد الشقة واختلاف الشخصيات وظروف الحياة ويجهل بروكلمان- أو يعذر بمعنى أصح- فى عجزه عن تقدير مثل هذه الشخصيات التى تسلحت بإيمان فريد من نوعه وكان لتصرفاتهما بواعث أخرى لا يسهل على باحث غربى البيئة والثقافة تقديرها(*).

---

(١) المرجع السابق: ص٤٨، الإمامة والسياسة: ٢، نفس المصدر ص٤٧.

(٢) على إبراهيم حسن: نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب، ص٣.

(٣) على إبراهيم حسن: نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب، ص٣٠.

(٤) برو كلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ج١، ص١٣٥.

(*) ونوجه عناية الباحثين فى التاريخ الإسلامى إلى المنهج الذى خطه الأستاذ سيدقطب- رحمه الله تعالى- فى كتابه (فى التاريخ.. فكرة ومنهاج) حيث يقول: «ولإدراك مقومات النفس البشرية جميعًا: =

= روحية وفكرية وحيوية ومقومات الحياة البشرية جميعها. معنوية ومادية، وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة ويستجيب لوقوعها فى مداركه ولا يرفض شيئًا من استجاباته لها إلا بعد تمحيص ونقد.

فأما إذا كان يتلقاها بادئ ذى بدء وهو معطل الروح أو الفكر أو الحس عن عمد أو غير عمد، فإن هذا التعطيل المتعمد أو غير المتعمد، يحرمه استجابة معينة للحادثة التاريخية أى أنه يحرمه عنصراً من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل، ومن ثم يجعل تفسيره لها مخطئًا أو ناقصًا.

هذه الاستجابة الناقصة هى أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية، ذلك أن هناك عنصراً ينقص الطبيعة الغربية- بصفة عامة- لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة، والحياة الإسلامية على وجه الخصوص عنصر الروحية الغيبية- وبخاصة فى العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية. والطريقة التجريبية على وجه أخص- وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكثر فى العقلية الغربية الحديثة.

وبذلك يتضح لنا: «مافى تناول المؤرخين الغربيين للتاريخ الإسلامى من نقص طبيعى فى الإدراك ونقص طبيعى فى الفهم، ونقص طبيعى فى التفسير والتصوير، فانعدام عنصر من عناصر الاستجابة للحادثة أو ضعفه، لابد أن يقابله نقص فى القدرة على النظر إلى الحادثة من شتى جوانبها. وضياع عنصر من عناصر التقويم والحكم، لا يؤمن معه سلامة هذا الحكم، أو على الأقل لا يسلم على علاته.

هذا النقص يعد غلبًا فى منهج العمل التاريخى ذاته، وليس مجرد خطأ جزئى فى تفسير حادثة أو تصوير حالة ومن ثم فالمنهج الأوربى فى البحث بسبب تعطيل أحد عناصر الاستجابة سواء كان ذلك ناشئًا عن الطبيعة الغربية ذاتها، وملابسات حياتها البيئية والتاريخية، أو ناشئًا عن تعمد المؤرخ الأوربى تعطيل هذا العنصر، استجابة لمنهج معين فى الدراسة هذا المنهج غير صالح لتناول الحياة الإسلامية..

وثمة سبب للشك فى قيمة الدراسات التاريخية الغربية للحياة الإسلامية، ذلك أنه لا يخفى أن كل امرئ يختلف فى شكله باختلاف زاوية الرؤية، وكذلك الشأن فى الأحداث والوقائع. والأوربى بطبيعته ميال إلى اعتبار أوربا هى محور العالم، فهى نقطة الرصد فى نظره، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الحياة والناس والأحداث..

وإذا كان بديهيًا أن أوربا لم تكن هى محور العالم فى كل عصور التاريخ، وكان الأوربى لايملك اليوم أن يتخلص من وهم وضعها الحاضر حين ينظر إلى الماضى.. أدركنا مدى انحراف الزاوية التى ينظر بها الأوربى للحياة الإسلامية التاريخية، ومدى أخطاء الرؤية التى يضطر إليها اضطراراً، ومدى أخطاء التفسير والحكم الناشئة من هذه الرؤية المعيبة.

ذلك كله على افتراض النزاهة العلمية المطلقة، وانتفاء الأسباب التى تؤثر على هذه النزاهة فإذا نحن وضعنا فى الحساب مالابد من وضعه، وما لا يمكن جديًا إغفاله من أسباب ملحة قاهرة عميقة طويلة الأجل، متجددة البواعث تؤثر فى نظرة الأوربى للإسلام، وللحياة الإسلامية وللعالم الإسلامى، من اختلاف فى العقيدة، إلى كراهية لهذا الدين وأهله، إلى ذكريات تاريخية مريرة فى الأندلس وفى =

وهو بتعرضه لمثل هذه الشخصيات العملاقة فى التاريخ الإسلامى وإصداره الحكم المتسرع يناقض نفسه، لأنه فى مقدمة كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية) يرى أن كتابة تاريخ الدول الإسلامية لا يزال ضربًا من المعاول الخطرة لأن المصادر لم تُعد بعد فى يد الباحثين كما أنها لم تخضع للتحليل النقدى بعد «وليس يجرؤ فرد واحد على النهوض بهذا العبء»[1].

فنلقى إذاً بتعليلاته جانبًا، ونعود إلى الوقائع الثابتة تاريخيًا كما حدثت لأنها تهدم استنتاجاته:

فإنه بمجرد ظهور الحقيقة أمام كل من طلحة والزبير كفًا عن القتال، فإن طلحة ارتج الأمر عليه بشأن قتلة عثمان لأنه يقول: «تالله ما رأيت كاليوم قط شيخًا من قريش أضيع منى إنى والله ما وقفت موقفًا قط إلا عرفت موضع قدمى فيه إلا هذا الموقف».

وعندما ذكر على الزبير بكلام رسول الله صلوات الله عليه انصرف عن المعركة[2].

ويقرر الأستاذ سيد الأفغانى فى بحثه القويم عن هذا الموضوع فى كتابه (عائشة والسياسة) أن طلحة والزبير أخلصا فى نيتهما فى الصلح بدليل هذه الحيرة التى تملكتهما كما كانا صادقى النية فى طلبهما الثأر لدم عثمان.

فهما يقبلان فى عزم وقوة على الاستقتال توبة إلى الله مما قصرا فى حق عثمان بدليل أنه لم يتمكن أحد عن ردهما عما اعتزماه بالرغم من المحاولات التى بذلت لاستئصال الفتنة قبل وقوعها، كما وقعا أيضًا فى حيرة قاتلة[3] أما سعد بن أبى وقاص الصحابى المعاصر لهما فيقول:

«ولو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما»[4].

= بيت المقدس وفى الأستانة وفى سواها، إلى صراع سياسى واقتصادى واستعمارى، إلى نزوات شخصية والتواءات فكرية.. إلى آخر تلك البواعث القديمة المتجددة أبداً..

إذا نحن وضعنا فى الحساب ذلك كله- ولابد أن نضعه لنضع الأمور فى نصابها- وأضفنا إليه خطأ المنهج وخطأ الرؤية أمكن أن نقدر قيمة الدراسات الأوربية فى الحقل الإسلامى- وخاصة فى التاريخ- قدرها الصحيح، وأن نتحرز التحرز العلمى الواجب لا من قبول هذه الدراسات على علاتها، بل من قبول المنهج الذى قامت عليه، أو محاولة إتباعه فى دراساتنا الإسلامية على وجه خاص..».

[من ص ٣٧ إلى ص ٤٢ طبعة دار الشروق].

(١) مقدمة كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية).

(٢) تاريخ اليعقوبى: ج٢، ص١٥٨، ١٥٩.

(٣) عائشة والسياسة لسعيد الأفغانى: ص١٥١.

(٤) تاريخ اليعقوبى: ج٢، ص١٦٣.

السيدة عائشة أم المؤمنين (٥٦ أو ٥٧ أو ٥٨هـ ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧م) والفتنة:

كانت السيدة عائشة على رأس المطالبين بدم عثمان، وساهمت باليد الطولى فى معركة الجمل لما لها من تأثير فى قلوب المسلمين، فأجمعت حولها أهل البصرة لما لها من هيبة ورأى نافذ وحجة قوية فى الرأى وامتلاكها ناصية البلاغة فى الخطابة: «ولولا وجودها فى الجيش إلى جانب طلحة والزبير لما اجتمع حول الاثنين جمع ولا انتظم لهما شمل»(١).

وبقيت السيدة عائشة فى مكة تندب عثمان وتؤلب الناس على قتلته وتقول: «قتل عثمان مظلومًا لأطلبن بدمه»(٢).

وعوتبت أم المؤمنين لأنها كانت تعارض عثمان فيما قبل ثم نادت بقتل القتلة. فسألها عمار بن ياسر: «أنت بالأمس تحرضين عليه ثم أنت اليوم تبكينه»(٣) وقد دافعت عن نفسها فقالت: «أنهم استتابوه ثم قتلوه»(٤). كما حلفت بالذى «آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسوداء فى بيضاء حتى جلست مجلسى هذا»..

فرأى البعض أن تزويراً حدث بواسطة دعاة الفتنة ونسب إليها(٥).

وكان لتأثير أم المؤمنين فى نفوس الملتفين حولها السلاح الفعال فى المعركة ضد على ولا غرو فهى العالمة فى الفقه الراوية للحديث حتى كان الأئمة يقولون عنها: «حدثتنى الصديقة بنت الصديق المبرئة المبرأة كما كان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض»(٦).

وهى التى أفرد لها الإمام الزركشى كتابًا تضمن ما استدركته على الصحابة من أمور الفقه على رأسهم أبو بكر وعمر وعلى وعبد الله بن عباس إلى جانب الاستدراكات العامة.

يقول الزركشى فى مقدمة كتابه:

«وبعد، فهذا كتاب أجمع فيه ما تفردت به الصديقة رضى الله عنها أو خالفت فيه

(١) عمر أبو النصر: على وعائشة ص٥١.

(٢) الطبرى: ج٣، ص٤٧٧.

(٣) البلاذرى: أنساب الأشراف. ج٣، ص٧٠.

(٤) الطبرى: ج٣، ص٤٧٧.

(٥) نفس المصدر: ج٣، ص٤٦٨ (الطبرى).

(٦) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير. ج٨، ص٤٤، ٤٨.

سواها برأى منها أو كان عندها فيه سنة بينة، أو زيادة علم متقنة، وأنكرت فيه على علماء زمانها أو رجع فيه إليها آجلة من أعيان أوانها، أو حررته من فتوى، أو اجتهدت فيه من رأى رأته أقوى».

كما ضم بين دفتى هذا الكتاب من ضمن محتوياته فصلاً بأكمله عدد فيها اثنين وأربعين من خصائص هذه الشخصية الفذة[1].

هذا فى عرض ما تميزت به أم المؤمنين عائشة من خصال ومواهب فضلاً عما لها من مكانة فى قلوب المسلمين.

موقعة الجمل وانتهاؤها بندم طلحة والزبير وأم المؤمنين:

من التحليلات التى فصلناها آنفًا يبدو أن قيام هذه الحرب كان وراءها من الأسباب والدوافع أكثر مما يعرضه المؤرخون بهذه البساطة، أى لمجرد المطالبة بدم عثمان.

فلا شك أن الظروف هيأت لهذا النزاع، وأن من الطوائف من سعت سعيًا حثيثًا إلى وقوعه للنيل من المسلمين وأضعاف الدين الجديد الذى بدأ ينتشر وينمو على نطاق واسع، ومما لا شك فيه أيضًا- من واقع التفاصيل الدقيقة المتشابكة التى تذكرها المصادر التاريخية- أن محاولات للتوفيق بذلت بين الطرفين لم يكتب لها النجاح، إما بتدخل ممن رغبوا فى إشعال نار الفتنة، أو بقصور من جانب المحاولين لإصلاح ذات البين، أو بعد الغالبية العظمى من المسلمين عما حدث فإن السكان من بين مكة والمدينة والبصرة لم يعلموا بالموقعة إلا «بما ينقل إليهم النسور من الأيدى والأقدام»[2].

ويقف على رأس الراغبين فى استمرار وقوع الفتنة حرب السبئيين ومن مالأهم من قتلة عثمان ولم يرضوا بأن يقبل الطرفان على الصلح وكان يوشك أن يتم «فأسرعوا وباغتوا الطرفين بإنشاب القتال»[3].

واستنتاج هذا الدور قائم على أن رأى الأطراف المتنازعة ألا يقتتلوا حتى يبدءوا

---

(١) الإجابة لإيراد ما استدركته عن عائشة عن الصحابة للزركشى (المقدمة ص٣١، ٣٢/ ومن ص ٧٩ إلى ص١٦٧ ومن ص ٤٦ إلى ص٧٦).

(٢) لابن الأثير: الكامل. ج٣، ص١١١.

(٣) سعيد الأفغانى: عائشة والسياسة.

يطلبون بذلك الحجة على الآخرين، وقد نادى منادى كل من الفريقين ألا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح[1].

بل أن على ذهب إلى أبعد من هذا فى نفوره من بدء القتال، فقد طلب من أحد مؤيديه أن يحمل مصحفًا ليدور به على أصحاب الفريق الآخر، فلما تقدم متطوع لهذه المهمة أمره أن يعرضه عليهم قائلاً: «هو بيننا وبينكم من أوله إلى آخره، والله فى دمائنا ودمائكم».

فحمله هذا الفتى وظل يؤدى هذه المهمة العسيرة إلى أن قطعت يده اليمنى فحمل المصحف باليسرى ثم أخذه بصدره لما قطعت اليسرى أيضًا. ثم قتلوه حينئذ فقد قال على: «الآن حل قتالهم وطلب لكم الضراب»[2].

فلم يكن القتال إذاً بادىء ذى بدء «من نية أحد الفريقين غير السبئيين، لكنه لم يكد ينشب حتى انجلى عن عدد من الضحايا لم يكن ليتوقعه أحد قط، وكان من خلف الفريقان خلفهما من أهل المدن والبوادى لا يشكون فى أن القوم خرجوا إلى الإصلاح لا يبغون قتالاً»[3].

ولهذا فإن القاضى ابن العربى يضع وزر نشوب هذه الحرب على عاتق قتلة عثمان، استناداً على ما روى عن الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية، والطبرى فى تاريخه من أن الفريقين كانا يرغبان فى الصلح. فبعث على عبد الله بن عباس، وبعض أصحاب الجمل بمحمد بن طلحة هادفين جميعًا إلى الصلح ولكن قتلة عثمان لم يتفق وما بيتوه من فتن لكى يختفوا وسط هذه المعمة فاجتمعوا فى السر على إنشاب الحرب، فلما أنشبوها ظن كل فريق من الفريقين أن الآخر غدر به فنشب القتال بينهما «فاشتجرت الحرب، وكثرت الغوغاء على البوغاء، كل ذلك حتى لا يقع البرهان، ولا يقف الحال على بيان، ويخفى قتلة عثمان، وإن واحداً فى الجيش يفسد تدبيره فكيف بألف!!»[4].

ويذهب القاضى الباقلانى إلى نفس هذا الرأى، لأن الفريقين لم يعتزما الحرب بعد أن تم الوفاق واتفقا على الصلح، فلم يرض قتلة عثمان برفع راية السلام خشية الاستدلال عليهم، فاجتمعوا وتشاوروا وتم اتفاقهم على أن ينقسموا قسمين: منهم من ينضم إلى هذا الفريق بينما ينضم الباقى إلى الفريق الآخر من المعسكر، فيصيح هنا أن طلحة والزبير قد

(١) الطبرى: ج٣، ص٥١٨.   (٢) نفس المصدر: ص٥٢٠، ٥٢٢.

(٣) سعيد الأفغانى: عائشة والسياسة ص١٨٥، ١٨٦.

(٤) العواصم من القواصم: ص١٥٧.

غدرا، ويصيح من فى الجانب الآخر أن على قد غدر، وبهذا نشبت الحرب.

ويرى الباقلانى أنه لما كان كل «فريق منهم دافعًا لمكروه عن نفسه، ومانعًا من الإشاطة بدمه فهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى، إذا وقع القتال والامتناع منهم على هذه السبيل، فهذا هو الصحيح المشهور، وإليه نميل، وبه نقول»[1].

ومما يبرهن أيضًا على أن طلحة والزبير والسيدة عائشة لم ينهضوا فى معارضة على بغرض الحرب منذ البداية، لأنهم لم يطعنوا فى إمامة على أو جرحوها كما أنهم لم يبايعوا شخصًا آخر غيره «فإنهم لم يمضوا إلى البصرة لحرب على ولا الاختلاف عليه ولا نقضاً ولو أرادوا ذلك لأحدثوا بيعة غير بيعته»[2].

فقيامهم إذاً فى وجه الإمام على لسد الفتق الذى وقع بمقتل عثمان، فاجتمعوا فى البداية ولم يبدأوا بالقتال، وعلم قتلة عثمان بأن السلام سيحل محل الفرقة والخصام وأنهم سيقعون تحت طائلة العقاب فاندسوا بين صفوف الفريقين، فظنت كل طائفة منهما أن الأخرى هى البادئة ومن ثم نشب القتال «واختلط الأمر اختلاطًا لم يقدر أحد على أكثر من الدفاع عن نفسه والفسقة من قتلة عثمان لا يفترون من شن الحرب واضرامه، فكلتا الطائفتين مصيبة فى غرضها ومقصدها مدافعة عن نفسها»[3].

فإن الزبير سرعان ما رجع تاركًا الحرب، واختلط على طلحة الأمر لا يدرى أين الحقيقة فى الاختلاط الكبير فأتاه سهم فقتله.

أما السيدة عائشة فقد صاحبها الندم إلى آخر حياتها على اشتراكها فى هذه الحرب، واعتكفت بعدها لا تشارك فى الحياة السياسية بل انزوت تتعبد وتجيب على من يسألها فى أمور الدين.

وهذا فإنها كانت عندما تقرأ آية: ﴿وقرن فى بيوتكن..﴾ تبكى حتى تبل خمارها[4]. كما أنها إذا ذكرها أحدهم بموقعة الجمل ظلت تبكى حتى يظن من رآها أنها لن تسكت[5].

وظلت نادمة تائبة ما ترجع بذاكرتها إلى هذا اليوم إلا تملكها الحزن والجزع إلى أن ماتت.. فلما سألوها عن رغبتها فى الدفن مع رسول الله ﷺ قالت: «لا، إنى أحدثت

---

(١) التمهيد: ص٢٣٣. (٢) ابن حزم: الفصل. ص١٥٨.

(٣) المصدر السابق: نفس الصفحة (١- الفصل).

(٤) الذهبى: سير النبلاء. ج٢، ص٦. (٥) الطبرى ج٣، ص٥١٩.

بعده، ادفنونى مع أزواج النبى فى البقيع»[١].

ومن عباراتها التى تحمل أشد معانى الندم:

- ليتنى لم أخلق.
- يا ليتنى كنت شجرة أسبح وأقضى ما على.
- والله لوددت إنى كنت شجرة، والله لوددت إنى كنت مدرة.
- لوددت أن الله لم يكن خلقنى شيئًا قط[٢].

ويقول ابن تيمية تعليقًا وشرحًا لما حدث:

«فإن عائشة لم تقاتل، ولم تخرج لقتال، وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين، وظنت أن فى خروجها مصلحة للمسلمين. ثم تبين لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى. فكانت إذا ذكرت خروجها تبكى حتى تبل خمارها.

وهكذا عامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال فندم طلحة والزبير وعلى رضى الله عنهم أجمعين. ولم يكن يوم الجمل لهؤلاء قصد فى القتال، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم»[٣].

تناول الفرقة الإسلامية للموقعة:

إن انقضاء معركة الجمل بعد وقت قصير من بدئها، وانقضاض القوم بعودة الصفاء والوئام إلى النفوس بالصورة التى انتهت بها هذه الحرب فلم تترك ذيولاً لهما مثلما فعلت موقعة صفين فيما بعد.

فقد شرحنا موقف كل من طلحة والزبير، وكذلك السيدة عائشة التى رجعت بعد المعركة نادمة تائبة، بعد أن عززها على وكرمها واعترفت له بالإقامة بقولها: «قدرت فأسجح»[٤] ثم قالت عنه فيما بعد: «إنه والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة واحمائها وأنه عندى على معتبتى لمن الأخيار».

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى. ج٦، ص٥٠.   (٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) المنتقى من منهاج الاعتدال فى نقض كلام أهل الرفض والاعتزال للذهبى ص٢٢٢، ٢٢٣ بتحقيق الدين الخطيب. المطبعة السلفية سنة ١٣٧٤هـ.

(٤) تاريخ اليعقوبى: ج٢، ص١٥٩.

فقال على لما سمع حديثها: «أيها الناس، صدقت والله وبرت، ما كان بينى وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة»[1].

وقد بلغ على قمة التسامح والخلق الكريم إزاء مقاتليه فى هذه الموقعة جميعًا فقد ترحم عليهم وأمر بدفنهم، ودعى لقتلاهم بالرحمة والمغفرة من ربهم «اللهم اغفر لنا ولهم» وأمر أصحابه بألا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا ستراً ولا يأخذوا مالاً وعندما سئل عن سبب إحلال دمائهم دون أموالهم رد بقوله: «من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر وهذه السنة فى أهل القبلة»[2].

ولما سئل أيضًا عما إذا كان قتلى الجمل مشركين أو منافقين، أجاب: «من الشرك فروا، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، إنما هم إخواننا بغوا علينا إنما اقتتلنا على البغى ولم نقتتل على التكفير».

وقال الحادث بن خوط مرة لعلى هذه العبارة: «أظن طلحة والزبير وعائشة اجتمعوا على باطل» فقال على: «يا حارث، إنه ملبوس عليك، وإن الحق والباطل لا يعرفان بالناس، ولكن.. اعرف الحق تعرف أهله، وأعرف الباطل تعرف من أتاه»[3].

انتهت الموقعة ولم تسفر عن الانشقاق الذى حدث فى أعقاب موقعة صفين ونجم عنها فرقة الخوارج بنظريتها فى الخلافة. فحرب الجمل إذا لم يكن لها شأن فى إيجاد معتقدات جديدة أو تحزب، ومواقف ذات منهج خاص ونظرة مختلفة، بخلاف ما كان من أمر حرب صفين التى انبثق عنها فرقة الخوارج بمعتقداتها ونظرياتها وتفكيرها ذى اللون الذى يميزها تمييزاً خاصًا ويشق بها طريقًا لم يسلكه أحد من قبلها.

وعلى هذا فإن حرب الجمل لم تترك إلا آثار بصماتها على الفرق الإسلامية التى تناولت أصحابها بالبحث والنظر فصوبت البعض وخطأت البعض الآخر ومنهامن تفرد بنظرة خاصة:

١- فإن أهل السنة صوبوا عليًا فى حروبه بالمواقع الثلاثة: أى الجمل وصفين والنهروان، واعترفوا بإمامة على إبان خلافته لأنه صاحب الحق فيها، واعتقدوا بتوبة كل من طلحة والزبير لأنهما رجعا عن الحرب، فقد قتل الزبير بوادى السباع بيد عمر بن

(١) الطبرى: ج٣، ص٥٤٧. ابن الأثير: الكامل. ج٣، ص١٠٢.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد. ج٣، ص١٠٥.

(٣) تاريخ اليعقوبى: ج٢، ص٢٤٨.

حرمور بعد انصرافه، وقتل طلحة بسهم رماه به مروان بن الحكم لما هم هو الآخر بالانصراف. وأن السيدة عائشة هى الأخرى لم تخرج إلا بقصد الإصلاح «فغلبها بنو ضبة والأزد على رأيها وقاتلوا عليًا دون إذنها حتى كان من الأمر ما كان»[1].

٢- ومما يتفق عليه الخوارج على تعدد فرقهم زعمهم أن عليًا وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين وكل من رضى بالحكمين كفروا كلهم[2].

وأورد البغدادى هذا المعنى بشىء من التفصيل فذكر أن الكعبى اعتبر ما يجمع الخوارج مع اختلاف مذاهبها «أكفار على وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل وكل من رضى بتحكيم الحكمين.. والأكفار بارتكاب الذنوب.. ووجوب الخروج على الإمام الجائر» ثم قارن بين ما ذكره الكعبى وبين ما يراه الإمام الأشعرى فيقول: «وقال شيخنا أبو الحسن الذى يجمعهما تكفير على وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضى بالتحكيم وصوب الحكمين وأحدهما ووجوب الخروج على السلطان الجائر، ولم يرض ما حكاه الكعبى من إجماعهم على تكفير مرتكبى الذنوب».

ويعلق البغدادى على هذا بأن الصواب فى جانب الإمام الأشعرى أما الكعبى فقد أخطأ فى دعواه[3].

إلا أن الخوارج فى تفكيرهم لعلى يفصلون بين مرحلتين:

١- المرحلة الأولى التى حارب فيها طلحة و الزبير وعائشة وأتباعهم فى معركة الجمل، فإن عليًا كان مصيبًا وعلى حق فى قتالهم أما هم فقد كفروا بقتالهم عليًا وكذلك الحال على قتال على لمعاوية وأصحابه بصفين.

٢- المرحلة الثانية عند قبوله للتحكيم فقد كفر.

ولم يطعن أهل السنة- كما أسلفنا- فى أحد من الفريقين سواء على أصحاب الجمل، وأعتبروا إسلامهم صحيحًا معًا، وقد أخطأ أصحاب الجمل فى أن يكون هذا الخطأ كفرًا ولا فسقًا وإنما كانوا «عصاة مخطئين» فلا تسقط شهادتهم.

٣- وانفرد واصل بن عطاء (١٣١هـ- ٧٤٨م) شيخ المعتزلة اعتقاد جديد لا يتبع هذا أو ذاك، فاعتبر أن فرقة الفريقين فاسقة «لا بأعيانهم أنه لا يعرف الفسقة منهما»[4].

---

(١) البغدادى: الفرق بين الفرق. ص٣٤٢.

(٢) الأسفرايني: التبصير فى الدين. ص٤٦.

(٣) البغدادى: الفرق بين الفرق. ص٥٥.

(٤) نفس المرجع: ص٩٩، ١٠٠.

فأجاز أن يكون الفسقة إما عليا وأتباعه، أو طلحة والزبير والسيدة عائشة وأتباعهم فالنتيجة لإعتقاده إذاً أنه إذا شهد من هذا المعسكر على والحسن والحسين وابن عباس وعمار بن ياسر، أو من المعسكر الثانى عائشة وطلحة والزبير لم يقبل شهادتهم قائلاً: «لو شهدوا جميعًا على باقة بقل لم أقبل»[1].

وسار أتباع واصل بن عطاء فرقة الواصلية من المعتزلة كما يسميهم الإمام فخر الدين الرازى إذ أن تقسيمه للمعتزلة جعل لهذه الفرقة السمة الخاصة التى تميزهم عمن سواهم لأن منهبهم «إن عليًا وطلحة إن شهدا فى شىء واحد فشادتهما غير مقبولة. وإن شهد فيه كل واحد منهما مع شخص آخر فشهادته مقبولة»[2].

وقد هاجم أهل السنة واصل بن عطاء لإعلانه هذا، ونجد شماتة البغدادى فى بعض الشيعة من الروافض الذين اعتزلوا، فيقول: «ولقد سخنت عيون الرافضة القائلين بالاعتزال بشك شيخ المعتزلة فى عدالة على وأتباعه». ثم يتبعه بشعر يهاجمه فيه بقسوة.

مقالة ما وصلت بواصل   بل قطع الله بها أوصالها[3]

كما يعلق الأسفراينى متعجبا: (٤١٨هـ- ١٠٢٧م):

«هذا قول لشيخ المعتزلة الذى به يفتخرون فى أعلام الدين وأعيان الصحابة وليس العجب من المعتزلة حين تابعوا وافتخروا به وبقوله، بل العجب من الروافض حين افتخروا بقوله وانتحلوا مذهبه، وهذا قوله فى على وأصحابه، وكيف يوالون عليًا وأولاده ويذهبون إلى مذهب هذا الشيخ الضال الذى يقول فى على وأولاده ما ذكرناه»[4].

(٣٠٠هـ - ٩١٢م)

ويدافع الحسن الخياط المعتزلى، عن شيخه هنا، فيفسر ما ذهب إليه واصل بن عطاء تفسيراً آخراً، فالقوم عنده- أى عند واصل- أتقياء أبرياء مؤمنين يشهد لهم بجهادهم وسابق أعمالهم الجليلة وهجرتهم مع رسول الله ﷺ. فهم إذا حاربوا بعضهم بعضًا التبس الأمر عليه فلم يعرف من منهم المصيب ومن المخطئ، وقال: «لقد علمنا أنهم ليسوا بمحقين

---

(١) الأسفراينى: التبصير فى الدين. ص٦٦.

(٢) الإمام فخر الدين الرازى: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. ص٤٠.

(٣) البغدادى: الفرق بين الفرق. ص١٠٠.

(٤) التبصير فى الدين: ص٦٦.

جميعًا، وجائز أن تكون إحدى الطائفتين محقة والأخرى مبطلة، ولم يتبين لنا من المحق منهم من المبطل فوكلنا أمر القوم إلى عالمه، وتولينا القوم على أصل ما كانوا عليه قبل القتال، فإذا اجتمعت الطائفتان قلنا: قد علمنا أن إحداكما عاصية لا ندرى أيكم هى»[1].

كما يؤيد الخياط ما روى عن اجتماع على وطلحة والزبير بالبصرة للمناظرة ولكن أصحابهم هم الذين بدأوا القتال على كراهة منهم، فإن الزبير قال عند نشوب الحرب: «سبحانا الله، ما ظننت أن فيما جئنا له يكون قتال». وهو تأيد أيضًا بقول على: «أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانًا على سرر متقابلين﴾»[2].

ولكن المعتزلة عندما خاضوا فى هذه المسألة بعد واصل انقسموا فريقين: منهم من وافقه وخالفه آخرون.

«ومن أهم مخالفيه تلميذه- أو صديقه بمعنى أدق- عمرو بن عبيد ابن باب مولى بن تميم، الذى شارك أصلاً فى جميع عقائده ولكنه يختلف عنه فى فكرته عن على وأعدائه، فهو يرى فسق كلتا الفرقتين المتقاتلتين»[3].

٤- أما شيعة على، فكانت تفسق الفريق الآخر فسقًا ظاهرًا وباطنًا[4].

الصواب مع على:

وقف أهل السنة يدافعون عن على فى حربه ضد أصحاب الجمل، وأعطوه الحق كله فى دفاعه عن خلافته بالسيف، متسلحين بطرق المتكلمين فى الحجاج وإقامة الحجة ببراهين قاطعة.

فليس من حق الطالبين بدم عثمان أن يتولوا الحكم بدلاً من على، لأن طالب الدم إذا اتهم القاضى لا يوجب الخروج عليه، وإنما يطلب الحق عنده فحسب، وإن اتهموه هو نفسه بقتل عثمان، فإن أصحاب رسول الله صلوات الله عليه يصبحون متهمين جميعًا- ممن

---

(١) الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد. ص٩٧.

(٢) المرجع السابق. ص٦٠.

(٣) الدكتور النشار: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام. ج١، ص٤١٩، ص٦٥.

(٤) المصدر السابق: ص٨٧.

يقيمون فى المدينة- «ولأن ألف رجل جاءوا لقتل عثمان لا يغلبون أربعين ألفًا»[1] أى أنهم تقاعدوا عن نصرته.

وقد بغى عليه محاربوه لأنه هو الإمام الحق، ولكن يجب أن يحسن الظن بهم لأنهم قصدوا الخير وإن أخطأوه. أما قصد السيدة عائشة فإنه تسكين الثائرة وتهدئة النفوس المضطربة «ولا يعصم واحد من الصحابة عن زلل، والله ولى التجاوز بمنه وفضله»[2].

أما الأدلة على صحة العقد له، فيوضحها الباقلانى بتفصيل دقيق مسهب، ويرد على متهميه مفندًا جميع الأقوال وهى:

أولاً: إن الدليل أنه يجب الانقياد لعلى عندما تمت له البيعة أن الصحابة أرادوا حسم الفتنة التى أشرأبت بأعناقها تبغى الشر، فعرضوا عليه الخلافة فأبى واستعظم فداحة مقتل عثمان، ثم عرض الأمر على كل من طلحة والزبير فأبيا كذلك لأنهم كانوا يستنكرون قتل عثمان جميعًا.

ولكن أهل الفتنة هموا بمحاربة أهل المدينة والفتك بأصحابها، فتشاور كبار المهاجرين والأنصار عشية اليوم الثالث من مقتل عثمان، فألحوا على علىّ أن يقبل الخلافة عارضين عليه ما آل إليه حال المسلمين، وما سيصير إليه إن ظلوا دون إمام يجمع شملهم ويقف مدافعًا عنهم، فقبل فى النهاية لما رأى مصلحة المسلمين فى قبوله حمل هذه الأمانة.

وقد بايعه قوم من وجوه المهاجرين والأنصار- منهم خزيمة بن ثابت، وأبو الهيثم بن التيهان، ومحمد بن مسلمة، وعمار بن ياسر (وهذا من أصح العقود وأثبتها، لأن المعقود له أفضل من بقى، ومن ذكرناه من العاقدين بصفة من يملك عقد الإمامة فى الفضل والسابقة فوجب بذلك تمام بيعته وصحة إمامته)[3].

ثانيًا: أما ما روى عن إكراه طلحة على البيعة بالسيف الذى أشهره حكيم ابن جبلة العبدى، وتهديد الزبير بواسطة ملك الأشتر بالسيف أيضًا مما اضطر طلحة إلى البيعة مكرهًا مقدمًا يده الشلاء إلى على فقال قائل: «لا إله إلا الله... أول يد صفقت على يد أمير المؤمنين يد شلاء، والله لا يتم هذا الأمر».. ولهذا قيل على لسان طلحة والزبير

(١) أبو بكر ابن العربى: العواصم من القواصم. ص١٦٤- ١٦٦.

(٢) إمام الحرمين الجوينى: الارشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد. ص٤٣٣.

(٣) التمهيد: ص٢٢٩، ٢٣٠.

أنهما بايعاه بأيديهما دون قلوبهما، أو أن شروط بيعتهما أن يقتل قتلة عثمان.

ومن وجه آخر عن على أنه قال: «بايعانى فى المدينة وخلعانى بالعراق».

فإن كل هذا إن صح لا يقدح أيضًا فى صحة إمامة على.

فإن البيعة بعد تمامها توجب الطاعة لمن أوقعها، وأصبح من واجب كل من طلحة والزبير طاعة على، لأن الانقياد لعلى أصبح واجبًا بعد أن عقدت له البيعة بواسطة من ذكرناهم آنفًا، ولا اعتبار بالصورة التى تمت عليها بواسطتهما أى حتى ولو صح ما قيل أنهما بايعا مكرهين لأنها أثبتت قبل بيعتهما.. «ولو تأخرا عن الانقياد لإمامته لوجب أن يكونا مأثومين فى ذلك».

ومع أن قولهما: «بايعناك مكرهين» قد عورض من النقل بما يدفعه[1].

ولا متعلق لأحد فى القول بأن أول يد صفقت على يد أمير المؤمنين يد شلاء لأن قائلها قد يحتمل قصده أنها أول يد صفقت على يده بالمسجد حينئذ ولم يرد أول يد بايعت على. ومن المحتمل أيضًا أن قائل هذه العبارة قد ظن أنها أول يد بايعت ولم يحضر مبايعة السابقين على طلحة.

ويستبعد أيضًا تعليق البيعة على شرط قتل قتلة عثمان لأنه إن صح اتفاق الطرفين: على من ناحية وطلحة والزبير فى جانب آخر لكان خطأ فى الدين، وهو ما ينبغى أن ينفى عنهم جميعًا.

فإن رأى الفقهاء أن عقد الإمامة لرجل بشرط قيامه بقتل جماعة بالواحد غير جائز. وإذا فرضا وأدى اجتهاد على إلى أنه يصح قتل الجماعة بالواحد، فإنه من غير الجائز أن يقتلهم إلا بعد قيام البينة عليهم بأعيانهم.

وليس لأحد أن يتم عقد الإمامة بشرط إقامة حد من حدود الله عملاً برأى الرعية ولا يصح أيضًا أن يقبل المعقود له قبول البيعة تحت هذا الشرط.. لهذا «وجب إطراح هذه الرواية» ولو صحت أيضًا لم تكن قادحة فى صحة العقد الذى تم لعلى ولا إعتبار لهذا الشرط «لأن الغلط فى هذا من الإمام الثابتة إمامته ليس يفسد ويجب خلعه وسقوط فرض طاعته عند أحد»[2].

---

(١) التمهيد: ص٢٣١.

(٢) التمهيد: ص٢٣٢.

ويرى الباقلانى بالإضافة إلى كل ما تقدم أن اجتهاد على أدى به إلى أن قتل قتلة عثمان فى هذا الوقت سيسبب فساداً واضطرابًا كبيراً، ففضل تأخير إقامة الحد حتى يتقصى الحقيقة مما يصبح أصلح للأمة.

ثالثًا: وقيام حرب طلحة والزبير ضد على وحتى خلعهما له إن صح لا يقدح فى إمامته ولا يسقط وجوب طاعته. وكان حربهما له مسألة من مسائل الاجتهاد كما يقول البعض، فإن كل مجتهد مصيب كإصابتهم فى مسائل الأحكام، ومن الناس من يقول بأن الحق فى رأى على وحده أما خطأ طلحة والزبير فى الإجتهاد فلا يبلغ بهما الفسوق والإثم. ومنهم من يقول بأنهم جميعًا مستدلين بما روى عن محاربة طلحة والزبير وأم المؤمنين السيدة عائشة.

فإن ندم السيدة عائشة عن يوم الجمل يظهر واضحًا من قولها: «وددت أن لو كان لى عشرون ولداً من رسول الله ﷺ كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، وإنى ثكلتهم، ولم يكن ما كان منى يوم الجمل»[1].

كما قال طلحة لشاب من عسكر على وهو يجود بنفسه: «أمدد يدك أبايعك يا أمير المؤمنين» ويعتمد الذاهبون إلى هذا الرأى على حديث رسول الله ﷺ: «عشرة من قريش فى الجنة، ومنهم طلحة والزبير» فقالوا: «ولم يكن ليخبر بذلك إلا من علم منه بأنهما سيتوبان مما أحدثاه ويوافيان بالندم والإقلاع»[2].

رابعًا: أن تأخر سعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن عمر وغيرهم وعدم مناصرتهم له لا يخلع عن على بيعته، لأنهم جميعًا لم يطعنوا فى إمامته أو اعتقدوا فى فسادها، وإنما قعدوا عن نصرته- إما لأنهم لم يتثبتوا من وجود الحق فى جانب أحد الطرفين المتحاربين إذ قال أحدهم: «لا أقاتل حتى تأتينى بسيف له لسان يعرف المؤمن من الكافر ويقول: هذا مؤمن وهذا كافر فاقتله» أو أنهم يخشون المشاركة فى الفتنة كما أخبر محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ أمره إن قامت فتنة بين المسلمين أن يستبدل سيفه بسيف من خشب، وقول أسامة بن زيد: «قد علمت يا على أنك لو دخلت بطن أسد لدخلت معك فيه، ولكن لا مواساة فى النار».. فلم يصدر منهم جميعًا ما ينبىء منهم على الطعن فى إمامته.

---

(1) التمهيد: ص٢٣٢، ٢٣٣.

(2) نفس المصدر: ص٢٣٣.

وهم جميعًا غير مأثومين فى التأخر عن نصرة على لأنه لا يلزمهم بهذا لعلمه بتخوفهم من حرب إخوانهم فى الإسلام ولسماعهم من رسول الله ﷺ ما يفزعهم من هذه الحرب فقد روى سعد بن أبي وقاص عن النبى ﷺ أنه قال: «قتال المسلم كفر، وسبابه فسوق، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

وروى جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد ولكن فى التحريش بينهم» فهم جميعًا معذورون لأن فى بعض ما سمعوا عن رسول الله صلوات الله عليه ما يوجب الحذر والخوف من قتال المسلمين «إلا أن يؤدى الاجتهاد إلى أنه مستحق للقتال، فإن فرض ذلك قد يتعين على الإنسان فيلزمه حينئذ»[1].

خامسًا: إن موقف على بلغ به أعلى مراتب الحرج والصعوبة، فهو لم يكن يستطيع الحد من قوم لا يعرفهم بأعيانهم، وهم فى الوقت نفسه مختلطون بعسكره لا يستطيع تميزهم فرادى. وهو فى حرب مع المطالبين بدم عثمان غير محددين أحداً بعينه ولا مقيمين البينة عليه ولا يوجد إقرار أو اعتراف بالقتل من أحد.

وعلى بين أناس فى جيشه من أمثال ملك الأشتر النخعى وابن بديل ابن ورقاء وابن سبأ ومحمد بن أبى بكر والغافقى ممن يطعنون على عثمان، وهو فى الوقت نفسه لا يمكنه الانتقام منهم، بل التصريح بإنكاره لقتل عثمان، لأن هذا سيفسد معسكره بينما هو فى حالة حرب «فكان إذا سئل عنه- أى مقتل عثمان- أورد الكلام المحتمل وتغلغل إلى لطيف التأويل والرفق بالفريقين محاربيه ومؤيديه معًا. وأصبح كل من المعسكرين يؤول كلامه بفهم مضاد للآخر.. مقاتلوه يعتقدون أنه آثر قتل عثمان لأن قتلته مختلطين بعسكره، ومؤيدوه يظنون العكس».

فمن أقوال على التى أولها السامعون: «والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله ولكن الله قتل عثمان وأنا معه»[2].

فظن البعض أنه قاتله إذ قرن نفسه به بقوله: «وأنا معه». ولم يكن هذا قصد على بل المعنى الذى أراده الله أماته «ويميتنى معه»، لأنه حلف صادقًا أنه لم يقتله ولم يوعز بقتله.

ومن الأقوال التى أولت أيضًا ما فسروه بقوله: «والله ما سائنى ذلك ولا سرنى» أما قصده الحقيقى فإن «ما سائنى» يعنى بها المطالبين بدم عثمان، كما أنه لا يسره قتله أيضًا وهو القائل فى قتلته: «اللهم العن قتلة عثمان فى البر والبحر».

(١) التمهيد: ص٢٣٤، ٢٣٥.   (٢) التمهيد: ص٢٣٥، ٢٣٦.

وسألوه أيضًا عن دم عثمان فقال: إن دم عثمان فى جمجمتى هذه » فاختلفوا فى تفسير عبارته، فقال بعضهم إنه هو الذى قصد نفسه بقتل عثمان، وهذا خطأ، أما الذين فهموا المعنى الحقيقى، ففسروه بأن دم عثمان فى عنقه وواجبه الانتقام من قتلته متى استطاع إقامة الحد عليهم ومعرفتهم واحداً فواحد[1].

وقد صارت عبارة: «إن الله قتله وأنا معه» فيما بعد من الأمثلة التى تضرب على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى تفسير المعانى لغويًا، فإن البطليوسى[2] يقدمها كمثال للاشتراك فى الألفاظ مع الدلالة على معان مختلفة، أو احتمال التأويلين المتضادين.

ويشرح قول على بأنه عطف « أنا » على الهاء من «قتله» وجعل الهاء فى «معه» عائدة على عثمان.

أما تأويل الخوارج فقد ذهب بعيداً وحمل العبارة ما لا تحتمل، لأنهم عطفوا «أنا» على موضع المنصوب بأن، وجعلو الضمير فى قوله «معه» عائداً على الله تعالى.

ومن الطريف أن الشعر تدخل أيضًا فى هذا الميدان فقيل:

إذا سـيل عنه حـذا شـبـهـة ... وعـمى الجـواب على السـائلينا

فـليس براض ولا سـاخط ... ولا فى النهـاة ولا الآمـرينا[3]

وعلىّ نفسه بهذه الأقول والتأويلات كلها عالم بها وبصير لها، فهناك قتلة عثمان المختلطون بعسكره المحاربون تحت رايته والقاعدون عنه «وكان على عليه السلام، أبصر وأعلم بما يعرض لهم من الشبهات وكان يبرئهم من المآثم فلا يجبر القاعد عنه على الحرب علمًا منه بما سبق إلى وهمه مما هو برىء منه»[4].

كما كان عادلاً فى معاملته لمحاربيه بما أوصى به أصحابه من وصايا عديدة، فإنه أمرهم أن يكفوا ايديهم وألسنتهم لأنهم إخوانهم وطلب منهم أن يصبروا. وفى خطبة أخرى له أمرهم ألا يقاتلوا حتى يبدأوا فإذا هزموهم فلا يجهزوا على جريحهم أو الهاربين أو

(١) التمهيد: ص٢٣٦.

(٢) فى كتابه «الانصاف فى التنبيه على الأسباب التى أوجدت الاختلاف بين المسلمين فى آرائهم» واسم مؤلفه كاملاً أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى الأندلسى المتوفى سنة ٥٢١هـ.

(٣) المصدر السابق ص٢٤. (٤) التمهيد: ص٢٣٦.

يمثلوا بالقتلى أو يهتكوا الأستار ولا يدخلوا بيوتهم بغير إذن أو ينهبوا أموالهم وأن يرفقوا النساء حتى لو سببنهم لأنهن مؤمنات.

فاعتباره المسلمين إخوة والمسلمات مؤمنات يدل على أنهم جميعًا متساوون عنده في الرتبة والمنزلة الدينية[1].

وقد سئل على كثيراً فى أسباب الإقدام على محاربة معسكر الجمل، وكيفية معاملتهم، وشرعية الأهداف التى يدافعون عنها.

وكان رأيه الذى يستنتج من ردوده على سائليه يتلخص فيما يلى:

١- إنه يأمل أن يستجيبوا له وبهذا يرتئب الصدع ويجتمع شمل الأمة.

٢- إذا لم يستجيبوا لدعوة الإصلاح فإنهم يدعهم وشأنهم إن تركوه، فإنه لم يتركوه معليهم- أى على ومعسكره- دفعهم عن أنفسهم.

٣- إن لمحاربيه حجة فى المطالبة بدم عثمان، أما حجة على فى التأخير بقتل قتلته فهو أن الشىء إذا كان لا يدرك، فالحكم فيه أحوط وأعود نفعًا[2].

٤- بهذا فقد سوغ على لمحاربيه التأويل بالرغم من أن واجبه يقتضى حربهم حتى يكفوا عنه إلى ما هو عنده أولى.

ويرى الإمام الباقلانى أن قيامه بدفعهم عنه وهو «فرض عليه» ويقدم مثالاً من أحكام الشريعة، فإن «فرض» المرأة إذا رأت أن زوجها قام بطلاقها أن لا تمكنه منها، أما «فرض» الزوج فى هذه الحال فهو الطلب واستباحة الاستمتاع بها «ولا سيما إذا لم يكونا بحيث يفصل الحاكم بينهما ويجيز أحدهما على حكمه»..

وهكذا فإن «فى أمثال هذا مما لو تتبع فى الشريعة لكثر»[3].

هذا هو دفاع الباقلانى- أحد أئمة أهل السنة والجماعة- الذين وقفوا سداً ضعيفًا فى وجه الخوارج لتكفيرهم لعلى.

أما المتكلم بلسان العقائد السلفية فى صورتها الأخيرة- وهو ابن تيمية- فإنه أجمل دفاعه عن على فى التأكيد بندم طلحة والزبير والسيدة عائشة على حرب الجمل، وأن الاقتتال وقع دون قصد من الفريقين، وإنما بسبب أهل الفتنة- قتلة عثمان- الذين ألبوا

(١) التمهيد: ص٢٣٧. (٢) نفس المرجع: ص٢٣٧.
(٣) التمهيد: ص٢٣٧.

كل معسكر على الآخر، فظن كل فريق أن الآخر بدأه بالقتال فدافع عن نفسه[1]، فقد انحصر غرض معسكر الجمل على طلب قتلة عثمان، وهم فى منعة من قبائلهم فلم يستطيعوا لهذا السبب أخذهم بالثأر لعثمان، فأقبلو على علىّ ليظهروا قصدهم، فشاركهم رأيهم فى ضرورة الاقتصاص من قتلة عثمان «لكن لا يتمكن حتى ينتظم الأمر، فلما علم بعض القتلة ذلك حمل أحد العسكرين فظن الآخرون أنهم بدأوا بالقتال فوقع القتال بقصد أهل الفتنة لا بقصد السابقين الأولين»[2].

فإذا حدث ما حدث بين الفريقين، فإن هذا لا يمنع أيضًا من أنهم من خيار أولياء الله المتقين كما دل الكتاب والسنة، بل إنهم أيضًا من أهل الجنة[3].

وهكذا انقضت خلافة الخلفاء الراشدين، أو كما يسميها ابن الطقطقى (٧٠١هـ ١٣٠١م)- دولة الأربعة- وقد تحققت فيها خلافة النبوة. يقول الإمام ابن حنبل: «كل بيعة كانت فى المدينة فهى خلافة نبوة». وقد تمت بها بيعة أبى بكر وعمر وعثمان، كما كانت بيعة على بن أبى طالب بها أيضًا ثم خرج منها ولم يعقد بعده بالمدينة بيعة، وذهب الإمام إلى أن ما سنه هؤلاء الخلفاء بعد حجة ينبغى اتباعها[4].

وقد اتسمت دولة الأربعة بمميزات مثالية انفردت بها، وظلت تميزها، فهى «لم تكن من طرز دول الدنيا، وهى بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه، والحق فى هذا أن زيها كان زى الأنبياء، وهديها هدى الأولياء، وفتوحها الملوك الكبار»[5].

وبحث أهل السنة والجماعة جيداً فى الأسس التى قامت عليها خلافة الراشدين وفحصوا الأخبار التى نقلها الثقات وأخضع المتكلمون هذه الأحداث لطرق حجاجهم الكلامية فاستخدموا المنهج العقلى للاستدلال على مدى صحة النص الذى يعتقده الشيعة، وخرجوا من كل هذا بأن النبى ﷺ لم ينص على إمامة أحد بعده، إذ لو نص على ذلك لظهر وانتشر كما ذاع كل أمرخطير «وإذا ثبت أن الإمامة لم يثبت نصًا لأحد، دل فى أنها تثبت اختياراً»[6].

وسنعرض فى الفصل القادم لموقف أهل السنّة والجماعة من العقائد الشيعية فى الإمامة.

(١) ابن تيمية: منهاج السنة: ج٢، ص١٨٥.
(٢) منهاج السنة: ج٣، ص٢٢٥.
(٣) منهاج السنة ج٣، ص٢٤١.
(٤) ابن تيمية: صحة أصول مذهب أهل المدينة: ص٢٦.
(٥) ابن الطقطقى: الفخرى، ص٥٢.
(٦) الجوينى: لمع الأدلة. ص١١٤، ١١٥.

الحرب على الصحابة

فى البداية كانت الحرب على الإسلام بالسلاح والتعذيب.. وكان ذلك فى مكة حيث بدايات الدعوة.

وحين إنتقل المسلمين إلى مجتمع المدينة لتبدأ إرهاصات أول دولة فى الإسلام حتى ووجهوا بحرب من نوع جديد وهى الحرب النفسية وحرب الإشاعات وكل تلك الأساليب التى أتقنها اليهود فضلاً عن المنافقين.

وها هى الحرب تعود اليوم. أكثر شراسة وعنف ولكن أنىٌ لأحد. أى أحد. أن ينال من الصحابة. مصابيح الدجى.. ناقلوا الهدى النبوى بل هدى الإسلام بكل الأمة.. بل لكل العالم مقتدين بسيدنا رسول الله ﷺ والذى بعث رحمة للعالمين،



هؤلاء هم الصحابة
نماذج من بعض الصحابة - رضى الله عنهم - الذين تعرضوا لهجوم المغرضين

خالد بن الوليد

خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلَّهُ الله على المشركين.

قال أبو بكر - رضي الله عنه - يومًا: «عجزت النساء أن يلدن مثل خالد».

وها هي الأيام تمر والسنوات تمضى، وما رأينا واحداً مثله أبداً، مع أن الأمة فى أشد الحاجة إلى «خالد» يولد فى كل يوم ليحمل لواء الإسلام الذى انتكس منذ عشرات السنين ولم يجد من يحمله.

إن «خالداً» واحداً فتح الله به البلدان، ودكَّ به الحصون ودمرَّ به الكفران فماذا لو كانت الأمة كلها «خالداً»؟!!

إنى تذكَّرت والذكرى مؤرقة ... مجداً تليداً بأيدينا أضعناه

أنَّى اتجهت إلى الإسلام فى بلدٍ ... تجده كالطير مقصوصًا جَناحاه

كم صرَّفتنا يدٌ كنا نصرِّفها ... وبات يملكنا شعبٌ ملكناه

استرشد الغرب بالماضى فأرشده ... ونحن كان لنا ماضٍ نسيناه

إنا مشينا وراء الغرب نقبس ... من ضيائه فأصابتنا شظاياه

بالله سل خلف بحر الروم عن عربٍ ... بالأمس كانوا هنا واليوم قد تاهوا

وانزل دمشق وسائل صخر مسجدها ... عمَّن بناه لعل الصخر ينعاه

هذى معالم خرسٌ كل واحدة ... منهن قامت خطيبًا فاغراً فاه

الله يعلم ما قلبت سيرتهم ... يومًا وأخطأ دمع العين مجراه

يا من يرى عُمَراً تكسوه بُردته ... والزيت أدمٌ له والكوخ مأواه

يهتز كسرى على كرسيه فرقًا ... من خوفه وملوك الروم تخشاه

يارب فابعث لنا من مثلهم نفراً ... يشيدون لنا مجداً أضعناه[1]

---

(١) صدقوا ما عاهدوا/ للمصنف (ص١١٨).

وها نحن على موعد طال والله انتظاره مع مشهد الإسلام فى عزته وقوته.. مع الرجل الذى رفع الله به هامات المسلمين ورايات الإسلام خفّاقة عالية تناطح كواكب الجوزاء.

إنه خالد بن الوليد- رضي الله عنه - سيفُ الله تعالى، وفارسُ الإسلام، وليثُ المشاهد، السيدُ الإمام الأميرُ الكبير، قائدُ المجاهدين، أبو سُليمان القرشيُّ المخزوميُّ المكيُّ، وابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث.

هاجر مسلمًا فى صفر سنة ثمان، ثم سار غازيًا، فشهد غزوة مؤتة، واستُشهد أمراءُ رسول الله ﷺ الثلاثة: مولاه زيدٌ، وابنُ عمه جعفر ذو الجناحين، وابنُ رواحة، وبقى الجيش بلا أمير، فتأمّر عليهم فى الحال خالدٌ، وأخذ الراية، وحمل على العدو، فكان النصر وسماه النبى ﷺ: سيف الله، فقال: «إن خالداً سيفٌ سلّه الله على المشركين». وشهد الفتح وحُنينًا، وتأمّر فى أيام النبى ﷺ، واحتبس أدراعه ولأمته فى سبيل الله، وحارب أهل الردة، ومسيلمة، وغزا العراق، واستظهر، ثم اخترق البرية السماوية بحيث أنه قطع المفازة من حدِّ العراق إلى أول الشام فى خمس ليال فى عسكر معه، وشهد حروب الشام، ولم يبق فى جسده قيدُ شبر إلا وعليه طابعُ الشهداء.

ومناقبه غزيرة، أمّره الصدِّيق على سائر أمراء الأجناد، وحاصر دمشق فافتتحها هو، وأبو عبيدة.

عاش ستين سنة وقتل جماعة من الأبطال، ومات على فراشه.

فلا قرّت أعينُ الجبناء.

توفى بحمص سنة إحدى وعشرين(١).

إسلامه- رضي الله عنه- من هنا نبدأ

أنا لا أستطيع أن أكتب كلمة واحدة عن ماضيه قبل أن يُسلم، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله.. ويكفيه شرفًا والله أن يقدم التضحيات والبطولات للإسلام.

ولذلك فأنا أعتبر ميلاده منذ تلك اللحظة التى خشع فيها قلبه لله، وامتلأت جوارحه بالرغبة الشديدة والشوق لنصرة دين الله.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣٦٦- ٣٦٧).

أما عن قصة إسلامه

فإن الله لما ألقى الإسلام في قلب عمرو بن العاص - رضي الله عنه - فخرج عامداً إلى رسول الله ﷺ ليُسلم بين يديه.

قال عمرو - رضي الله عنه - فلقيتُ خالد بن الوليد، وذلك قُبيل الفتح، وهو مُقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنْسم[1]، وإن الرجل لنبيّ، أذهبُ والله فأسلم، فحتى متى؟ قال: قلت: والله ما جئتُ إلا لأسلم، فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدّم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوتُ، فقلت: يا رسول الله، إني أبايعك على أن يُغْفَر لي ما تقدّم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، قال: فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو بايع، فإن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها»، قال: فبايعته ثم انصرفت[2].

ولما أتى خالدٌ مسلمًا هو وعمرو بن العاص قال ﷺ: «ألقت إليكم مكةُ أفلاذ أكبادها». وقال النبي ﷺ: «اللهمَّ اغفر لخالد بن الوليد كلَّ ما أوضع فيه من صَدٍّ عن سبيلك».

قال خالد: فوالله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمتُ يعدِلُ بي أحداً من أصحابه فيما يُجزنه.

وفي رواية: فيما كان حَزَبَهَ. وفي رواية عمرو: في أمر حَزْبِهِ[3].

خالد (سيف الله) يحمي انسحاب المسلمين من مؤتة

وفي معركة مؤتة بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء، وقال: «عليكم زيد ابن حارثة، فإن أصيب زيد فجعفر، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة الأنصاري»، فوثب جعفر فقال: بأبي أنت يا نبي الله وأمي ما كنت أرهب أن تستعمل عليَّ زيداً! قال: «امضوا فإنك لا تدري أي ذلك خير» قال: فانطلق الجيش فلبثوا ما شاء الله. ثم إن رسول الله ﷺ صعد المنبر وأمر أن ينادي الصلاة جامعة فقال رسول الله ﷺ: «ناب خير أو ثاب خير-

---

(١) استقام المنسم: تبين الطريق ووضح.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٩٨، ١٩٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٢٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٤٥٤) وحسّن إسناده الألباني في الإرواء (٥/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٢)، (٧/ ٣٩٤).

ألا أخبركم عن جيشكم هذا الغازى؟ إنهم انطلقوا حتى لقوا العدو فأصيب زيد شهيداً فاستغفروا له» فاستغفر له الناس «ثم أخذ اللواء جعفر بن أبى طالب فشد على القوم حتى قُتل شهيداً أشهد له بالشهادة فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى أصيب شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد، ولم يكن من الأمراء، وهو أمر نفسه» فرفع رسول الله ﷺ أصبعيه وقال: «اللهم هو سيف من سيوفك فانصره» أو قال: «فانتصر به» فيومئذ سُمّى خالد سيف الله، ثم قال النبى ﷺ: «انفروا فأمدوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد» فنفر الناس فى حر شديد مشاة وركبانًا»[1].

وفى رواية عن أنس-رضي الله عنه- أن النبى ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرُهم فقال: «أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذ جعفرٌ فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب- وعيناه تذرفان- حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[2].

وفى هذه المعركة العظيمة يخلع رسول الله ﷺ أرفع وسام على صدر خالد وهو ينسحب بجيش المسلمين، فكيف يسمى رسول الله ﷺ خالد بن الوليد سيف الله وهو ينسحب- لهذا- بسببٌ أرق من نسيم الفجر وأحلى من الشهد.

فقد كانت معركة «مؤتة» أول معركة يشترك فيها خالد بعد إسلامه، وبعد قتل قادة الجيش الثلاثة وانكشاف صف المسلمين، كما قال أبو عامر: انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى لم أر اثنين جميعًا.

ودفع ثابت بن أقرم اللواء إلى أبى سليمان خالد بن الوليد قائلاً: خذ اللواء يا أبا سليمان، فأنت أدرى بالقتال منى، والله ما أخذته إلا لك».

وتلقى خالد اللواء، وأصبح قائداً عامًا لقوات المسلمين فى أصعب ظروف.. جيش أنهكه القتال الشديد الضارى طيلة الأيام الستة.. ثلاثة آلاف مسلم يواجهون جيشًا قوامه مائتا ألف مقاتل، جيش قد انفرط عقده وفقد تنظيمه، موقف جعل هذا الجيش مُهيًا لأن يُدمَّر تدميراً كاملاً، أو يقع بكامله أسيراً فى قبضة الرومان وأحلافهم من العرب.

واعتلى العبقرى جواده، ودفع الراية بيمينه إلى الأمام، كأنما يقرع أبوابًا مغلقة آن لها أن تُفتح، على طريق طويل سيقطعه البطل وثبًا وثبًا فى حياة الرسول ﷺ وبعد مماته، حتى تبلغ المقادير به أمراً كان مقدوراً.

(١) رواه أحمد (٥/٣٩٩) والنسائى فى فضائل الصحابة (١٧٧) وقال العدوى: وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخارى (٤٢٦٢) وأحمد (٣/ ١١٣) والنسائى (٤/٢٦).

وقد كانت خطة انسحاب خالد بالجيش رائعة.. فقد قام بتبديل كُلىٍّ فى الميمنة والميسرة والقلب من جيشه، فجعل رجال ميمنة الجيش مكان رجال الميسرة، كما جعل رجال الميسرة مكان رجال الميمنة، كما استبدل رجال القلب برجال آخرين، كل هذا فى ظلام الليل، وجعل مقدمة الجيش ساقه وساقته مقدمة.. أى أنه سحب جيشه من ساحة المعركة وأبقى ساقه تحمى الانسحاب، نشر هذه الساقة ليحتل فرسانها مساحة شاسعة من الأرض، وأمرهم أن يُحدثوا أصواتًا مرتفعة بما لديهم من أبواق وطبول حربية، وإثارة الغُبار بالخيل تدور بسرعة فى دوائر ضيقة، كل هذا ليدخل فى نفوس قادة الروم ويوهمهم أن جيشًا جديدًا ومددًا كبيرًا قد جاء لجيش المسلمين.

هذه هى الخطة التى وضعها القائد المحنّك الفذّ، فأنقذ بها جيش الإسلام من فَنَاءٍ مُحقّق.

فقد وجد الرومان أنفسهم- أثناء تقابل الصفوف فى اليوم السابع- أمام قادة وجنود وهيئات ورايات غير التى كانوا يواجهونها فى الصفوف الأولى أثناء القتال فى الأيام الستة الماضية.

ووجد الرومان غبارًا يسد الأفق من ناحية الجزيرة خلف ظهر الجيش الإسلامى، ودوّت أصوات التهليل والتكبير، منبعثة من بين ثنايا ذلك الغبار الذى حجب الأفق، ثم انشقّ هذا الغبار عن كتائب من الفرسان، تتبع إحداهما الأخرى فى تنسيق وإحكام راكضة نحو المسلمين فى مؤتة، قد رجفت الأرض رجفًا لوَقع حوافر خيلها المنطلقة، وأصوات فرسانها تصمّ آذان الرومان بالتهليل والتكبير، واهتز معسكر المسلمين المواجه للرومان بالتهليل والتكبير، ودبّ الفزع فى نفوس الروم وسادهم الهرج والمرج، ولسان حالهم يقول: إذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالرومان هذه الأفاعيل طيلة الأيام الستة، فما عساهم فاعلين بعد مجىء هذا المدد؟!

وأدرك خالد بحسّ القائد المحنّك ما أصاب الرومان وحلفاءهم من خوف ورعب نتيجة خدعته الحربية البارعة المحكمة، فاغتنمها فرصة فأمر فى الحال بالهجوم على خطوط الرومان، وبأسلوب عام صاعق كاسح فتمّ له ما أراد.

وتضعضعت خطوط الروم الأمامية، وركبهم المسلمون، وأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة، كانت بكل معانى الكلمة «مذبحة» وصفها الواقدى فى كتابه «المغازى» بقوله: «فرُعبوا فانكشفوا منهزمين، فقُتلوا مقتلة لم يُقتلها قوم قط»[1].

---

(١) مغازى الواقدى (٢/ ٧٦٤).

وقال ابن سعد فى «طبقاته»: ثم أخذ خالد اللواء، ثم حمل على القوم، فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها[1] قط، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا»[2].

كان القتال ضاريًا، خاصة المسلمون بحنق وغيظ، وكان الرومان فى تراجعهم أمام هجوم خالد يقاتلون بشراسة، وليس أدلّ على عنف المعركة من قول خالد نفسه: «لقد انقطعت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية»[3].

ولما كان هدف القائد خالد من كل الأعمال والخدع الحربية التى لجأ إليها هو أن يؤمّن لجيش الإسلام انسحابًا منظمًا من مؤتة اغتنم فرصة ارتباك الرومان واضطرابهم واعتقادهم أن المسلمين قد تلقوا نجدة من المدينة، فأصدر أوامره إلى قادة الفرق والكتائب فى جيش الإسلام بالإرتداد بالجيش نحو الجنوب على تعبئة وانتظام كما هو متفق عليه بينه وبين هيئة أركان حربه عند وضع الخطة لهذا الإنسحاب فى الليل.

فأخذ الجيش الإسلامى يغادر ميدان المعركة فى مؤتة منسحبًا بكل هدوء وضبط وانتظام ويقظة.

وأشرف خالد نفسه على عملية الإنسحاب، فكان يجول بفرسه بين الكتائب والفرق المنسحبة ليظل النظام سائدًا أثناء الانسحاب ولتظل روح الجند والقادة ومعنوياتهم عالية، فلا يدركهم الخوف فيسودهم الاضطراب والفوضى.

وتمت عملية الانسحاب من مؤتة كما قدّر وأراد القائد البطل خالد.

تمت على أدق نظام ودونما أية خسارة- وذُهل الروم أمام هذه المفاجأة والخدعة الحربية البارعة- وما استطاعوا أن يتعقبوا المسلمين أثناء انسحابهم مسافة ستمائة ميل، وخافوا أن يكون الإنسحاب مكيدة حربية جديدة يدبرها القائد خالد لإيقاع الجيش الرومانى- إذا ما تتبع المنسحبين المسلمين- فى كمائن قد أعدها مقدمًا، فأحجمت القيادة الرومانية لذلك من تعقب المسلمين.

ووصل الجيش سالمًا إلى ضواحى المدينة «الجرف».

---

(١) الراوى هنا أبو عامر الصحابى.

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ١٣٠)، و «مؤتة» لمحمد أحمد بشاميل (ص٢٠٧) من كتاب «سلسلة معارك الإسلام الفاصلة».

(٣) رواه البخارى وأحمد فى فضائل الصحابة، وابن سعد، والطبرانى فى الكبير، والحاكم فى المستدرك.

وجعل أهل المدينة يصيحون بالجيش «يا فُرّار.. فررتم» ويحثون في وجوه الجند والقادة التراب، وأتت كلمة الوحي ناصعة تردّ الأمر إلى موضعه، فقد قال رسول الله ﷺ «ليسوا بفرّار، ولكنهم الكرّار في سبيل الله» وتكفي شهادة الرسول ﷺ شهادة.

ولقد برهن الرسول الأعظم ﷺ على أنه قمّة في المعرفة بأقدار الرجال حين منح القائد خالد بن الوليد لقب «سيف الله» في الوقت الذي تلقى فيه جمهور المدينة خالداً وجيشه بالحجارة يقذفونهم بالحجارة ويحثون التراب في وجوههم ساعة عودتهم من المعركة.

وما فعله خالد في انسحابه يمثل أعلى درجات النصر، هذه حقيقة تؤكد صحتها كل الأعراف والمقاييس العسكرية في كل زمان ومكان.

وعلم المسلمون بَعْدُ قدر تضحية خالد وبذله، وأن انسحابًا كهذا كان من الاستحالة بمكان، ولكن لا مستحيل على القلب الشجاع.. ومن أشجع من أبي سليمان قلبًا، وأروع عبقرية وأنفذ بصيرة؟!

إيه يا بطل كل نصر، ويا فجر كل ليل. إيه يا خالد.

إنّ روح أبي سليمان وريحانه ليُوجدان دائمًا وأبداً حيث تصهل الخيل، وتلتمع الأسنّة، وتخفق رايات التوحيد فوق الجيوش المسلمة.

لقد كان يعلو بروح جيشه على أهوال الزحف بقوله لجنده: «عند الصباح يحمد القوم السرى» حتى ذهبت عنه مثلاً، وها هو قد أتم مسراه فلصباحه الحمد، ولذاكره المجد والعطر، والخلد وظلال العرش[1].

موقفه - رضي الله عنه - في فتح مكة

وها هو مشهد النور الزاحف على مكة.. مشهد المستضعفين الذين لا تزال جسومهم تحمل آثار العذاب والهول، يعودون إلى البلد الذي أخرجوا منه بَغيًا وعَدْوًا - يعودون إليه على صهوات جيادهم الصاهلة، وتحت رايات الإسلام الخفاقة.. وقد تحوّل همسهم الذي كانوا يتناجون به في دار الأرقم بالأمس - إلى تكبيرات صادعة رائعة ترجُّ مكة رجًا، وتهليلات باهرة ظافرة، يبدو الكون معها، وكأنه كله في عيد..!![2]

وقبل دخول مكة قال النبي ﷺ للزبير وخالد: «لا تقاتلا إلا من قاتلكما». وكان

(١) ترطيب الأفواه/ د. سيد حسين (٢/ ٢٣٢: ٢٣٦) بتصرف.

(٢) رجال حول الرسول (ص٣٦٤).

خالد على ميمنة قوات المسلمين وكان عليه أن يدخل مكة من أسفلها من «اللّيط»، إلا أن بعض رجالات قريش جمعوا ناسًا بالخندمة أسفل مكة؛ ليقاتلوا المسلمين ويصدوهم عن فتح مكة، وكما قال خالد: «بدءونا بالقتال، ورمونا بالنّبل ووضعوا فينا السلاح، وقد كففتُ ما استطعتُ، ودعوتُهم إلى الإسلام فأبوا، حتى إذا لم أجد بُدًا من أن أقاتلهم، فظفّرنا الله بهم، فهربوا من كل وجه»[1].

وقُتل من المشركين ثمانية وعشرون رجلاً ثم انهزموا.

وعاد المسلمون إلى مكة على صهوات جيادهم الصاهلة، وتحت رايات الإسلام الخفاقة، وتكبيراتهم الصادعة الرائعة، ترجّ مكة رجًا، وتهليلاتهم الباهرة الظافرة، يبدو الكون معها، وكأنه كله في عيد.

خالد يقتل العزى ويهدمها

ولما فتح النبي ﷺ مكة في عام «الفتح» أرسل خالدًا إلى اللات والعُزّى فأتى خالد عليها فقال:

يا عُزُّ كُفرانَكِ لا سُبحانَكِ ... إني رأيتُ اللهَ قد أهانَكِ[2]

وعن قتادة أن النبي ﷺ بعث خالدًا إلى العُزّى، وكانت بهوازن، وسدنتها بنو سليم، فقال: انطلق، فإنه تخرج عليك امرأة، شديدةُ السواد، طويلة الشعر، عظيمة الثديين قصيرة، فقالوا يحرضونها:

يا عُزُّ شُدّي شدةً لا سواكِها ... على خالد ألقي الخمار وشمّري

فإنّكِ إنْ لا تقتلي المرءَ خالدًا ... تبوئي بذنبٍ عاجلٍ وتَنَصّري

فشدّ عليها خالد، فقتلها، وقال: ذهبت العُزّى فلا عُزّى بعد اليوم[3].

وفي يوم حنين

عن عبد الرحمن بن أزهر قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يوم حُنين يتخلّلُ الناس، يسألُ عن رحل خالد، فدُلّ عليه، فنظر إلى جرحه، وحسبت أنه نفث فيه[1].

(١) السيرة الحلبية (٢/ ٢٠٩). (٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦٩).

(٣) شرح المواهب اللدنية (٢/ ٣٤٨)- ابن هشام (٢/ ٤٣٦- ٤٣٧).

(٤) قال الأرنؤوط: أخرجه أحمد (٤/٨٨، ٣٥١) وإسناده صحيح.

موقفه الخالد فى حروب الردة

لله دَرُّه خالد.. إن فترة إسلامه التى قضاها إلى جانب الرسول ﷺ لا تتجاوز أربع سنوات، بينما قاتل شمالاً على حدود أرض الشام، وجنوبًا فى اليمن، وشهد أحد عشر مشهداً، قاتل فى ثلاثة مشاهد منها تحت لواء الرسول القائد ﷺ، وقاتل فى ثلاثة مشاهد منها قائداً مستقلاً، ولم يُقاتل فى خمسة مشاهد منها، بل أنجز واجبه سلمًا، فمن أين له الوقت الكافى لتحقيق كل هذه الأعمال!!

لقد كان خالد موضع ثقة الرسول ﷺ، وكانت له قابليات نادرة فى القيادة العسكرية خاصة لا يجود بها الزمان إلا نادراً، فلا عجب أن يقول الرسول ﷺ عنه: «نعم عبد الله وأخو العشرة، وسيف من سيوف الله سلّه الله على الكفار والمنافقين»[1].

ولما خرج أبو بكر- رضي الله عنه - إلى أهل الرِّدة كان خالد بن الوليد يحمل لواءه، فلما تلاحق الناس به استعمل خالداً ورجع إلى أهل المدينة، وكان خالد يقول: ما أدرى من أى يومى أفرُّ؟ من يوم أراد الله- عز وجل- أن يهدى لى فيه شهادة أو من يوم أراد الله- عز وجل- أن يهدى لى فيه كرامة؟[2].

ولقد كانت حرب الردة- التى استمرت ملتهبة حوالى سنةً كاملة- أعنف ما شهد العرب المسلمون فى تاريخهم العسكرى، وأبرزتْ هذه الحروب وكشفتْ معادن الرجال. وخالد بن الوليد لم يقم أى محارب مقامه فى منازلة أهل الردة والقضاء على فتنتهم، وكانت مسرح أعماله الرئيسية منطقة «بزاخة» ببلاد بنى أسد، ومنطقة البطاح فى ديار بنى تميم، ومنطقة اليمامة موطن بنى حنيفة وكانوا أكثر وأشرس قوة قارعها خالد فى حياته[3].

اغتاظ وأصدر أمره إلى الكتائب فى جيشه بأن يعودوا جميعًا إلى الحفير لمصادمة جيش خالد، وأمر «هرمز» قواته بأن تُجهد نفسها فى التحرك، ليسبق خالداً إلى «الحفير» وهذا هو الذى هدف إليه خالد- رضي الله عنه - أن يُرهق عدوه نفسيًا وجسديًا قبل نشوب المعركة، وعن عمد تباطأ خالد بجيشه فى السير نحو «الحفير» ليسبق إليها القائد «هرمز» وفعلاً وصل «هرمز» «الحفير» على عجل ليسبق إليها خالداً، ثم أمر جنده بحفر الخنادق فى «الحفير» استعداداً لمواجهة خالد، ولما تلقى خالد من استخباراته أن هرمز قد أرهق جنده

(١) الاستيعاب (٢/ ٤٢٩) وقادة فتح العراق والجزيرة (ص٩٤، ٩٥).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣٧٥). (٣) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٣/ ٥٤٩).

يحفر الخنادق والتعبئة للقتال، عطف بجيشه راجعًا إلى «كاظمة»، وكان المغاوير من مقاتلي الفرس- بعد حفر الخنادق في «الحفير»- قد ربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل؛ توطينًا لأنفسهم على الموت، أو إحراز النصر، ولما أبلغت «هرمز» استخباراتهم أن خالدًا وجيشه قد عطف نحو «الكاظمة» راجعًا، استشاط غضبًا وتوترت أعصابه، فأصدر أمره إلى جيشه بالعودة نحو «كاظمة» وهناك وجد خالدًا في انتظاره، قد عبأ جيشه للقتال، وكانت قوات الفرس أضعاف أضعاف المسلمين، وحال هرمز وقواته بين المسلمين وبين نهر الفرات، ومنعوهم الماء، فقال خالد كلمته الخالدة: «ألا انزلوا وحطوا رحالكم، فلعمري ليصيرنّ الماء لأصبْر الفريقين وأكرم الجُندين»[1].

ودعا «هرمز» خالدًا للبراز- المبارزة- وسرعان ما أجابه خالد، ولكن هرمز الخبيث- الذي ضرب به المثل فيه فقيل: «أخبث من هرمز» قد عهد إلى فرسانه عهدًا للغدر بخالد، فلما نزل خالد نزل هرمز، ومشى إليه خالد، فالتقيا، فاختلفا ضربتين، واحتضنه خالد، وحملت حاميةُ هرمز وغدرتْ، فاستلحموا[2] خالدًا، فما شغله ذلك عن الهرمزان، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز، فأبادها جميعًا، أما خالد فقد تمكنَ في حال من ذبحْ (هرمز) ذبح النَّعَاج، وركن الفرس إلى الفرار بعد قتل قائدهم، فركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون إلى الليل، ولم ينج من الفرس إلا من استطاع ركوب السُّفن، وجمع خالد الرثاث[3] وفيها السلاسل، فكانت وقر بعير؛ ألف رطل، فسُمِّيَتْ «ذات السلاسل» ونَفَّل أبو بكر- ﷺ - خالدًا قُلنسوة هرمز، وكانت قيمتها مائة ألف[4].

إن لهذا قصاصًا ولو بعد حين

نعم، الإسلام رفع من شأن العرب، وقد كانوا قبله حُفاة عُراة رُعاةً، لا شأن لهم في الأرض، ولاذكْر لهم في السماء، أذلّهم الفرس، حتى إنَّ سابور الثاني والملقب بذي الأكتاف كان يقوم بتعذيب الأسرى من العرب، فيقتلهم عن طريق نزع أكتافهم، فنزع أكتاف خمسين ألف عربي من تميم وبكر بن وائل، حتى قالت له عجوز عربية: «إن لهذا قصاصًا ولو بعد حين». الفرس الذين كانوا أشجع وأشدّ بأسًا من العرب، بجيشهم الكبير الذي يقوده ألمع وأمهرُ قادة الفرس، يُذلّهم خالد ويقتلهم ويأسرهم.. حتى صار ذِكره يُقضُّ مضاجع الفرس.. ويبدو هذا في معركة (الأبُلة).

---

(1) تاريخ الطبري (٣/ ٣٤٩).
(2) أي: تبعوه.
(3) المتاع.
(4) صلاح الأمة (٣/ ٥٥٢، ٥٥٣).

(الفرس) يفرون من اسم (خالد) فى معركة (الأبلة)

سار خالد بجيشه إلى الأبلة، وفيها جيوش كثيفة للفرس، وسبق «سويد ابن قطبة الذهلى»- وكان من جيش خالد- فى جماعة من قومه خالداً فى اتجاه الأبلة، وعسكر حولها، ولما وصل خالد بقواته مكان «البصرة» اليوم، وجد سويداً يتعقب أهل «الأبلة» فى انتظار من يهاجموه، فيقاتلهم خارج مدينتهم، ولكن سويداً أخبر خالداً بأن أهل الأبلة يهابون مقامه، وأنهم سيظلُّون معتصمين بقلاعهم ما دام خالد موجوداً فى المعسكر، فقال سويد لخالد:

إن أهل الأبلة قد جمعوا لى ولا أحسبهم امتنعوا منى إلا لمكانك؛ أى خوفًا منك.

وهناك رسم خالد بالاتفاق مع «سويد» خُطة يخدعون بها الفرس، حتى يأمنوا فيخرجوا لمقاتلة «سويد»، وذلك بحيث يعتقدون أن خالداً الذى بث فى قلوبهم الرعب بعد قتله «هرمز»، قد ترك معسكر «سويد»، وأنه لم يبق قائل للمسلمين فى المعسكر سوى «سويد» فقط؛ فقال خالد لسويد:

فالرأى أخرُجُ من المعسكر نهاراً، ثم أعود إليه ليلاً، فأدخل بأصحابى، فإن صبّحوك حاربهم.. ونفَّذ خالد خطته لتضليل حامية الأبلة الفارسية، واستدراجهم لمهاجمة سويد، فتوجّه خالد بمعظم قواته فى وضح النهار فى اتجاه (الحيرة)، فاطمأن الفرس إلى ترك خالد للمكان، وعاد- ﵁ - بقواته إلى المعسكر ليلاً، فلما خرجت جيوش الفرس من «الأبلة» قاصدين مهاجمة «سويد»، وما كادوا يصلون مدخل معسكر سويد، حتى رأوا كثرة العساكر وهم على أهبة الاستعداد، فأسقط فى أيديهم لما علموا بوجود خالد فى المعسكر، ولم يشرع الفرس سيفًا ولا رمحًا فى وجه خالد، وما كان همّهم إلا الفرار للعودة إلى الأبلة المحصنة، فولوا الأدبار مسرعين نحو أبواب المدينة، ولكن خالداً حال بينهم وبين ذلك، وانفرط عقد جيش الأبلة، وتمزق شملهم، وكثرُ القتل فيهم، وقذف كثير منهم نفسه فى نهر دجلة والفرات فغرقوا وبعث خالد «معقل ابن مقرن المزنى» إلى الأبلة التى كانت خالية من المحاربين، فسيطر عليها بدون قتال، وجمع ما فيها من غنائم وأسلحة[١].

---

(١) نقلاً من صلاح الأمة (٣/ ٥٥٣: ٥٥٥).

معركة المذار.. وقتل قواد الفرس الثلاثة

وبعد أن سيطر (خالد) على نقطة حربية مهمة يُقال لها: الحزيبة- وكانت من مسالح العجم-

جهّز شيرويه الفرس جيشًا جرارًا، وأعطى قيادة الجيش لأكبر قائد من قواده وهو «قارن بن قرياس» يسانده قائدان كبيران وهما: «الأنوشجان» و «قباذ»، وكان هذا الجيش يضم أيضًا: فلول الأبُلّة والكاظمة وأهل الأهواز وفارس والسواد والجبل، وتعاهدوا بعدم الفرار.

وبلغت قوات فارس ما يقارب الثمانين ألفًا، بينما خالد فى جيش لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا.. وبدأت المعركة اللاهبة بدعوة قارن إلى البراز، فاستبق إليه اثنان من المسلمين: خالد بن الوليد، وأبيض الركبان (معقل بن الأعشى النباشى) فسبق (معقل) على فرسه خالدًا، وبارز (قارنًا) فقتله فى الحال، وهجم (عاصم بن عمرو) على الأنوشجان فقتله فى الحال، وبادر البطل الميمون عدى بن حاتم إلى القائد (قباذ) فقتله، وقاتل الفرس على حنق وحفيظة واضطرب شمل الفرس بعد مقتل قارن، وكان شرف قارن قد انتهى؛ أى أنه وصل إلى أعلى رتبة عسكرية فى فارس. وقُتل من الفرس فى الميدان ثلاثون ألفًا، سوى من غرق فى دجلة بحديده «ولولا المياه لأتى المسلمون على آخرهم، ولم يفلت منهم إلا عراة أو شبه عراة»[1].

مواكب النصرة تحمل رياح البُشرى

وظل خالد ينتقل بالمسلمين من نصر إلى نصر- بإذن الله وتوفيقه- وراح يقذف بجنوده على الباطل فيدمغه وطُويت له الأرض طيًا.

فها هو ينتصر فى معركة «الولجة» بخطة رائعة.

معركة أليس أو «نهر الدم»

نذر خالد لله أن يُجرى نهرًا من دمائهم!!!

حَقَدَ نصارى العرب وهم من (تغلب وبكر بن وائل) على المسلمين بعدما أصابهم فى الولجة، فاستغاثوا بكسرى (شيرويه) ليمدهم بجيش فارسى؛ ليشتركوا سويًا فى القضاء على خالد وجيشه، وكان على العرب فى «أُلّيْس» عبد الأسود العجلى، ووصل «جابان» على رأس جيش كثيف من الفرس، وتولى جابان القيادة العامة، وكان عبد الأسود قائد خليط

(١) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٥٢).

نصارى العرب، وهم من بكر بن وائل وبني عجل، وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة، وانضم إليهم زهيرٌ ومالكٌ ابنا قيس من قبيلة جذرة العربية النصرانية.

وصل خالد بجيشه، والمجوس قد مدُّوا البُسُط يستعدون للغداء، وقد وضع الطعام الفاخر على البُسط، وأصابهم الغرور وهم فيما يقارب المائة والخمسين ألف محارب، وخالد في جيش لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا، فلم يحفلوا بخالد وأقبلوا على طعامهم، فقال لهم قائدهم جابان: «اتركوا الطعام، واستعدوا للصدام». فلمَّا عصوه قال: «إن القوم سيعجلونكم قبل أن تطعموا الطعام، وإنكم إنما هيأتموه لهم ليأكلوه بدلاً منكم». فعصوه، وبسطوا البُسُط، ووضعوا الأطعمة، ودعا بعضهم إلى بعض، وتوافوا إلى البُسُط، وزحف خالد والمسلمون، فأجبروا الفرس على القيام عنه، وأجهضوهم عنه قبل أن يطعموه. ودعا خالد للبراز ونادى «أين أبجر بن عبد الأسود، أين مالك بن قيس؟». فجبنوا جميعًا عن مبارزته إلا مالك بن قيس، فإنه خرج إلى خالد، فقال له خالد مُوبِّخًا ومُحتقرًا: «يا ابن الخبيثة، ما جرَّأك؟! لست لي على من بينهم، وليس فيك وفاء». أي أنك لست لي بكُفْءٍ. ثم ضربه ضربةً قتلته في الحال. ومع ذلك فقد اقتتلوا اقتتالاً شديداً كان أشدَّ من أيِّ قتال سبق؛ لأن نصارى العرب كانوا شديدي الغيظ لخالد؛ لقتله ابني زعيمهم في الولجة، وصبر الفرس صبراً شديداً، ولقي المسلمون مقاومةً عنيفةً، حتى شقَّ عليهم الأمر.

قال خالد: «ما لقيتُ قومًا كقومٍ لقيتُهم من أهل فارس، وما لقيتُ من أهل فارس قومًا كأهل ألّيْس». ونذر خالد لله أن يُجرِي نهراً من دمائهم إنْ مَنحَهُ اللهُ النصر عليهم، فقال: «اللهم إنَّ لك عليَّ إن منحتَنا أكتافهم، ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليهم أجري نهرهم بدمائهم».

وانتاب الفرس والنصارى الزعرُ والخوفُ عندما رأوا ثبات المسلمين وشدَّة ضرباتهم، وولّوا إلى الفرار، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون، ونادى منادي خالد حتى يفي بنذره: الأسر، الأسر، لا تقتلوا إلا مَنْ امتنع، فأقبلت خيولُ المسلمين بهم أفواجًا مستأسرين يُساقون سوْق الأنعام، فجمعهم خالدٌ وقد حَبَسَ الماء عن النهر، فوكَّل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر يومًا وليلةً، على رجاء أن يسيل النهر بدمائهم، وهنا قال القعقاع وغيره لخالد: لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجرِ دماؤهم، ولكنْ أرسلْ على الدماء الماء، فيجري النهر دما لتبرَّ بيمينك، فعمل خالد بمشورة القعقاع، وأعيد الماء إلى النهر، فجرى أحمر قانيًا، فسُمِّي لذلك: نهر الدم، وعُرف بذلك إلى قرون طويلة. قالوا: وكانت

على النهر طواحين تُدار بالماء، فطحنت بالماء وهو أحمر اللون قوت العسكر ثمانية عشر ألفًا- أو يزيدو- ثلاثة أيام، وأكل المسلمون طعام الفرس الذى وضعوه على البُسُط، بعد أن قتلوا من الفرس ونصارى العرب سبعين ألفًا، أكثرهم من أهل «أمغيشيا» وزُفَّ خبر النصر إلى الصدِّيق، فتوِّج خالداً بشهادة من أرقى الشهادات، وحَسْبُك بها من شهادة، فهو لا يرى لخالد نظيراً فى عبقريته وشجاعته، ولا نظير له فى عسكريته.

أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد

قال الصدِّيق فى خالد- وهو يخطب فى الناس بعد نصر ألَيْس-: «يا معشر قريش، عدا أسَدُكم على الأسد، فغَلَبَهُ على خراذيله[1]، أعجزتِ النساء أن ينشئن مثل خالد!!».

الله ينصر خالداً بالرعب (يوم أمغيشيا)

كانت أمغيشيا أعظم وأهم من ألَيْس، وكانت على بُعد أربعين كيلو متراً من ألَيْس، فتملكهم الرعب، وفرّ أهلها من مدينتهم خوفًا من خالد، وتركوا وراءهم كل شىء.

وجاءت بعدها معركة «المقر» واستسلام الحيرة، فلقد استطاع خالد-بإذن الله- أن يفتتح تلك المدينة بعد أن استسلموا وفاوضوا خالداً وأقروا بدفع الجزية مائة وتسعين ألف درهم تُقبل كل سنة، وأصبحت عاصمة المناذرة وعاصمة الأقاليم وعاصمة كسرى الثانية تحت سيطرة المسلمين وحمايتهم.

سيف الله (خالد) يشرب السمّ فلا يضره

عن قيس أنه قال: أتى خالدٌ بِسُمٍّ فقال: ما هذا؟ قال: سُمّ: فَشَرِبَهُ[2].

وفى أمهات كتب التاريخ: أن ابنَ بقيلة حكيم نصارى العرب، ومعمَّرهم وأرجح قومه عقلاً، لما دخل على خالد، اصطحب معه إلى مقر قيادة خالد خادمًا يحمل كيسًا صغيراً فى وسطه، فتناوله خالد وقال: ما فى هذا الكيس؟ ونشر ما فيه فى راحته، ثم قال: ما هذا يا عمرو؟ فقال عمرو: هذا والله سُمُّ ساعة. فقال خالد: ولِمَ تحتقبُ السُّمَ؟- وكان رأس أهل الحيرة وكبيرَ الذين فاوضوا خالداً من أهل الحيرة- قال عمرو: خشيتُ أن تكون على غير ما رأيت من العَدْل، وقد أتيتُ على أجلى، والموت أحبُّ إلىَّ من مكروه أدخله على أهل قريتى. فأخذ خالد السُّمَّ المذكور، وتلا هذا الدعاء: «إنها لن تموت نفس حتى تأتى على

(١) أطايب اللحم المقطع الوافر، وخردل وخرذل بمعنى واحد.

(٢) رواه أحمد فى فضائل الصحابة، والطبرانى فى الكبير (٣٨٠٩) وقال العدوى: إسناده صحيح.

أجلها، بسم الله خير الأسماء، رب الأرض والسماء، الذى لا يضرّ مع اسمه داء، الرحمن الرحيم». ثم وضع السم فى فمه، وبادروه ليمنعوه، ولكنه قد سبقهم فابتلعه، وانتظروا ساعة ليصرع السم خالداً، فمضت ولم يضر السم خالداً.

كيف ولا هو من أكابر أولياء الله المتقين، وسيد المجاهدين فى الشام والعراق، فقال عندها ابنُ بقيلة: «والله يا معشر العرب لتملكُنّ ما أردتم».

قال الإمام الذهبى- رحمه الله- قلت: هذه والله الكرامة وهذه الشجاعة[1].

ومازال (خالد) يسير فى ظل تلك الكوكبة الرائعة من الفتوحات والانتصارات إلى أن جاء الأمر من (الصدِّيق) بأن ينتقل إلى جبهة أخرى لقتال الروم فى أرض الشام، وهنا قام خالد بانتقاء مجموعة من قواته وترك على العراق «المثّنى بن حارثة» واستطاع- بفضل الله تعالى- أن يقطع البرية السماوية من العراق إلى الشام فى خمس ليالٍ فقط!!!

والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد

كلماتٌ عَطِرَةٌ قالها (الصدِّيق) عن خالدٍ، حين اشتدَّ الكرب على المسلمين بالشام، وذلك لكثرة الروم، وحُلفائهم الهائلة، التى بلغت ربع مليون مقاتل، بينما جيوش الإسلام كلها لا تزيد على اثنين وثلاثين ألفًا، وأرسل أبو عبيدة إلى أبى بكر الصديق: «وبعد، فإن الروم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب، قد جمعوا على حرب المسلمين. ونحن نرجو النصر، وإنجاز موعود الرب تبارك وتعالى وعادته الحسنة، وأحببتُ إعلامك لترينا رأيك».

فقال الصدِّيق: «خالدٌ لها، والله لأنسينّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد»[2].

فتوحات الشام

وعبّأ (خالد) جيشه وقسمه إلى فيالق ووضع للهجوم والدفاع خطة جديدة تتناسب مع طريقة الروم.

وها هو يفتح المدن ويدكّ الحصون- بإذن الله- وبينما هو فى تلك الفرحة العامرة من تلك الانتصارات التى أكرم الله بها المسلمين. وإذا برسالة عاجلة تأتى وفيها خبر موت خليفة رسول الله ﷺ (أبى بكر).

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣٧٦).

(٢) الطبرى (٢/ ٦٠١) نقلاً عن علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٥٧٤).

وفاة الصديق (رضي الله عنه) وتولية عمر (رضي الله عنه) وعزل عمر لخالد (رضي الله عنه) من قيادة الجيش

توفى الصدِّيق- رضي الله عنه - وتولى عمر الخلافة، فعزل خالداً أثناء حصار المسلمين لدمشق، وهو الحصار الذى لم يتم فتح دمشق فيه. وعند الطبرى (٢/٥٩٥)، وابن الأثير (٢/ ٨٥): أن عزل خالد كان أثناء معركة اليرموك.

خالد (رضي الله عنه) يشرب من دم الروم فى (اليرموك)

لقد أقبل الروم فى تلك المعركة وكان عددهم مائتى ألف (٢٠٠٠٠٠) يقودهم أعظم قادة الروم (باهان- أو- ماهان) وكان عدد المسلمين ستة وثلاثين ألفًا (٣٦٠٠٠) منهم ألف رجل من الصحابة فيهم مائة بدرى.

البطل يؤمر نفسه

ولما اجتمع أبو عبيدة مع قادة جيشه بالجابية، قال خالد: «أرى والله إن كنا إنما نقاتل بالكثرة والقوة، هم أكثر منّا وأقوى، وما لنا بهم إذن طاقة. وإن كنّا نُقاتلهم بالله ولله، فما أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعًا، أنهم تُغنى عنهم شيئًا». ثم غضب وقال لأبى عبُيدة: أتُطيعنى أنت فيما آمرك به؟ قال له أبو عبيدة: نعم. قال خالد: «فولّنى ما وراء بابك»، وخلّنى والقوم، فإنى لأرجو أن ينصرنى الله عليهم». قال: قد فعلت. وهكذا تولى خالد القيادة العامة على جيوش المسلمين فى يوم اليرموك.

وجمع باهان جنده وقال لهم: «أنتم عدد الحصى والثرى والذرّ، فلا يهولنّكم أمرُ هؤلاء القوم؛ فإن عددهم قليل، وهم أهل الشقاء والبؤس، وجلهم حاسر جائع، وأنتم من الملوك وأبناء الملوك، وأهل الحصون والقلاع والعدّة والقوة، والسلاح والكراع، فلا تبرحوا الميدان وفيكم عين تطرف حتى تُهلكوهم أو تَهلكوا أنتم».

وعلى اليرموك اجتمع خالد مع باهان قائد الروم بين الصفين فقال باهان [ماهان]: «إنّا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم إلا الجهد والجوع، فهلمّوا إلى أن أعطى كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوةً وطعامًا، وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها». فقال خالد: «إنه لم يُخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنا قومٌ نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك. فقال أصحاب ماهان: هذا والله ما كنا نتحدث به عن العرب[1].

(١) البداية والنهاية (٧/ ٩- ١٠).

ولما جاءت جموع الروم كالسَّيْل والليل، وهم يجرُّون الشوك والشجر ليصنعوا منها دفاعات، ومعهم صُلُبهم والقسيسون والرهبان والأساقفة والأباطرة. وعبأ خالد جيشه فى تعبئةٍ لم تُعبّهَا العرب من قبل، إذ نظم جيشه فى ستة وثلاثين كردوسًا[1] إلى الأربعين، وقال: «إن عدوكم قد كثُر وطغى، وليس من التعبية تعبية أكثر فى رأى العين من الكراديس».

ولوَى البطل زمام جواده عائدًا إلى صفوف جيشه. ورفع اللواء عاليًا مُؤذنًا بالقتال..

[الله أكبر]..

[هُبِّى رياح الجنة]..

كان جيشه يندفع كالقذيفة المصبوبة..

ودار قتال ليس لضراوته نظير.

وأقبل الرومُ فى فيالق كالجبال..

وبدا لهم من المسلمين ما لم يكونوا يحتسبون..

ورسم المسلمون صُوراً تبهر الألباب من فدائيتهم وثباتهم..

فهذا أحدثهم يقترب من أبى عبيدة بن الجراح- رضي الله عنه - والقتال دائر، ويقول:

[إنى قد عزمتُ على الشهادة، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ أبلغها له حين ألقاهُ؟؟

فيجيب أبو عبيدة: [نعم.. قل له: يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا]..

ويندفع الرجل كالسهم المقذوف.. يندفع وسط الهول مشتاقًا إلى مصرعه ومضجعه.. يضرب بسيفه، ويُضرب بآلاف السيوف حتى يرتفع شهيداً..!

وهنا «عكرمة بن أبى جهل».

أجل.. ابن أبى جهل..

ينادى فى المسلمين حين ثَقُلَتْ وطأة الروم عليهم قائلاً: [لطالما قاتلتُ رسول الله ﷺ قبل أن يهديني الله إلى الإسلام. أفأفِرُّ من أعداء الله اليوم]؟

(١) الكردوس: مفرد كراديس؛ وهو كتلة من الجنود يتألف من ألف مقاتل. وينقسم الكردوس إلى أجزاء عشرية. العريف يقود عشرة رجال، وأمير الأعشار يقود مائة رجل، ولكل كردوس قائد له راية.

ثم يصيح: [من يُبايعُ على الموت]..

فبايعه على الموت كوكبة من المسلمين- ثم ينطلقون معًا إلى قلب المعركة لا باحثين عن النصر فحسب.. بل عن الشهادة.. ويتقبل الله بَيْعَهم وبَيْعَتهم، فيستشهدون..!![1]

وبعث الروم رجلاً من خيارهم وعظمائهم اسمه (جرجة) فوالله ما إن سمع كلام المسلمين حتى أسلم، وكان له نجدة ونكاية فى المشركين.

خالد: هل أنزل الله على نبيكم سيفًا فأعطاكه؟!

كلمات عطرة تُحفر من نور في التاريخ قالها (جرجة) عند إسلامه لخالد: «يا خالد، اصدُقنى ولا تكذبنى؛ فإن الحرّ لا يكذب، ولا تُخادعنى؛ فإن الكريم لا يُخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء، فأعطاكه، فلا تسُلّه على قوم إلا هزمتهم؟». قال: «لا» قال: «فَبِمَ سُمّيتَ سيف الله المسلول؟». فقال له خالد فيما قال: «إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ، فدعانا فنفرنا عنه، ونأينا منه جميعًا، ثم إن بعضنا صدّقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا، فهدانا به فتابعناه، فقال: «أنت سيف من سيوف الله سلّه على المشركين» ودعا لى بالنصر، فسُمّيتُ سيف الله بذلك، فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين». قال: «صدقتنى»[2].

ثم أسلم جرجة. وخرج باهان في جيشه وعلى ميسرته الدرنجار، وزحف الروم إلى المسلمين مثل الليل والسيل يدفّون دفيفًا، قد رفعوا الصُّلبان. فقال رجل: ما أكثر الرومَ وأقلّ المسلمين[3]. فقال خالد: «ما أقلّ الروم وأكثر المسلمين! إنما تكثُر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان لا بعدد الرجال. أبالروم تخوفنى! والله لوددتُ أن الأشقر براء من توجيه[4] وأنهم- يعنى الروم- أضعفوا فى العدد».

وعندما اشتد هجوم الروم، نادى خالد: يا أهل الإسلام، لم يَبْقَ عند القوم من الجَلَد والقتال والقوة إلا ما قد رأيتم، فالشدة الشدة، فوالذى نفسى بيده ليعطينكم الله الظفر عليهم الساعة، إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم». كان خالد فى نصف فرسان المسلمين

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص٢٧٦: ٣٧٧).

(٢) الطبرى (٣/ ٣٩٨) وتهذيب ابن عساكر (١/ ٥٤٧).

(٣) الطبرى (٣/ ٣٩٧) وابن عساكر (١/ ٥٥٠).

(٤) الأشقر هو فرس خالد، والتَّوَجِّى أن يشتكى الفرس بطن حافره.

خلف جناحهم الأيمن، فى حين كان قيس ابن هبيرة المرادى فى نصفهم الآخر خلف جناح المسلمين الأيسر، وفى اللحظة الحاسمة التى تضعضعتْ فيها صفوفُ الروم، زحف خالد فى فرسانه إلى الروم حتى تصافحوا بالسيوف، واعترض خالد الروم وإلى جنبه أكثر من مائة ألف، فحمل عليهم، وما هو إلا فى نحو ألف فارس، فما بلغتهم الحملة حتى فضَّ الله جمعهم ذلك.

وانتهت قصة الروم من أرض الشام، أتوا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد، وقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً، ما قُوتل المسلمون مثله فى موطن قطُّ، ورزق الله المسلمين الصبر، وأنزل عليهم النصر، فقتلهم الله فى كل قرية وشِعْبٍ وواد وجبل وسهل.

وعن عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، أن خالد بن الوليد فقد قلنسوةً له يوم اليرموك، فقال: اطلبوها. فلم يجدوها. ثم وُجدت فإذا هى قلنسوة خلقة- قديمة- فقال خالد: اعتمر رسول الله ﷺ، فحلق رأسه، فابتدر الناس شعره، فسبقتهم إلى ناصيته، فجعلتُها فى هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالاً وهى معى إلا رزِقْت النصر[1].

إخلاص يندر وجوده فى هذا الزمان

وفى غمرة هذا النصر العظيم يأتى قرار أمير المؤمنين عمر بعزل خالد من قيادة الجيوش.

ولله دَرُّه حين عُزل وهو فى المعركة، وفى أوج انتصاره فما ترك العزلُ فى نفسه أثراً، لا فَرْقَ عنده أن يكون قائداً عامًا، أو قائداً مرؤوسًا، أو رجلاً من المسلمين. هذه والله العظمة الإنسانية فى أبهى مشاهدها، خالد يستل النصر من بين أنياب الروم، وهو ترياق وساوس التَّجبُّر والصَّلَف والبغى عند الروم، وسيف الله المسلول على قوى التَّعَفُّن والشرك يُفاجأ بالإقالة!! لقد كان مسلكًا بالغ الرُّوعة والعظمة والجلال[2].

وتالله إننى أتعجب من هذا القدر العظيم من الإخلاص الذى لا يخطر على قلب بشر.. فهو يجاهد لله- جلا وعلا- لا من أجل منصبٍ ولا جاه ولا رئاسة ولا زعامة.

فسواء عليه أن يكون أميراً، أو جنديًا..

---

(١) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/٣٤٩) ونسبه إلى الطبرانى وأبى يعلى وقال: ورجالهما رجال الصحيح.

(٢) صلاح الأمة فى علو الأمة/ د. سيد حسين (٣/٥٩٤: ٥٩٧) بتصرف.

إن الإمارة كالجندية، كلاهما سبب يؤدى به واجبه نحو الله الذى آمن به، ونحو الرسول الذى بايعه، ونحو الدين الذى اعتنقه وسار تحت رايته..

وجهده المبذول وهو أمير مُطاع.. كجهده المبذول وهو جندى مُطيع..!!

ولقد هيأ له هذا الانتصار العظيم على النفس، كما هيأه لغيره، طراز الخلفاء الذين كانوا على رأس الأمة المسلمة والدولة المسلمة يومذاك.. أبو بكر وعمر[1].

ولقد بيَّن الفاروق- رضي الله عنه - السبب الذى من أجله عزل (خالداً)- رضي الله عنه - فقال:

«إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فُتنوا به فخفت أن يُوكلوا إليه فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة»[2].

ليلة زفاف على طراز خالد

عن مولى لآل خالد بن الوليد، أن خالداً قال: ما من ليلة يُهدى إلىَّ فيها عروسٌ أنا لها مُحِبّ أحبّ إلىَّ من ليلة شديدة البرد، كثيرةِ الجليد فى سريةٍ أُصبِّحُ فيها العدو[3].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والتضحية والجهاد فى سبيل الله.. نام (سيف الله) على فراش الموت حزيناً على أنه بعد تلك المعارك التى خاضها لم يمت شهيداً.

وأقول لك يا (خالد) الاسم والذكر: إن كان رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى قال: «من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»[4].

فكيف بك يا (خالد) وقد فتح الله على يديك البلاد وقلوب العباد.. وكان المسلمون معك ينتقلون دومًا من نصرٍ إلى نصرٍ- بإذن الله-.

تالله إنى لأرجو الله أن يرزقك أجر شهداء المسلمين فى كل زمان.. فلقد كان لسيرتك الأثر العظيم فى نفس كل شهيدٍ بذل ماله ودمه ونفسه فى سبيل الله.

---

(١) رجال حول الرسول / خالد محمد خالد (ص٣٨٢).

(٢) تاريخ الطبرى (٢/ ٤٩٢).

(٣) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٥٠) ونسبه إلى أبى يعلى وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٤) أخرجه مسلم عن سهل بن حنيف- صحيح الجامع (٦٢٧٦).

لما حضرت خالداً الوفاة، قال: لقد طلبتُ القتل فى مظانّهُ فلم يُقدَّر لى إلا أن أموت على فراشى. وما من عملى شىءٌ أرجَى عندى بعد التوحيد من ليلة بتُّها وأنا متترس، والسماء تهلنى ننتظر الصبح حتى تُغيرَ على الكفار.

ثم قال: إذا متُّ، فانظروا إلى سلاحى وفرسى، فاجعلوا عدة فى سبيل الله. فلما تُوفى، خرج عمر على جنازته، فذكر قوله: ما على آل الوليد أن يسفحنِ على خالد من دمُوعهنِ ما لم يكن نقعًا أو لَقْلَقَةً[1].

وفى رواية: وما عليهن أن يبكين أبا سليمان.

وعن نافع قال: لما مات خالد لم يدع إلا فرسه وسلاحه وغُلامه، فقال عمر: رحم الله أبا سليمان، كان على ما ظنناه به[2].

وقال عمر لخالد فى حياته: يا خالد، والله إنك لكريم علىَّ، وإنك لحبيبٌ إلىَّ. وبعد موته قال عمر: قد ثلم فى الإسلام ثلمةٌ لا تُرتق.

وقال فيه أيضًا: كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة.

وعن أبى العجماء السلمى قال: قيل لعمر: لو عهدت يا أمير المؤمنين. قال: لو أدركتُ أبا عبيدة ثم وليته ثم قدمتُ على ربى، فقال لى: لمَ استخلفته؟ لقلتُ: سمعتُ عبدك وخليلك يقول: «كل أمة أمين، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة». ولو أدركت خالداً ثم وليته فقدمت على ربى، لقلتُ سمعت عبدك وخليلك يقول: «خالد بن الوليد سيف من سيوف الله، سلّه الله على المشركين»[3].

كلماتٌ عِذابٌ رِطابٌ فى الثناء على خالد من عمر وكفى.

«ولقد خُلق خالد ليكون قائداً، فعاش قائداً ومات قائداً، فغاب جسده، ولكن بقى حيًا فى النفوس، وآثاره بقيت خالدة فى التاريخ، وانتصاراته كانت ولا تزال وستبقى معجزة من معجزات تاريخ العرب والإسلام، بل تاريخ الحرب لكل الأمم فى كل مكان»[4].

أشجعُ أنت أشجعُ من ليث ... غضنفر يذود عن أشبال

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: ذكره الحافظ في الإصابة (٣/ ٧٤).

(٢) أخرجه ابن سعد (٧/ ١/ ١٢١).

(٣) رواه ابن عساكر عن عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٠٧).

(٤) قادة فتح العراق والجزيرة (ص٢٣١).

أجْــوادٌ فــأنت أجْــودُ من سَيْــل قــاصــر يســيل بين الجبــالِ

عن أبى الزناد أن خالد بن الوليد لما احتُضِر بكى، وقال: لقيتُ كذا وكذا زحفًا وما فى جسدى شبْرٌ إلا وفيه ضربةٌ بسيف، أو رميةٌ بسهم، وها أنا أموت حتف أنفى كما يموت العير، فَلا نامَت أعْيُنُ الجبناء.

إن رَوْح أبى سليمان وريحانه ليُوجَدان دائمًا أبدًا، حيث تصهل الخيل، وتشرع الأسِنَّة، وتخفق راياتُ التوحيد فوق الجيوش المسلمة.

لكأنى بفرسك جاءت، لها صهيلٌ يصدح. يقودُها عبيرُك وأريجك، هذه التى وقفت فى سبيل الله.. لكأنى بها تسفح من مآقيها دموعًا غزارًا وكبارًا.

«هل سيقدر فارسٌ أن يمتطى صهوتها بعد خالد؟! وهل ستُذلَّل ظهرها لأحد سواه؟! أيه يا بطل كلِّ نصْر.. ويا فَجْرَ كلِّ ليل.. لقد كنت تعلو بروح جيشك أهوال الزَّحف بقولك لجندك: «عند الصباح يحمد القوم السُرى» حتى ذهبت على مثلاً.. وها أنت ذا قد أتممت مسراك.. فلصباحك الحمد، ولذكراك المجد، والعطاء، والخلد، يا خالد»[1].

فرضى الله عن خالد وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص٣٣٢) بتصرف.

معاوية بن أبى سفيان
اللهم اجعله هاديًا مهديًا واهده واهد به

ومن هنا نبدأ

وها نحن نتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع واحد من هذا الجيل الفريد الذى لن يتكرر أبداً مهما طال بنا الزمان.. إنه خال المؤمنين، وكاتب وحى رسول الله ﷺ.. الذى شاء الله عز وجل أن ينقطع أجله ولا ينقطع أجره، فلقد خاض فيه كثير من الناس وهم لا يعرفون قدره ومنزلته فجعل الله ذلك كله فى ميزان حسناته فرضى الله عنه وأرضاه.

وبطل قصتنا هذا علمٌ من أعلام الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فله تاريخ حافل بالبطولات والأمجاد.. ولا شك أن سير هؤلاء الأبطال تصقل النفوس وتشرح الصدور لأننا نعيش فى زمان الغرب الحقيقية الثانية التى أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ، ولذلك فإننا إذا ذكرنا هؤلاء الصحب الكرام فإن القلوب تشتاق إلى أن ترجع إلى عهد الحبيب ﷺ لنعيش يومًا من أيامه مع أصحابه رضى الله عنهم.

فتعالوا بنا لنقترب أكثر من بطلنا الحبيب ولنعرف شيئًا من سيرته العطرة. إنه معاوية ابن أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصى بن كلاب أمير المؤمنين ملك الإسلام أبو عبد الرحمن القرشى الأموى المكى(١).

وأمه هى بنت عتبة بن ربيعة.

كان طويلاً أبيض جميلاً.

كانت أمه تشعر أنه سيكون سيداً.

عن أبان بن عثمان: كان معاوية وهو غلامٌ يمشى مع أمه هند، فعثر، فقالت: قُم لا رفعك الله، وأعرابى ينظر، فقال: لِمَ تقولين له؟ فوالله إنى لأظنُّه سيسود قومه، قالت: لا رفعه إن لم يَسدُ إلا قومه(٢).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٩، ١٢٠).

(٢) ابن عساكر (١٦/ ٣٣٩/أ) نقلاً عن السير (٣/١٢١).

متى أسلم؟

قال الإمام الذهبي: قيل: إنه أسلم قبل أبيه وقت عُمرة القضاء، وبقي يخاف من اللحاق بالنبي ﷺ من أبيه، ولكن ما ظهر إسلامه إلا يوم الفتح.

حدَّث عن النبي ﷺ، وكتب له مرات يسيرة، وحدَّث أيضًا عن أخته أم المؤمنين أم حبيب، وعن أبي بكر، وعمر[1].

وقال معاوية لما كان عام الحديبية، وصدُّوا رسول الله ﷺ عن البيت، وكتبوا بينهم القضية، وقع الإسلام في قلبي، فذكرت لأمي، فقالت: إيَّاك أن تخالف أباك، فأخفيت إسلامي، فوالله لقد رحل رسول الله ﷺ من الحديبية وإني مُصَدِّقٌ به، ودخل مكة عام عُمرة القضية وأنا مسلم. وعلم أبو سفيان بإسلامي، فقال لي يومًا: لكن أخوك خيرٌ منك وهو على ديني، فقلتُ: لم آلُ نفسي خيراً، وأظهرت إسلامي يوم الفتح، فرحَّبَ بي النبي ﷺ، وكتبت له[2].

في رحاب الحبيب ﷺ

وبعد ما أعلن معاوية رضي الله عنه إسلامه ظل ملازمًا للحبيب لينهل من النبع الصافي بعد ما عاش زمانًا طويلاً بعيداً عن هذا النور فأحب النبي ﷺ من أعماق قلبه بل وأحبه النبي ﷺ حتى قام مرة ودعا له تلك الدعوة المباركة فقال له ﷺ: «اللهم اجعله هاديًا مهديًا واهده واهد به»[3].

ويا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها. بل قال ﷺ: «اللهم علِّم معاوية الكتاب والحساب وقِه العذاب»[4].

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: «كان معاوية يكتب لرسول الله ﷺ»[5].

---

(١) السير (٣/ ١٢٠).

(٢) السير (٣/١٢٢)، وابن عساكر (١٦/٣٣٩).

(٣) رواه الترمذي وابن عساكر وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٦٩).

(٤) رواه أحمد (٤/١٢٧) وفي إسناده: الحارث بن زياد الشامي. قال الحافظ في التقريب: لين الحديث وباقي رجاله ثقات. وقال الذهبي: وللحديث شاهد قوي.

(٥) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات- السير (٣/١٢٣).

وصية الحبيب ﷺ له

وفي يوم من الأيام يأخذ معاوية الإدوة ليكتب للنبي ﷺ كعادته فلما تبع بها رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه وقال: «يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل» فقال معاوية: فما زلت أظن أني مبتلى بعمل لقول رسول الله ﷺ حتى ابتُليت[1].

وتمر الأيام الجميلة في صحبة الحبيب ﷺ... لكن دوام الحال من المُحال. فإذا بالحبيب يفارق الدنيا ويترك أصحابه فبكى أصحابه الدماء بدل الدموع على موته.. وحزن معاوية رضي الله عنه على فراق الحبيب ﷺ حزنًا كاد أن يمزق قلبه.

الولاية على الشام

وتمر الأيام إلى أن يتولى عمر رضي الله عنه الخلافة وإذا به يستعين بخير الناس على الولاية في كل بقعة من بقاع الدولة المسلمة. وكان ينتقي الولاة بكل دقة فكان من بين من اختارهم للولاية على الشام (معاوية) فولاه على الشام وأقرَّه عثمان رضي الله عنه.

قال الإمام الذهبي

قلت: حسبُكَ بمن يؤمِّره عمر، ثم عثمان على إقليم، وهو ثغر، فيضبطه، ويقومُ به أتمّ قيام، ويُرضي الناس بسخائه وحلمه، وإن كان بعضهم تألم مرةً منه، وكذلك فليكن الملك. وإن كان غيرُهُ من أصحاب رسول الله ﷺ خيراً منه بكثير وأفضل وأصلح، فهذا الرجلُ ساد، وساد العالم بكمال عقله، وفرطِ حلمه، وسعَةَ نفسه، وقوة دهائه، ورأيه. وله هنَّات وأمور، والله الموعد.

وكان مُحببًا إلى رعيتِه. عمل على نيابة الشام عشرين سنة، والخلافة عشرين سنة، ولم يهجه أحد في دولته، بل دانت له الأمم، وحكم على العرب والعجم، وكان ملكه على الحرمين، ومصر، والشام، والعراق، وخراسان، وفارس، والجزيرة، واليمن، والمغرب، وغير ذلك[2].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٠١) وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٣).

قدره ومنزلته فى قلوب الصحابة رضى الله عنهم

وتالله إنه لا يعرف قدر الرجال إلا الرجال.. وهل هناك فى الكون رجال أفضل من أصحاب الحبيب ﷺ الذين تربوا بين يديه؟!!

فعن أبى الدرداء رضي الله عنه أنه قال: ما رأيت أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم هذا.. يعنى معاوية(١).

وعن على بن أبى طالب قال: «لا تكرهوا إمراه معاوية فإنكم لو فقدتموه رأيتم الرءوس تندُّ عن كواهلها»(٢).

وعن كريب مولى ابن عباس: أنه رأى معاوية صلى العشاء، ثم أوتر بركعة واحدة لم يزد، فأخبر ابن عباس فقال: أصاب، أى بُنَىَّ ليس أحدٌ منا أعلم من معاوية، هى واحدة أو خمس أو سبع أو أكثر(٣).

إنفاقه

عن سعيد بن عبد العزيز، قال: قضى معاوية عن عائشة عشر ألف دينار.

قال عُروةُ: بعث معاوية مرةً إلى عائشة بمائة ألف، فوالله ما أمست حتَّى فرَّقتها(٤).

جهاده فى سبيل الله

قال أحمد بن حنبل: فُتحت قيسارية سنة تسع عشرة وأميرها معاوية(٥).

وقال زيد بن عبيد: غزا معاوية قبرص سنة خمس وعشرين(٦).

دفاع عن معاوية رضي الله عنه

ولما حدثت الفتنة بين على ومعاوية رضى الله عنهما وحدث بينهما ما حدث وكان كل واحد منهما لا يريد إلا وجه الله والدار الآخرة فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ.. والمجتهد

---

(١) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات- السير (٣/ ١٣٥).

(٢) تاريخ الإسلام (٢/٣٨).

(٣) قال الأرناؤوط: رجاله ثقات- السير (٣/١٥٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٤).

(٥) تاريخ دمشق لأبى زرعة (١/ ١٧٩).

(٦) تاريخ دمشق لأبى زرعة (١/ ١٨٤).

إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر. ونحن على يقين من أن أصحاب الرسول ﷺ كلهم عُدول لا يريدون الدنيا وزينتها الفانية ولا يطمعون فى شىء من حُطامها.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله

«.. ثم ما كان بينه، أى معاوية، وبين علىّ بعد مقتل عثمان، على سبيل الاجتهاد والرأى، فجرى بينهما قتال عظيم.. وكان الحق والصواب مع على، ومعاوية معذور عند جمهور العلماء سلفًا وخلفًا، وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بالإسلام للفريقين، كما ثبت فى الحديث الصحيح: «تمرق مارقة على خير فرقة المسلمين، فيقتلها أدنى الطائفتين إلى الحق» فكانت المارقة والخوارج، وقتلهم علىّ وأصحابه، ثم قُتِلَ على، فاستقل معاوية بالأمر سنة إحدى وأربعين، وكان يغزو الروم فى كل سنة مرتين، مرة فى الصيف ومرة فى الشتاء، ويأمر رجلاً من قومه فيحج بالناس، وحجّ هو سنة خمسين، وحج ابنه يزيد سنة إحدى وخمسين، وفيها أو فى التى بعدها أغزاه بلاد الروم.. فسار معه خلق كثير من كبراء الصحابة حتى حاصر القسطنطينية، وقد ثبت فى الصحيح: «أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم»[1].

قال الإمام الذهبى

فنحمد الله على العافية الذى أوجدنا فى زمان قد انمحص فيه الحقُّ. واتَّضحَ من الطرفين، وعرفنا مآخذ كل واحد من الطائفتين، وتبصرنا، فعذرنا، واستغفرنا، وأحببنا باقتصاد، وترحمنا على البُغاة بتأويل سائغ فى الجملة، أو بخطأ إن شاء الله مغفور، وقلنا كما علمنا الله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]، وترضَّينا أيضًا عمن اعتزل الفريقين، كسعد بن أبى وقاص، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة، وسعيد بن زيد، وخلق. وتبرأنا من الخوارج والمارقين الذين حاربوا عليًا، وكفَّروا الفريقين، فالخوارجُ كلابُ النار، قد مرقوا من الدين، ومع هذا فلا نقطع لهم بخلود النار، كما نقطع به لعبدة الأصنام والصلبان[2].

وقال أيضًا معلقًا على تلك الفتنة التى حدثت بين على ومعاوية رضى الله عنهما:

«.. فسبيلنا الكفُّ والاستغفار للصحابة ولا نحب ما شجر بينهم ونعوذ بالله منه ونتولى أمير المؤمنين عليًا»[3].

(١) البداية والنهاية (٥/ ٦٢٩، ٦٣٠). (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩).

وقال عن معاوية رضي الله عنه: «ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو ببريء من الهنات، والله يعفو عنه»[1].

وحان وقت الرحيل

وتمر الأيام وتأتى اللحظة التى ينام معاوية رضي الله عنه على فراش الموت.

قال محمد بن سيرين: جعل معاوية لما احتضر يضع خده على الأرض ثم يقلب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكى ويقول: اللهم إنك قلت فى كتابك:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

اللهم اجعلنى فيما شئت أن تغفر له[2].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما احتضر معاوية، قال: إنى كنت مع رسول الله ﷺ على الصفا، وإنى دعوتُ بمشقص، فأخذتُ من شعره وهو فى موضع كذا وكذا، فإذا أنا متُّ، فخذُوا الشعر، فاحشُوا به فمى ومنخرى[3].

وعن عبد الأعلى بن ميمون بن مهران عن أبيه أن معاوية أوصى فقال:

كنت أوصيَّ رسول الله ﷺ، فنزع قميصه وكسانيه، فرفعته، وخبأت قُلامة أظفاره، فإذا متُّ، فألبسونى القميص على جلدى، واجعلوا القُلامة مسحوقة فى عينى. فعسى الله أن يرحمنى ببركتها[4].

وقال أبو عمرو بن العلاء لما احتضر معاوية، قيل له: ألا توصى؟ فقال: اللهمَّ أقل العثرة، واعف من الزلَّة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك، فما وراءك مذهب، وقال:

هو الموت لا منجى عن الموت والذى ... تُحاذر بعد الموت أدهى وأفظع[5]

فرضى الله عنه وأرضاه وجمعنا به فى جنته ودار كرامته

إنه ولى ذلك والقادر عليه

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٩). (٢) البداية والنهاية (٥/ ٦٤٧).

(٣) رجاله ثقات خلا على بن عاصم- وهو الواسطى- فإنه يخطئ ويصر على خطئه. وتقصيره عن رسول الله ﷺ شعره بمشقص ثابت عند البخاري (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ومسلم (١٢٤٦)، والمشقص: نصل السهم إذا كان طويلاً ليس بعريض.

(٤) تاريخ الإسلام (٢/ ٣٢٣)، وأنساب الأشراف (٤/ ١٥٣).

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٠).

أبو هريرة

اللهم إني أحب لقاءك فأحبب لقائي

أبو هريرة رضي الله عنه

إننى إذا أردت أن أتكلم عن هذا الصحابى الجليل فإننى أسوق قصته إلى إخوانى وأخواتى لتبعث فى قلوبهم الأمل، وليعلموا جميعًا أن العبرة ليست بالسبق، وإنما هى بالتجرد والإخلاص لله- جلا وعلا-.

فكم من أناسٍ طالت آمادهم وقلّت أمدادهم.. وكم من أناسٍ قلّت آمادهم وكثرت أمدادهم.

فقد يعيش الإنسان أيامًا معدودة يقدم فيها الخير الكثير للإسلام وأهله.. وقد يعيش الإنسان زمانًا طويلاً لا يشغله إلا شهوات البطون والفروج.

فهذا الصنف قد يعيش سعيداً بعض الشيء، ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً

أما الذى يعيش لدينه ويعلم دوره فى خدمة هذا الدين فقد يتعب فى سبيل هذا الدور وتلك الرسالة، ولكنه يعيش كبيراً ويموت كبيراً.

وها نحن على موعد مع رجلٍ عظيم استطاع منذ اللحظة الأولى لإسلامه أن يعلم ويحدّد دوره فى خدمة هذا الدين.

إنه الإمام الفقيه المجتهد الحافظ صاحب رسول الله ﷺ (أبو هريرة) الدوسى اليمانى.. سيد الحُفّاظ الأثبات.

أسلم متأخراً وشهد خيبر، وكان اسمه فى الجاهلية (عبد شمس) فسماه الرسول ﷺ، عبد الله وكناه بأبى هرّ.

عن محمد بن قيس، قال: كان أبو هريرة يقول: لا تكنونى أبا هريرة؛ كنانى رسول الله ﷺ أبا هرّ، فقال: «ثكلتك أمك! أبا هرّ» والذكر خيرٌ من الأنثى[1].

---

(١) ابن عساكر (١٩/ ١٠٩/ ١) نقلاً عن السير للذهبى (٢/٥٨٧).

وأما عن سبب تكنيته بأبي هريرة.. فعن عبد الله بن رافع قال: قلت لأبي هريرة: لم كنُوك أبا هريرة؟ قال: أما تفرقُ مني؟ قلت: بلى، إني لأهابُك؛ قال: كنتُ أرعى غنمًا لأهلي، فكانت لي هُريرة ألعبُ بها، فكنُّوني بها[1].

ملازمته للحبيب ﷺ ورحلته في طلب العلم

ومنذ اللحظة التي أسلم فيها أبو هريرة- رضي الله عنه - وخالط الإيمان شغاف قلبه.. أحسَّ أنه لابد أن يكون واحداً ممن يحملون همَّ الإسلام ويبلّغون رسالته إلى الكون كله.

فلما قدم على الرسول ﷺ كان يلازمه ملازمة الظل لصاحبه فحمل عن النبي ﷺ علمًا كثيراً طيبًا مباركًا فيه.

وكان قد انقطع لخدمة النبي ﷺ وصحبته فكان يقيم في مسجد الرسول ﷺ لا يفارقه أبداً.. فإنه لم يكن له تجارة لينشغل بها ولا يملك أرضًا يقوم برعايتها، وقد كان يقوم- رضي الله عنه - عن نفسه: «نشأت يتميًا وهاجرت مسكينًا»[2].

ليست العبرة بالسبق

وعلى الرغم من أنه لم يصحب النبي ﷺ إلا أربع سنوات إلا أنه أصبح من أكثر الصحابة- رضي الله عنهم- رواية لحديث رسول الله ﷺ حتى إنه حدث عنه خلقٌ كثيرٌ من الصحابة والتابعين فقيل: بلغ عدد أصحابه ثمان مئة.

عن وهب بن منبه عن أخيه قال سمعت أبا هريرة يقول: ما من أصحاب النبي ﷺ أحدٌ أكثر حديثًا عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب[3].

وفي عصرنا هذا أيها الأخ الحبيب فإنا لا نكاد نجد خطيبًا أو واعظًا أو محاضراً يحدث عن الحبيب ﷺ إلا ونسمع اسم أبي هريرة- رضي الله عنه - فهو الذي نقل للأمة هذا العلم الغزير.. الذي يكون في ميزان حسناته يوم القيامة حين لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

---

(١) قال الأرنؤوط: إسناده حسن: أخرجه الترمذي (٣٨٤٠) المناقب- وابن سعد (٤/ ٣٢٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (١١٣) وأحمد (٢/ ٢٤٨- ٢٤٩) والترمذي (٢٦٦٨).

إن العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك

وكان- رضي الله عنه - يعلم جيداً أن العلم لا يتحصل عليه إلا من بذل وقته ونفسه وماله.. وأخلص في طلبه وتبليغه للناس من حوله.

ومن أجل ذلك كان- رضي الله عنه - يعاني من الفقر والجوع في سبيل التفرغ لطلب العلم ومرافقة الحبيب ﷺ.

عن عبد الرحمن بن عبيد عن أبي هريرة قال: إن كنت لأتبع الرجل أسأله عن الآية من كتاب الله عز وجل؛ لأنا أعلم بها منه ومن عشيرته، وما أتبعه إلا ليطعمني القبضة من التمر أو السفة من السويق أو الدقيق أسد بها جوعي.

فأقبلت أمشي مع عمر بن الخطاب ذات ليلة أحدثه حتى بلغ بابه فأسند ظهره إلى الباب فاستقبلني بوجهه فكلما فرغت من حديث حدثته آخر. حتى إذا لم أر شيئًا انطلقت فلما كان بعد ذلك لقيني فقال: أبا هريرة: أما لو أنه في البيت شيء لأطعمناك.

وعن أبي رافع أن أبا هريرة قال: ما أحد من الناس يهدي لي هدية إلا قبلتها، فأما أن أسأل فلم أكن لأسأل[1].

وعن محمد، قال: كنا عند أبي هريرة، فتمخَّط، فمسح بردائه، وقال: الحمدُ لله الذي تمخَّط أبو هريرة في الكتان! لقد رأيتني، وإني لأخرُّ فيما بين منزل عائشة والمنبر مغشيًا عليَّ من الجوع، فيمرُّ الرجلُ، فيجلسُ على صدري، فأرفعُ رأسي فأقول: ليس الذي ترى، إنما هو الجوع[2].

قال الإمام الذهبي- رحمه الله-: قلتُ: كان يظنُّه من يراه مصروعًا، فيجلسُ فوقه ليرقيه، أو نحو ذلك[3].

وعن أبي هريرة، قال: والله؛ إن كنت لأعتمدُ على الأرض من الجوع، وإن كنتُ لأشُدُّ الحَجَر على بطني من الجوع؛ ولقد قعدتُ على طريقهم، فمرَّ بي أبو بكر، فسألته عن آية في كتاب الله- ما أسأله إلا ليستتبعني- فمرَّ، ولم يفعل، فمرَّ عُمر (فكذلك)، حتى مرَّ بي رسول الله ﷺ، فعرف ما في وجهي من الجوع، فقال: «أبو هريرة»؟ قلت: لبيك يا

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٢٥٨) الاعتصام- والترمذي (٢٣٦٧) الزهد.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٥٩١).

رسول الله. فدخلتُ معه البيت، فوجد لبنًا فى قدح، فقال: «منْ أينَ لكم هذا»؟ قيل: أرسل به إليك فُلان، فقال: «يا أبا هريرة، انطلق إلى أهل الصفة[1]، فادعهم»- وكان أهلُ الصُفَّة أضياف الإسلام، لا أهل ولا مال إذا أتت رسول الله ﷺ صدقةٌ، أرسل بها إليهم، ولم يُصبْ منها شيئًا، وإذا جاءته هديةٌ، أصاب منها، وأشركهم فيها- فساءنى إساله إياى، فقلتُ: كنتُ أرجو أن أصيب من هذا اللبن شربةً أتقوى بها، وما هذا اللبنُ فى أهل الصفة!

ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بُدٌّ، فأتيتهم، فأقبلوا مُجيبين، فلما جلسوا قال: «خُذ يا أبا هريرة، فأعطهم». فجعلت أعطى الرجل، فيشربُ حتى يروى، حتى أتيتُ على جميعهم؛ وناولته رسول الله ﷺ، فرفع رأسه إلىَّ مُبتسمًا، وقال: «بقيتُ أنا وأنت». قلتُ: صدقت يا رسول الله، قال: «فاشرب»، فشربتُ. فقال: «اشرب»، فشربتُ ما زال يقول: اشرب، فأشرب؛ حتى قلت: والذى بعثك بالحق، ما أجدُ له مساغًا، فأخذ، فشرب من الفضلة[2].

النبى ﷺ يشهد له بحرصه على طلب العلم

عن أبى هريرة أنه قال: قيل يا رسول الله ﷺ من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه»[3].

لم ينس حديثًا حفظه ببركة دعاء النبى ﷺ له

عن أبى هريرة قال: قلت يا رسول الله أسمع منك حديثًا كثيرًا أنساه قال: «ابسط رداءك» فبسطته. قال: فغرف بيديه ثم قال: «ضمه فضممته فما نسيت شيئًا بعده»[4].

---

(١) الصفَّة: كانت فى مسجد النبى ﷺ فى المدينة يكون فيها فقراء المهاجرين، ومن لا منزل له منهم، وأهلها منسوبون إليها. وكان أهل الصفة يقومون بفروض عظيمة، منها تلقى القرآن والسنة، فكانت الصفة مدرسة الإسلام، ومنها حراسة النبى ﷺ، ومنها الاستعداد لتنفيذ أوامره وحاجاته فى طلب من يريد طلبه من المسلمين وغير ذلك، وكانوا قائمين بهذه الفروض على المسلمين.

(٢) أخرجه البخارى (١١/ ٢٤١، ٢٤٦) الرقاق- والترمذى (٢٤٧٧) صفة القيامة.

(٣) أخرجه البخارى (٩٩)- وابن سعد فى الطبقات (٢/ ٢/ ١١٨).

(٤) أخرجه البخارى (١١٩)- والترمذى (٣٨٣٥).

وعن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا تسألنى من هذه الغنائم التى يسألنى أصحابك»؟ قلت: أسألك أن تعلمنى مما علمك الله. فنزع نمرةً كانت على ظهرى، فبسطها بينى وبينه، حتى كأنى أنظر إلى النمل يدبُّ عليها؛ فحدثنى، حتى إذا استوعبتُ حديثه، قال: «اجمعها فصُرها إليك» فأصبحتُ لا أسقطُ حرفًا مما حدَّثنى[1].

وهكذا كان- رضي الله عنه - يكرِّس نفسه وذاكرته القوية لحفظ أحاديث الحبيب ﷺ.. فلما انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان أبو هريرة- رضي الله عنه - يحدِّث بحديثه ويُكثر من ذلك مما جعل بعض الصحابة يعجبون من كثرة روايته، على الرغم من أنه لم يصحب النبى ﷺ إلا أربع سنوات فأراد أبو هريرة أن يفصح عن السبب فى تلك الغنيمة التى امتنَّ الله عليه بها.

عن أبى هريرة- رضي الله عنه - قال: يقولون: إن أبا هريرة يكثر الحديث، والله الموعد، ويقولون ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون مثل أحاديثه؟ وإن إخوتى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخوتى من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرءً مسكينًا ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطنى، فأحضر حين يغيبون وأعى حين ينسون، وقال النبى ﷺ يومًا: «لن يبسط أحد منكم ثوبه حتى أقضى مقالتى هذه ثم يجمعه إلى صدره فينسى من مقالتى شيئًا أبدًا» فبسطت نمرة ليس علىَّ ثوب غيرها حتى قضى النبى ﷺ مقالته ثم جمعتها إلى صدرى. فوالذى بعثه بالحق ما نسيت من مقالته تلك إلى يومى هذا، والله لولا آيتان فى كتاب الله ما حدثتكم شيئًا أبدًا: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى- إلى- الرحيم﴾[2].

ودخل أبو هريرة على عائشة؛ فقالت له: أكثرت يا أبا هريرة عن رسول الله! قال: إى والله يا أمَّاه؛ ما كانت تشغلنى عنه المرآةُ، ولا المكحلةُ، ولا الدهن. قالت: لعله[3].

وفى رواية: عن عائشة أنها دعت أبا هريرة، فقالت له: يا أبا هريرة، ما هذه الأحاديث التى تبلغنا أنك تحدث بها عن النبى ﷺ هل سمعت إلا ما سمعنا؟ وهل رأيت إلا ما رأينا؟ قال: يا أماه، إنه كان يشغلك عن رسول الله ﷺ المرآة والمكحلة والتصنُّع

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٣٨١) وابن عساكر فى تاريخه (١٩/ ٢/١١٣) والنمرة: شملة فيها خطوط بيض وسود.

(٢) أخرجه البخارى (٢٣٥٠)- ومسلم (٢٤٩٢) وأحمد (٢/ ٢٧٤).

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات، وذكره الحافظ فى الإصابة ونسبه لابن سعد وجوَّد إسناده.

لرسول الله ﷺ، وإنى والله ما كان يشغلنى عنه شئ.[1]

بل لقد أمّن النبى ﷺ يومًا على دعائه فقد قال أبو هريرة- رضي الله عنه - اللهم إنى أسألك علمًا لا يُنسى. فقال النبى ﷺ: «آمين»[2].

كان يدعو الناس إلى ميراث رسول الله ﷺ!!

وكان أبو هريرة- رضي الله عنه - يريد من إخوانه أن يحرصوا على طلب العلم وتبليغه مثلما يصنع هو لكى تثمر الدعوة وينتشر العلم بين الناس فى كل مكان.

وكان- رضي الله عنه - يبتكر أساليبًا طيبة فى الدعوة إلى الله.

ففى يوم من الأيام كان يمر بسوق المدينة فوجد أن الناس قد انشغلوا بالبيع والشراء فخاف عليهم من إقبال الدنيا عليهم وانصرافهم عن طلب العلم فقال لهم:

ما أعجزكم يا أهل المدينة!!

فقالوا: وما رأيت من عجزنا يا أبا هريرة؟!

فقال: ميراثُ رسول الله ﷺ يُقسَّمُ وأنت ها هنا!!..

ألا تذهبون وتأخذون نصيبكم!!

قالوا: وأين هو يا أبا هريرة؟!

قال: فى المسجد.

فخرجوا سراعًا، ووقف «أبو هريرة» لهم حتى رجعوا؛ فلمارأوهُ قالوا: يا أبا هريرة لقد أتينا المسجد فدخلنا إليه لم نَرَ شيئًا يُقسم.

فقال لهم: أو ما رأيتم فى المسجد أحدًا؟!

قالوا: بلى.. رأينا قومًا يُصلون، وقومًا يقرؤن القرآن، وقومًا يتذاكرون فى الحلال والحرام..

فقال: ويحكم.. ذلك ميراثُ محمد ﷺ.

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٥٠٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.

(٢) ذكره الحافظ فى الإصابة (١٢/ ٧٤) ونسبه إلى النسائى فى العلم من كتاب السنن. وجود إسناده.

شبهة والرد عليها

عن أبي هريرة، قال: حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءين: فأمَّا أحدهما، فبثثته في الناس؛ وأما الآخر، فلو بثثته، لقطع هذا البلعوم(1).

قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: وقد حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبين أمراء السوء، وأحوالهم وزمنهم. وقد كان أبو هريرة يكنى عن بعضه، ولا يصرح به خوفًا على نفسه منهم، كقوله: أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان، يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية؛ لأنها كانت سنة ستين من الهجرة، واستجاب الله دعاء أبي هريرة، فمات قبلها بسنة. وقال ابن المنير: جعل بعضهم هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهراً وباطنًا، وذلك الباطل، إنما حاصله الإنحلال من الدين، وإنما أراد أبو هريرة بقوله: قُطع، أي: قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم، وتضليله لسعيهم، ويؤيد ذلك أن الأحاديث المكتومة لو كانت من الأحكام الشرعية وما وسعه كتمانها(2).

وقال الإمام الذهبي: قلت: هذا دالٌ على جواز كتمان بعض الأحاديث التي تُحرك فتنةً في الأصول، أو الفروع؛ أو المدح والذم؛ أما حديثٌ يتعلق بحلٍّ أو حرام، فلا يحل كتمانُه بوجه؛ فإنه من البينات والهدى.

وفي «صحيح البخاري»: قول الإمام عليّ- رضي الله عنه -: حَدِّثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما يُنكرون؛ أتُحبُّون أن يُكَذَّبَ اللّهُ ورسوله!

وكذا لو بثَّ أبو هريرة ذلك الوعاء، لأوذي، بل لقُتِلَ، ولكن العالم قد يُؤديه اجتهاده إلى أن ينشر الحديث الفلاني إحياءً للسنة، فله ما نوى وله أجر- وإن غلط في اجتهاده(3).

بره بأمه- رضي الله عنه-

إن من أعظم البر أن يحرص الابن على هداية أبويه ليكون سببًا في دخولهما الجنة- فهل هناك هدية أعظم منها؟!!

وها هو أبو هريرة- رضي الله عنه - يبذل جهده ويحرص كل الحرص على هداية أمه التي

(1) أخرجه البخاري (1/ 192، 193) العلم- باب حفظ العلم.

(2) هامش سير أعلام النبلاء (2/ 597).

(3) سير أعلام النبلاء للذهبي (2/ 597- 598).

كانت مشركة.

قال أبو هريرة- رضي الله عنه -: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليَّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة» فخرجت مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ. فلما جئت فَصِرْتُ إلى الباب فإذا هو مجاف- مغلق- فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة؛ وسمعت خضخضة الماء قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح قال: قلت: يا رسول الله أبشر، قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا. قال: قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا قال: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حبِّب عبيدك هذا- يعني أبا هريرة- وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبب إليهم المؤمنين» فما خُلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني[(١)].

عبادته- رضي الله عنه-

عن أبي عثمان الهندي قال: تضيفت أبا هريرة سبعًا- سبعة أيام- فكان هو وامرأته وخادمه يتعقبون الليل أثلاثًا، يصلي هذا ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا ثم يوقظ هذا.

وهكذا كانت العبادة لا تنقطع من بيته طوال الليل.

وعن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة قال: ما وجع أحب إليَّ من الحمى؛ لأنها تعطي كل مفصل قسطه من الوجع، وإن الله تعالى يعطي كل مفصلٍ قسطه من الأجر[(٢)].

وعن عكرمة: أن أبا هريرة كان يُسبِّحُ كلَّ يومٍ اثني عشر ألف تسبيحة، يقولُ: أسبِّحُ بقدر ديتي[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩١) وأحمد (٢/٣١٩- ٣٢٠).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٩٤).

(٣) (تاريخ دمشق) لابن عساكر (١٩/ ١٢٢/ ٢).

خفة ظله - رضى الله عنه-

وقد ولِي أبو هريرة المدينة من قبل معاوية بن أبي سفيان أكثر من مرة، فلم تُبدِّلِ الولايةُ من سماحة طبعه، وخفة ظله شيئًا..

فقد مرَّ بأحد طُرق المدينة- وهو والٍ عليها- وكان يحملُ الحطب على ظهره لأهل بيته، فمرَّ بثعلبة بن مالك.. فقال له:

أوسع الطريق للأمير يا بن مالك... فقال له:

يرحمك الله أما يكفيك هذا المجال كله؟!.. فقال له:

أوسع الطريق للأمير، وللحُزمة التي على ظهره[1].

حلمه-رضى الله عنه- وعفوه عما أساء إليه

عن أبي هريرة، قال: لما قدمتُ على النبي ﷺ قلتُ في الطريق:

يا ليلةً مِنْ طُولهـــا وعَنائهـــا   على أنهـــا من دارة الكُفـــرِ نَجَّتِ

قال: وأَبَق لي غلامٌ: فلمَّا قدمتُ، وبايعتُ، إذ طلع الغلامُ، فقال النبي ﷺ: «هذا غلامُك يا أبا هريرة»؟ قلتُ: هو حُرٌّ لوجه الله. فأعتقته[2].

وقد كانت لأبي هريرة جاريةٌ زنجيةٌ فأساءت إليه، وغمَّت أهله، فرفع السوط عليها ليضربها به، ثم توقف، وقال: لولا القصاص يوم القيامة لأوجعتك كما آذيتنا، ولكن سأبيعك ممن يُوفِّيني ثمنك وأنا أحوجُ ما أكونُ إليه.. اذهبي فأنت حُرة لله عز وجل.

وأما بنعمة ربك فحدث

وكان أبو هريرة- ﷺ - لا ينسى أبداً فضل ربه عليه ونعمه التي امتن بها عليه.

فعن مُضارب بن حَزْن، قال: بينما أنا أسيرُ تحت الليل، إذا رجلٌ يُكبِّر، فألحقه بعيري فقلتُ: من هذا؟ قال: أبو هريرة. قلت: ما هذا التكبير؟ قال: شُكرٌ. قلتُ: على مه؟- على أي شيء- قال: كنتُ أجيراً لبُسرة بنت غزوان بعقْبة رجلي، وطعام بطني، وكانوا إذا ركبوا، سقتُ بهم، وإذا نزلوا، خدمتهم، فزوَّجنيها اللهُ؛ فهي امرأتي[3].

---

(1) صفةالصفوة (1/ 294) بتصرف.   (2) أخرجه البخاري (5/ 117) في العتق- وأحمد (2/ 286).

(3) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات، وأخرجه أبو نعيم (1/ 380) وابن عساكر (19/ 123/ 1).

عقبة رجلي: أي نوبة ركوبه.

وعن أبي هريرة: أنه صلَّى بالناس يومًا، فلم سلَّم، رفع صوته، فقال: الحمد لله الذي جعل الدين قوامًا، وجعل أبا هريرة إمامًا، بعد أن كان أجيرًا لابنة غزوان على شبع بطنه وحَمُولة رجله(١).

وعن حُميد بن مالك بن خُثَيم، قال: كنتُ جالسًا عند أبي هريرة في أرضه بالعقيق، فأتاه قومٌ، فنزلوا عنده، قال حُميد: فقال: اذهب إلى أمي، فقل: إن ابنك يُقرئُك السلام، ويقولُ: أطعمينا شيئًا. قال: فوضعت ثلاثة أقراصٍ في الصحفة، وشيئًا من زيت وملح ووضعتها على رأسي؛ فحملتها إليهم.

فلما وضعتُه بين أيديهم؛ كبَّر أبو هريرة، وقال: الحمدُ لله الذي أشبعنا من الخبز، بعد أن لم يكن طعامُنا إلا الأسودين: التمر والماء.

فلم يُصب القومُ من الطعام شيئًا. فلما انصرفوا، قال: يا ابن أخي، أحسن إلى غنمك، وامسح عنها الرُّغَام، وأطب مُراحها، وصلِّ في ناحيتها؛ فإنها من دوابِّ الجنة والذي نفسي بيده، يُوشكُ أن يأتي على الناس زمانٌ تكون الثُّلة من الغنم أحبُّ إلى صاحبها من دار مروان(٢).

كان لا يحرص على الولاية

ولقد كان- رضي الله عنه - لا تطمح نفسه إلى شيء من حُطام الدنيا الفانية فقد عاش حياته زاهدًا ومجاهدًا وطالبًا للعلم.

ولكنه مع ذلك كان إذا كلفه أمير المؤمنين بالولاية فإنه كان يقبلها على مضضٍ وكُرهٍ فهو يعلم أنها تكليف لا تشريف.

عن محمد: أن عمر استعمل أبا هريرة على البحرين، فقدم بعشرةِ آلاف. فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدوَّ الله، وعدوَّ كتابه؟

فقال أبو هريرة: فقلتُ: لستُ بعدوِّ الله وعدوِّ كتابه؛ ولكني عدوُّ من عاداهما.

قال: فمن أينَ هي لك؟ قلتُ: خيلٌ نُتِجتْ، وغَلَّةُ رقيقٍ لي، وأعطيةٌ تتابعت.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٧٩) وابن عساكر (١٩/ ١٢٣/ ١).

(٢) هو في الموطأ رقم (٢٠٨١) (٤/٣١٣، ٣١٤) بشرح الزرقاني، وإسناده صحيح، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٧٢) من طريق إسماعيل بن أبي أويس، عن مالك. والرُّغام: مخاط رقيق يجري من أنوف الغنم. وأطب مراحها: نظّفه. والثلة: جماعة الغنم، قليلة كانت أو كثيرة، وقيل: الثلة: الكثير منها.

فنظروا، فوجدوه كما قال.

فلما كان بعد ذلك، دعاهُ عمر ليولّيه، فأبى. فقال: تكرهُ العملَ وقد طلب العمل مَنْ كان خيراً منك: يوسف ﷺ! فقال: يوسفُ نبى ابنُ نبى ابن نبى وأنا أبو هريرة ابنُ أميمة. وأخشى ثلاثًا واثنتين. قال: فهلا قُلتَ: خمسًا؟ قال: أخشى أن أقول بغير علم، وأقضى بغير حلم، وأن يُضرب ظهرى، ويُنتزع مالى، ويُشتم عرضى[1].

حنينه إلى النبى ﷺ

وبعد وفاة النبى ﷺ كانت صورته لا تفارق أبا هريرة- رضي الله عنه - فقد كان يحبه حبًا جمًا على الرغم من أنه لم يصحب النبى ﷺ إلا سنوات معدودة لا تتعدى الأربع سنوات، ولكنها كانت تساوى فى عُمر الزمن أعمار أمم وأجيال.

وكان أبو هريرة إذا ذكر الحبيب ﷺ تتوق نفسه لرؤيته فيجهش بالبكاء شوقًا لرؤية حبيبه ﷺ.

وإننى أقول: والله لو رأينا رسول الله ﷺ دقيقة واحدة ما استطعنا أن نستمتع بالحياة من بعد لحظة واحدة.

عن عبد الوهاب المدنى، قال: بلغنى أن رجلاً دخل على مُعاوية، فقال: مررتُ بالمدينة، فإذا أبو هريرة جالسُ فى المسجد، حوله حلقةُ يحدّثُهم، فقال: حدثنى خليلى أبو القاسم ﷺ. ثم استعبر، فبكى. ثم عاد، فقال: حدثنى خليلى ﷺ نبيُّ الله أبو القاسم. ثم استعبر، فبكى. ثم قام[2].

وكان- رضي الله عنه - يشعر بُقرب أجله فكان إذا مرت به جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون وروحوا فإنا غادون[3].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة مليئة بالكفاح والتضحية وطلب العلم والدعوة إلى الله تعالى نام أبو هريرة- رضي الله عنه - على فراش الموت ليلحق بحبيبه ﷺ الذى لطالما اشتاق إليه وذرفت دموعه حزنًا على فراقه.

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: وذكره ابن كثير فى البداية (٨/ ١١٣).

(٢) (تاريخ دمشق) لابن عساكر (١٩/ ١٢٣/ ١).

(٣) (تاريخ دمشق) (١٩/ ١٢٦/ ٢) وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٣٨٣).

ولقد كان- رضي الله عنه - يدعو قائلاً: «اللهم لا تدركني سنة ستين»[1]، فتوفى فيها أو قبلها بسنة.

عن سلم بن بشير أن أبا هريرة بكى في مرضه: فقيل: ما يُبكيكَ؟ قال: ما أبكي على دنياكم هذه، ولكن على بُعد سفري، وقلّة زادي، وأني أمسيتُ في صُعود، ومهبطُه على جنة أو نار، فلا أدري أيُهما يؤخذ بي[2].

وعن المَقْبُري، قال: دخل مروانُ على أبي هريرة في شكواه، فقال: شفاك الله يا أبا هريرة. فقال: اللهم، إني أحِبُّ لقاءك، فأحبَّ لقائي.

قال: فلما بلغ مروانُ أصحاب القطا، حتى مات[3].

وهكذا رحل أبو هريرة- رضي الله عنه - بعد أن ملأ الدنيا علمًا وبلغ سُنة الحبيب ﷺ.

فرضي الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين

---

(١) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: ذكره الحافظ في الفتح (١٣/ ٨)- السير للذهبي (٢/ ٦٢٦).

(٢) في الطبقات (٤/ ٣٣٩): فلا أدري إلى أيهما يسلك بي. وهو في الحلية (١/ ٣٨٣).

(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٣٩)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٩/ ١٢٨/ ١). وفي الطبقات: فرق مروان وسط السوق حتى مات.

طلحة بن عبيد الله

«من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»

محمد رسول الله ﷺ

مرحبًا مرحبًا بمن قدَّم حياته فداءً للحبيب ﷺ فى غزوة أُحُد... مرحبًا بالشهيد الحى الذى يضع أقدامه فى الدنيا وهو يعلم أنه من أهل الجنة.

مرحبًا بمن شهد له النبى ﷺ أنه ممن قضى نحبه.

مرحبًا بالصحابى الجليل: طلحة بن عبيد الله القرشى التيمىّ، أبو محمد، أحد العشرة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر، وأحد الستة أصحاب الشورى[1].

لقد كان طلحة- رضي الله عنه - صاحب النفس الطيبة التى تبحث عن الخير أينما كان.. فكان يرى الجاهلية التى يعيشها الناس من حولها فتشمئز نفسه ويتمزق قلبه حُزنًا وكمدًا على تلك الحالة التى كان يتمنى هو وغيره- من أصحاب المروءة والنفوس النقية الصافية التى فُطرت على النقاء- أن تتغير وأن تتبدل تلك الجاهلية إلى حياة نظيفة طاهرة يعيش الناس فيها فى ظل الحب والوئام والعدل والإخاء.

إنه عملاق من عمالقة الإسلام، وفارس من أشجع الفرسان، ورجل من أولئك الرجال الذين كان لهم أطيب الأثر، وأعظمه فى الفتوحات الإسلامية الأولى. والده: عبيد الله، كان من أشراف مكة، وأولى الحظوة فيها. وأمه: الصعبة بنت عبد الله، جدها لأمها وهب بن عبد الله، صاحب العطاء والكرم.

وبين أبيه وأمه نمت طفولته، وترعرع شبابه، وتعلَّم على أيديهما الكثير من شئون الحياة والتخلق بالأخلاق الكريمة، والصفات الحميدة، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال تزوج حمنة بنت جحش، أخت زينب زوج النبى ﷺ.

---

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٣/ ٤٣٠).

نشأ طلحة- رضي الله عنه - فى مكة، فعرف سهولها ووديانها، وتنقل بين جبالها وقممها، وتعلَّم الرماية بالسهم، والإصابة بالرمح ولما شبَّ عن الطوق ضاقت به جنباتُ مكة، فاختار طريق التجارة. ومن هنا عرفته أسواق بصرى والشام، عرفته تاجراً صدوقًا، وخبرته بائعًا سمحًا.

وسارت حياة طلحة- رضي الله عنه - بين ظعن وإقامة، وحِلٍّ وترحال، وتوالت الأيام، وكرت الليالى، وهى لا تخرجه عن مزاولة التجارة.

هذا العمل الشاق الذى رضيه لنفسه، واختاره لحياته.

وسرعان ما تحققت تلك الأمنية الغالية، فلقد بزغ نور الإسلام فأضاء الكون كله فى لحظة واحدة.. يوم أن نزل جبريل - عليه السلام - على الحبيب ﷺ ومعه النور الذى أضاء الله به القلوب المظلمة وهدى به النفوس التائهة فى دروب الحياة المتشابكة إلى أنوار التوحيد والإيمان.

لقد بُعث محمد ﷺ وآمن برسالته أبو بكر- رضي الله عنه - فلما سمع طلحة- رضي الله عنه - هذا الخبر لم يتلكأ ولم يتلعثم، بل إنه بمجرد أن دعاه أبو بكر استجاب لنداء الحق فهو يعلم يقينًا أن محمداً هو الصادق الأمين بلا منازع، وأن أبا بكر هو التاجر الصدوق الذى لا يمكن أن يجتمع مع الحبيب ﷺ على ضلالة أبداً.

وذهب طلحة وقلبه ينبض بكل قوة وشوق وحنين للقاء الحبيب ﷺ ليعلنها قوية فى وجه الكون كله: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ.

وعلى الرغم من مكانته بين قومه وثرائه، إلا أنه أوذى فى سبيل الله، ولكن سرعان ما كشف الله عنه هذا العذاب والابتلاء.

ولما هاجر الحبيب ﷺ إلى المدينة هاجر طلحة- رضي الله عنه - مع المهاجرين لينعم بصحبة النبى ﷺ بعيداً عن أعين كفار قريش وسطوتهم.

شهيد يمشى على الأرض

وها هو الحبيب ﷺ يبشر طلحة- رضي الله عنه - بأنه سيموت شهيداً بإذن الله- عز وعلا-.

فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء. فتحرك. فقال رسول الله ﷺ: «اسكُن. حراءُ! فما عليك إلا نبىٌّ أو صديق أو شهيد، وعليه النبى ﷺ وأبو بكر وعمر

وعثمان وعليّ وطلحةُ والزبير وسعد بن أبي وقاص- رضى الله عنهم-[١].

فلما علم طلحة بأنه سيموت شهيداً.. وذلك بعد أن سمع تلك البشرى من الحبيب ﷺ ظل يبحث عن الشهادة فى مظانها.. فشهد المشاهد كلها مع النبى ﷺ عدا غزوة بدر.

فاتُّفق أنه غاب عن موقعة بدر فى تجارة له بالشام[٢].

وفى يوم «أحد» أوجب طلحة- رضى الله عنه-

وفى غزوة أحُد كان طلحة كعادته يبحث عن الشهادة التى بشرَّه بها النبى ﷺ لعل الله أن يكرمه بها فى ذلك اليوم.

وبينما كان الجيش الإسلامى الصغير يسجل مرة أخرى نصراً ساحقًا على مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذى اكتسبه يوم بدر، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تمامًا، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، وكادت أن تكون سببًا فى مقتل النبى ﷺ وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم، والهيبة التى كانوا يتمتعون بها بعد بدر.

لمارأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو؛ غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا، فقال بعضهم لبعض: الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟!

أما قائدهم عبد الله بن جبير، فقد ذكَّرهم أوامر الرسول ﷺ وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟!

ولكن الأغلبية الساحقة لم تُلق لهذا التذكير بالاً، وقالت: والله لنأتينَّ الناس فلنصيبن من الغنيمة[٣]. ثم غادر أربعون رجلاً من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل، والتحقوا بسواد الجيش، ليشاركوه فى جمع الغنائم، وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه، التزموا مواقفهم، مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يُبادر.

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فاستدار بسرعة خاطفة، حتى وصل إلى

(١) أخرجه مسلم (٥٠) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) قال ابن سعد فى الطبقات (٣/١/ ١٥٤) لما تحين رسول الله ﷺ، وصول عير قريش من الشام، بعث طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، قبل خروجه من المدينة بعشر ليال، يتحسسان خبر العير، فخرجا حتى بلغا الحوراء. فلم يزالا مقيمين هناك حتى مرت بهما العير، وبلغ رسول الله ﷺ، الخبر، قبل رجوع طلحة وسعيد إليه..».

(٣) أخرجه البخارى عن البراء بن عازب (١/ ٤٢٦).

مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه، ثم انقض على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف منها المشركون المنهزمون بالتطور الجديد، فانقلبوا على المسلمين، وأسرعت امرأة منهم - وهي عمرة بنت علقمة الحارثية - فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتفَّ حوله المشركون، ولاثوا به، وتنادى بعضهم بعضًا، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف ووقعوا بين شِقَّي الرحى.

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أواصر التطويق، تطحن بين شقى رحى المشركين، كان العراك محتدمًا حول رسول الله ﷺ فلما نادى المسلمين: «هَلُمَّ إليَّ، أنا رسول الله»، سمع صوته المشركون وعرفوه، فكروا إليه وهاجموه، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف، ظهرت فيه نوادر الحب والتفاني والبسالة والبطولة.

عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه؛ قال: «من يردهم عنا وله الجنة؟» أو: «هو رفيقي في الجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل، ثم رهقوه أيضًا فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه - أي: القرشيين -: «ما أنصف أصحابنا»[١].

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط[٢].

وبعد سقوط ابن السكن بقي رسول الله ﷺ في القرشيين فقط.

ففي الصحيحين عن أبي عثمان؛ قال: لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله، وسعد (بن أبي وقاص)[٣].

فأما سعد بن أبي وقاص، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته، وقال: «ارم فداك أبي وأمي»[٤]. ويدل على مدى كفائته أن النبي ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٧) باب غزوة أحد.

(٢) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة، وأدنوه من رسول الله ﷺ، فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ. [ابن هشام ٢/ ٨١].

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٢٢)، ومسلم (٤٧)، (٢٤١٤).

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٤٠٧) (٢/ ٥٨٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٢٥)- ومسلم (٤٢) (٢٤١٢).

وعن جابر قال: لما كان يوم أحد وولى الناس كان رسول الله ﷺ فى ناحية فى اثنى عشر رجلاً منهم طلحة، فأدركه المشركون، فقال النبى ﷺ: «مَن للقوم؟» قال طلحة: أنا. قال: «كما أنت»؟ فقال رجل: أنا. قال: «أنت». فقاتل حتى قُتل. ثم التفت، فإذا المشركون فقال: «من لهم؟» قال طلحة: أنا. قال: «كما أنت». فقال رجل من الأنصار: أنا. قال: «أنت» فقاتل حتى قُتل، فلم يزل كذلك حتى بقى مع نبى الله (طلحة) فقال: «من للقوم؟» قال طلحة: أنا. فقاتل طلحة قتال الأحد عشر، حتى قُطعت أصابعه فقال: «حس». فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون».. ثم ردّ الله المشركين[1].

وعند الطبرانى: «لو قلت: بسم الله لطارت بك الملائكة والناس ينظرون ال...

وعند النسائى والبيهقى فى الدلائل: «حتى تلج بك فى جو السماء»

وعند أحمد: فقال له النبى ﷺ: «لو قلت بسم الله لرأيت يُبنى لك بها بيت فى الجنة وأنت حىٌّ فى الدنيا»[2].

وعن قيس بن حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى يوم أحد[3].

. وجُرح فى تلك الغزوة تسعًا وثلاثين أو خمسًا وثلاثين وشُلّت أصبعه على السبابة والتى تليها[4].

وقال النبى ﷺ فيه يومئذ: «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»[5].

وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة- رضى الله عنها- قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحُد قال: ذلك اليوم كله لطلحة[6].

---

(١) رواه الحاكم مختصراً (٣/ ٣٦٩) معرفة الصحابة، وله طرق، قال الألبانى فى الصحيحة رقم (٢١٧١) فالحديث حسن بمجموع هذه الطرق.

(٢) رواه أحمد فى فضائل الصحابة (١٢٩٤) وإسناده صحيح.

(٣) رواه البخارى عن قيس بن حازم- حديث رقم (٤٠٦٣).

(٤) البخارى (٧/ ٣٦١).

(٥) رواه الترمذى والحاكم عن جابر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٦٢).

(٦) فتح البارى (٧/ ٣٦١).

وقال فيه أبو بكر أيضًا:

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت   لك الجنان وبوأت المها العينا[1]

عن عائشة وأم إسحاق بنتي طلحة قالتا: جُرح أبونا يوم أُحُد أربعًا وعشرين جراحة، وقع منها في رأسه شجةٌ مربعة، وقُطع نساه- يعني العرق- وشُلّت أصبعُه، وكان سائر الجراح في جسده، وغلبه الغشيُ- الإغماء- ورسول الله ﷺ مكسورة رباعيتهُ، مشجوجٌ في وجهه، قد علاه الغَشْيُ، وطلحةُ محتملهُ- أي يحمل النبي ﷺ- يرجعُ به القهقرى، كلما أدركه أحد من المشركين، قاتل دونه، حتى أسنده إلى الشعب[2].

حتى قال عنه ﷺ: «أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع»[3].

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

عن موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاء[4] يسأله عمن قضى نحبه من هو؟ فكانوا لا يجترئون على مسألته يوقرونه ويهابونه قال: فسأله الأعرابي فأعرض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم إني اطلعت من باب المسجد- يعني طلحة- وعلى ثياب خضر فلما رآني رسول الله ﷺ قال: **«أين السائل عمن قضى نحبه؟»** قال الأعرابي: أنا يا رسول الله. قال: **«هذا ممن قضى نحبه»**[5].

وعن طلحة- رضي الله عنه - قال: عُقرت يوم أحد في جميع جسدي حتى في ذكري[6].

وطلحة يوم الشِّعْب واسَى مُحمدًا   لدى ساعة ضاقتْ عليه وسُدَّتِ

وقاه بِكَفَّيهِ الرِّماحَ فقُطِّعَتْ   أصابعُهُ تحت الرماح فشُلَّتِ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٨٢).

(٢) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١/ ٣٢).

(٣) أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم عن الزبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٠) بلفظ: «أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع» الصحيحة (٩٤٥).

(٤) في رواية الترمذي.. قالوا لأعرابي جاهل: سله عمن قضى نحبه من هو؟

(٥) النحب النذر، وقيل: الموت وقيل: العهد وقيل غير ذلك- قال شعيب الأرنؤوط: والحديث رواه أبو يعلى (٢/ ٢٦- ٢٧) والترمذي (٣٧٤٢) بإسناد حسن.

(٦) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١/ ٣٩).

أدبه مع النبى ﷺ

أدب طلحة الخير: طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه -.

يظهر ذلك جليًا أثناء انسحاب رسول الله ﷺ من أحد؛ قال ابن إسحاق: نهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ليعلوها، وكان قد بدّن[1] وظاهر بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع، فجلس تحت طلحة بين عبيد الله حتى استوى عليها.

لقد أصاب العرجُ إحدى رجلى طلحة- رضي الله عنه - أثناء دفاعه عن النبى ﷺ، ولما حمل طلحة النبى ﷺ تكلف استقامة المشى أدبًا مع رسول الله رضي الله عنه، لئلا يشق على النبى ﷺ، فاستوتْ رجلُه العرجاء لهذا التكلُّف، فشُفى من العَرَجِ[2].

دفاعه عن إخوانه وإحسان الظن بهم

عن مالك بن أبى عامر، قال: جاء رجل إلى طلحة فقال: أرأيتك هذا اليمانى هو أعلمُ بحديث رسول الله منكم- يعنى أبا هريرة- نسمع منه أشياء لا نسمعها منكم، قال: أما أن قد سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع، فلا أشك، وسأخبرك: إنَّا كنَّا أهل بيوت، وكنا إنما نأتى رسول الله غُدوةً وعشيةً، وكان مسكينًا لا مال له- أبو هريرة- إنما هو على باب رسول الله، فلا أشكُّ أنه قد سمع ما لم نسمع، وهل تجد أحداً فيه خيرٌ يقول على رسول الله ﷺ ما لم يَقُلْ؟[3].

فيا ليتنا نعى هذا الدرس جيداً ونُحسن الظن بكل علمائنا فهم الذين يقفون على كل ثغر من ثُغور الإسلام يدافعون عن هذا الدين ويبلغون رسالة الحبيب ﷺ إلى الدنيا بأسْرِها. ولذا فإن هؤلاء العلماء بمثابة الجهاز المناعى للأمة ضد كل غاشم يريد أن ينال من هذا الدين.

ولا تستطيع الأمة بحال من الأحوال أن تحيا بغير هذا الجهاز المناعى، وإلا أتتها الأمراض من كل مكان، ودبّ فيها الضعف.. فاعلموا لأهل العلم قدرهم ومنزلتهم.

إنفاقه فى سبيل الله تعالى

عن قبيصة بن جابر قال: صحبتُ طلحة، فما رأيت أعطى لجزيل مالٍ من غير مسألة منه[4].

---

(١) أى ضعف وأسنّ. (٢) صلاح الأمة/ د. سيد حسين (٥/ ٦٤٠- ٦٤١).

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه الترمذى، وحسنه هو والحافظ فى الفتح.

(٤) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٥٧) والطبرانى فى الكبير (١٩٤).

وعن موسى، عن أبيه (طلحة) أنه أتاه مالٌ من حضر موت سبعُ مئة ألف، فبات ليلته يتململ، فقالت له زوجته: ما لك؟ قال: تفكرتُ منذ الليلة، فقلت: ما ظن رجل بربه يبيت وهذا المال في بيته؟ قالت: فأين أنت عن بعض أخلائك فإذا أصبحت، فادع بجفان وقصاع فقسِّمه. فقال لها: رحمك الله، إنك موفقة بنت موفق، وهي أم كلثوم بنت الصديق، فلما أصبح، دعا بجفان، فقسَّمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى علي منها بجفنة، فقالت له زوجته: أبا محمد! أما كان لنا في هذا المال من نصيب؟ قال فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك بما بقي. قالت: فكانت صرة فيها نحوُ ألف درهم[1].

وعن سُعدى بنت عوف المرية قالت: دخلتُ على طلحة يومًا وهو خاثر[2]، فقلت: ما لك؟ لعل رابك من أهلك شيء؟ قال: لا والله، ونعم خليلةُ المسلم أنت، ولكن مالٌ عندي قد غمَّني. فقلت: ما يَغُمُّك؟ عليك بقومك، قال: يا غلام! ادع لي قومي. فقسَّمه فيهم، فسألتُ الخازن: كم أعطى؟ قال: أربع مئة ألف[3].

وعن الحسن البصري أن طلحة بن عُبيد الله باع أرضًا له بسبع مئة ألف. فبات أرقًا من مخافة ذلك المال، حتى أصبح ففرَّقه[4].

وعن عليِّ بن زيد قال: جاء أعرابي إلى طلحة يسأله، فتقرب إليه برحم فقال: إن هذه الرحم ما سألني بها أحدٌ قبلك، إن لي أرضًا قد أعطاني بها عثمان ثلاثمائة ألف فاقبضها، وإن شئت بعتها عن عثمان، ودفعت إليك الثمن. فقال: الثمن، فأعطاه[5].

إنه طلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الجود.

موقفه يوم الجمل.. والشهادة في سبيل الله

عن علقمة بن وقاص الليثي قال: لما خرج طلحة والزبيرُ وعائشة للطلب بدم عثمان، عرَّجوا عن منصرفهم بذات عرق، فاستصغروا عُروة بن الزبير، وأبا بكر بن عبد الرحمن فردُّوهما، قال: ورأيت طلحة، وأحبُّ المجالس إليه أخلاها، وهو ضارب بلحيته على زوره، فقلت: يا أبا محمد! إني أراك وأحبُّ المجالس إليك أخلاها، إن كنت تكره هذا الأمر،

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١/ ٣٠- ٣١).

(٢) خاثر النفس: غير نشيط.

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٤٨) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٤) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١/ ٣٢).

(٥) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢).

فدعه، فقال: يا علقمة! لا تلمنى، كنا أمس يداً واحدة على مَنْ سوانا، فأصبحنا اليوم جبلين من حديد، يزحف أحدنا إلى صاحبه، ولكنه كان منى شىء فى أمر عثمان، مما لا أرى كفَّارته إلا سَفْكَ دمى، وطلب دمه[1].

قال الإمام الذهبى- رحمه الله- قلت: الذى كان منه فى حق عثمان تمغفلٌ وتأليبٌ، فعله باجتهاد، ثم تغير عندما شاهد مصرع عثمان، فندم على ترك نُصرته- رضي الله عنه - وكان طلحةُ أول من بايع عليًا، أرهقه قتلةُ عثمان، وأحضروه حتى بايع[2].

ولكن طلحة والزبير- رضى الله عنهما- اعتزلا تلك الحرب فلم يقاتلا، وذلك عندما رأيا (عماراً) يقاتل فى صف (على) فتذكر قول النبى ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[3].

وكان طلحة والزبير- رضى الله عنهما- فى جيش معاوية- رضي الله عنه - الذى يقاتل عماراً- رضي الله عنه - فخشيامن الخوض فى هذا القتال. ومما زاد حماسهما لاعتزال تلك الحرب- قول علىّ بن أبى طالب للزبير- يازبير أنشدك الله قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقاتله وأنت له ظالم؟ قال- الزبير-: أذكر، ثم مضى الزبير منصرفًا»[4].

فانسحب طلحة والزبير وقُتلا أثناء اعتزالهما لتلك الحرب، فأما الزبير فقد تعقَّبه رجل اسمه «عمرو بن جرموز» فقتله غدراً.

وأما طلحة فيقال: إنه جاء سهم غريب- أى لا يُدرى من الذى رماه-.

وقيل: إن الذى رماه هو مروان بن الحكم.

فعن قيس قال: رأيت مروان بن الحكم حين رمى طلحة يومئذ بسهم، فوقع فى ركبته، فمازال ينسعُ حتى مات[5].

وعن أبى سبرة قال: نظر مروان بن الحكم إلى طلحة بن عبيد الله يوم الجمل فقال: لا أطلب بثأرى بعد اليوم فرماه بسهم فقتله»[6].

(١) أخرجه الحاكم (٣/٣٧٢)، وفيه «فى طلب دمه» بدل «وطلب دمه» وسكت الحاكم عنه. ولكن الذهبى قال فى مختصره: سنده جيد. وهو كما قال.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٣٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩١٥) الفتن- وأحمد (٣/ ٥).

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٦) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.

(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٧٠) وابن سعد (٣/١/١٥٩) مطولاً، وأورده الحافظ فى الإصابة (٥/١٣٥) وقال سنده صحيح.

(٦) أورده الحافظ فى الإصابة (٥/ ٢٣٥) وقال: إسناده صحيح.

قال الإمام الذهبي- رحمه الله- قلت: قاتل طلحة في الوزر بمنزلة قاتل (علي) وعن (عليّ) قال: «بشروا قاتل طلحة بالنار»(١).

وعن طلحة بن مطرق: أنّ عليًا انتهى إلى طلحة وقد مات، فنزل عن دابته وأجلسه ومسح الغبار عن وجه ولحيته، وهو يترحم عليه، وقال: «ليتني متُّ قبل هذا بعشرين سنة»(٢).

وعن قيس بن عبادة، قال: «سمعت عليًا- رضي الله عنه - يوم الجمل يقول لابنه الحسن: «يا حسن، وددتُ أني كنتُ متُّ منذ عشرين سنة»(٣).

وعن أبي حبيب- مولى لطلحة-قال: دخلت على (عليّ) مع عمران بن طلحة بعد واقعة الجمل فرحّب به وأدناه ثم قال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك ممن قال فيهم:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧](٤).

حفظ الله له بعد موته

إن الله يحفظ العبد المؤمن بعد موته كما كان يحفظه وهو حي.

وها هو طلحة- رضي الله عنه - بعد موته بأكثر من ثلاثين سنة يفتحون قبره وينقلونه إلى مكان آخر، وإذا به لم يتغير منه إلا شُعيرات في إحدى شقّي لحيته.

فعن المثنى بن سعيد قال: أتى رجلٌ عائشة بنت طلحة فقال: رأيت طلحة في المنام، فقال: قل لعائشة تحولني من هذا المكان؛ فإنّ النزّ- الرطوبة أو الماء- قد آذاني. فركبت في حشمها، فضربوا عليه بناء واستثاروه. قال: فلم يتغير منه إلا شُعيرات في إحدى شقّي لحيته، أو قال رأسه، وكان بينهما بضع وثلاثون سنة.

وحكى المسعوديُّ أن عائشة بنته هي التي رأت المنام(٥).

فرضي الله عن طلحة وعن سائر الصحابة أجمعين

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣٦، ٣٧).

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٥٠): رواه الطبراني وإسناده حسن.

(٣) قال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٥٠) رواه الطبراني وإسناده جيد.

(٤) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٦٠) والطبري في تفسيره (١٤/ ٣٦)- وتفسير ابن كثير (٤/ ١٦٤).

(٥) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١/ ٤٠).

الزبير بن العوام

حوارى رسول الله ﷺ المشهود له بالجنة
أول من سلّ سيفه فى سبيل الله

يا لها مناقب اجتمعت لهذا الصحابى الجليل.

إنه حوارىُّ رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى، وأول من سّل سيفه فى سبيل الله.. أبو عبد الله- ﷺ - أسلم وهو حدث، له ست عشرة سنة.

وقد ورد أن الزبير كان رجلاً طويلاً، إذا ركب خطّت رجلاه الأرض، وكان خفيف للحية والعارضين[1].

ولقد كان الزبير منذ صغره فارسًا مغواراً لا يخشى الردى- أينما كان.. ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ قط.

وكان يحب النبى ﷺ حبًا ملك عليه قلبه وجوارحه فكان يخشى عليه من نسيم الهواء، بل من أدنى من ذلك.

دفاعه عن النبى ﷺ

وفى يوم من الأيام سرت إشاعة بين الناس أن الرسول ﷺ قُتل فما كان من الزبير إلا أن أخذ سيفه وخرج على الناس كالإعصار المدمّر يريد أن يتثبت من الخبر فلقيه الحبيب ﷺ فقال: مالك يا زبير؟ قال: أخبرت أنك أخذت- قُتلت- فصلى عليه ودعا له ولسيفه.

وفى رواية: فقال النبى ﷺ مالك؟ قال: أخبرت أنك أخذت، قال: فكنت صانعًا ماذا؟ قال: كنتُ أضربُ به من أخذك. فدعا له ولسيفه[2].

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٤١- ٤٢).

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣٦٠- ٣٦١) وانظر الاستيعاب (٣/ ٣١١) وأسد الغابة (٢/ ٢٥٠) والإصابة (٤/ ٨).

كان يسمى أولاده بأسماء الشهداء

لقد كان يحب الشهادة فى سبيل الله، ويبحث عنها فى مظانها حتى إنه من حبه للشهادة كان يسمى أولاده بأسماء الشهداء.

قال الزبير بن العوام: إن طلحة بن عبيد الله التيمى يسمى بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أنه لا نبى بعد محمد ﷺ، وإنى أسمى بنى بأسماء الشهداء لعلهم أن يُستشهدوا، فسمى (عبد الله) بعبد الله بن جحش، (والمنذر) بالمنذر ابن عمرو، (وعروة) بعروة بن مسعود، (وحمزة) بحمزة بن عبد المطلب، (وجعفراً) بجعفر بن أبى طالب، (ومصعبًا) بمصعب بن عُمير، (وعُبيدة) بعبيدة بن الحارث، (وخالداً) بخالد بن سعيد، (وعمراً) بعمرو بن العاص[1].

صبره على الإيذاء فى سبيل الله

وعلى الرغم من شرفه ونسبه فى قومه إلا أنه أخذ حظه من الظلم والتعذيب والاضطهاد.

وكان الذى يتولى تعذيبه (عمه).

قال يتيم عروة: هاجر الزبير وهو ابن ثمان عشرة سنة، وكان عمه يعلّقه ويُدخّن عليه، وهو يقول: «لا أرجع إلى الكفر أبداً»[2].

ولقد هاجر الزبير إلى الحبشة الهجرتين- الأولى والثانية- ثم عاد ليشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها.

ومن تأمل وصف الصحابة- رضى الله عنهم- لجسد الزبير لعلم كيف كان يقاتل الزبير- رضى الله عنه-.

وعن عروة قال:كان الزبير ثلاث ضربات بالسيف: إحداهن فى عاتقه إن كنت لأدخل أصابعى فيها ضُرب ثنتين يوم بدر وواحدة يوم اليرموك[3].

وعن علىّ بن زيد قال: أخبرنى من رأى الزبير وإن فى صدره مثل العيون، من الطعن والرمى[4].

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٧٤).

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٥١): رجاله ثقات إلا أنه مرسل. وأخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٠).

(٣) السير للإمام الذهبى (١/ ٥٢)- وأخرجه البخارى (٧/ ١٠٠) فضائل الصحابة.

(٤) صفة الصفوة (١/ ١٤١).

الهجرة إلى الحبشة

ولما اشتد إيذاء قريش لأصحاب الحبيب ﷺ أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ليكونوا في جوار (النجاشي) ذلكم الملك العادل.

فكونوا عنده بخير دار مع خير جار.

وظلوا على تلك الحالة من الأمن والاستقرار إلى أن نزل رجل من الحبشة لينازع النجاشي في الملك فحزن المسلمون لذلك حُزنًا شديداً وخافوا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي وهو لا يعرف حق الصحابة الأطهار ولا يعرف قدرهم.

وهنا أراد الصحابة- رضى الله عنهم- أن يعرفوا أخبار الصراع الدائر بين النجاشي وبين هذا الرجل- على الجانب الآخر من النيل-.

قالت- أم سلمة- رضى الله عنها-:

فقال أصحاب رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم: مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا؛ قالوا: فأنت، وكان من أحدث القوم سنًا. قالت: فنفخوا له قربةً فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها مُلتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم. قالت: فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه، والتمكين له في بلاده، قالت: فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن، إ طلع الزبير وهو يسعى، فلمع بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا، فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده[1].

جهاده في سبيل الله

لقد بذل (الزبير) الكثير والكثير في سبيل الله فلقد جعل نفسه وماله وقفًا لله- عز وجل- فأكرمه الله ورفعه في الدنيا والآخرة.

فها هو الزبير- ﷺ - كانت عليه عمامة صفراء معتجراً بها يوم بدر.. فعن عُروة أنه قال: كانت على الزبير يوم بدر عمامة صفراء فنزل جبريل على سيما الزبير[2]- أي على هيئته- .

فيا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها.

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٢٧٩).

(٢) ذكره الهيثمى فى المجمع (٨٤/٦) ونسبه إلى الطبرانى وقال: هو مرسل صحيح الإسناد.

وفيه يقول عامر بن صالح بن عبد الله بن الزبير:

جدّى ابنُ عمّةِ أحمدٍ ووزيرُه ... عند البلاء وفارسُ الشقراءِ

وغداةَ بدرٍ كان أولَ فارسٍ ... شهدَ الوغى فى اللأمةِ الصفراءِ

نزلت بسيماهُ الملائكُ نُصرةً ... بالحوضِ يومَ تألُّبِ الأعداءِ

وهو ممن هاجر إلى الحبشة فيما نقله موسى بن عقبة، وابن إسحاق ولم يطول الإقامة بها[1].

وعن الزبير قال: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعد بن العاص وهو مُدجج لا يُرى إلا عيناه وكان يكنى أبا ذات كرش، فحملت عليه بالعترة فطعنته فى عينه فمات. قال الزبير: لقد وضعت رجلى عليه، فكان الجهد أن نزعتها- يعنى الحربة- فلقد انثنى طرفها[2].

قتل الزبير يوم بدر عمَّهُ نوفل بن خويلد بن أسد، وكذا عبيدة بن سعيد بن العاص.

وفى يوم أحد

ورأى النبىُ يوم «أحد» رجلاً يقتل المسلمين قتلاً عنيفًا، فقال: «قم إليه يا زبير» فرقى إليه الزبير، حتى إذا علا فوقه اقتحم عليه فاعتنقه، فأقبلا ينحدران حتى وقعا إلى الأرض، فوقع الزبيرُ على صدره وقتله»[3].

كان من الذين استجابوا لله وللرسول ﷺ

قال الزبير- رضي الله عنه -: جمع لى رسول الله ﷺ أبويه مرتين فى أحد وفى قريظة[4].

وعن هشام عن أبيه، قالت عائشة: يا ابن أختى! كان أبواك- يعنى الزبير وأبا بكر- من ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

لما انصرف المشركون من أحد، وأصاب النبى ﷺ وأصحابه ما أصابهم، خاف أن يرجعوا، فقال: من ينتدب لهؤلاء فى آثارهم، حتى يعلموا أن بنا قوةً، فانتدب أبو بكر والزبير فى سبعين، فخرجوا فى آثار المشركين، فسمعوا بهم، فانصرفوا، قال تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٤]. لم يلقوا عدوا[5].

---

(١) السير للإمام الذهبى (١/ ٤٧).

(٢) أخرجه البخارى (٧/٣٦٥) المغازى.

(٣) تهذيب ابن عساكر (٥/ ٣٥٨).

(٤) أسد الغابة (٢/ ٢٥٠).

(٥) أخرجه البخارى (٤٠٧٧) المغازى، وأخرج مسلم الجزء الأول (٢٤١٨) الفضائل.

وفي يوم الخندق

روى البخاري ومسلم عن جابر: قال رسول الله ﷺ يوم الخندق : من يأتينا بخبر بني قريظة؟ فقال الزبير: أنا، فذهب على فرس، فجاء بخبرهم. ثم قال الثانية، فقال الزبير: أنا، فذهب، ثم الثالثة، فقال النبي ﷺ: «لكُلِّ نبيٍّ حواريٌّ، وحواريَّ الزبير»[1].

قال علي بن أبي طالب: أشجع الناس الزبير... ولا يعرف قدر الرجال إلا الرجال.

وقال الثوري: نجدة الصحابة: حمزة وعليٌّ والزبير.

وعن عبد الله بن الزبير قال: كنت يوم الأحزاب جُعلتُ أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثًا فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلف، قال: أوَ هل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم. قال: كان رسول الله ﷺ قال: من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟ فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال: فداك أبي وأمي[2].

وعن ابن أبي الزناد قال: ضرب الزبير يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة بالسيف على مغفره، فقطعه إلى القربُوس[3]، فقالوا: ما أجود سيفك! فغضب الزبير، يريدأن العمل ليده لا للسيف[4].

وفي يوم حنين

«ويوم (حُنين) طاعن الزبير المشركين حتى أزالهم عن أماكنهم، وكان قائد المشركين يراقب سير القتال، فأخبره أصحابه أنهم يرون فارسًا واضعًا رمحه على عاتقه، عاصبًا رأسه بملاءة حمراء، فقال: هذا الزبير بن العوام، وأحلفُ باللات ليخالطنكم فاثبتوا له. فلما انتهى الزبير إلى مواضع المشركين وأبصرهم، قصدهم، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها»[5].

لله درُّ أشجع الناس الذي قال فيه عليّ بن أبي طالب: «يغضبُ كالنمر، ويثبُ وُثوبَ الأسد»[6].

(١) أخرجه البخاري (٣٧١٩) فضائل الصحابة- ومسلم (٢٤١٥) الفضائل.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (٢٤١٦).

(٣) القربوس: مقدم السرج ومؤخره.

(٤) السير للإمام الذهبي (١/ ٥١).

(٥) قادة فتح الشام ومصر (ص٢٠٥) للواء الركن محمود شيت خطاب- ط. دار الفكر.

(٦) تهذيب ابن عساكر (٥/ ٣٦٢).

وفى يوم اليرموك

عن عروة أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للزبير يوم اليرموك: ألا تشدُّ فنشد معك؟ فقال: إنى إن شددتُ كذبتم فقالوا: لا نفعل، فحمل عليهم حتى شق صفوفهم، فجاوزهم وما معه أحد، ثم رجع مقبلاً فأخذوا بلجامه فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر. قال عروة: كنت أدخل أصابعى فى تلك الضربات ألعب وأنا صغير. قال عروة: وكان معه عبد الله بن الزبير يومئذ، وهو ابن عشر سنين فحمله على فرس وكل به رجلاً[1].

قال الذهبى فى السير معلقًا: «هذه الواقعة هى يوم اليمامة إن شاء الله، فإن عبد الله كان إذ ذاك ابن عشر سنين»[2].

وذكر ابن كثير أن الموقعة هى «اليرموك» ولا مانع من وقوع ذلك فى الموقعتين.

ويا لروعة إقدام الزبير حين يُحجم الأبطالُ من صحابة رسول الله ﷺ، ولا يصبرون معه[3].

قال ابن كثير: «وقد كان فيمن شهد اليرموك: الزبيرُ بن العوام، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ، فقالوا: ألا تحملُ فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون. فقالوا: بلى. فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو، فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه. ثم جاءوا إليه مرةً ثانية ففعل كما فعل فى الأولى، وجُرح يومئذ جُرحين بين كتفيه. وفى رواية: جُرحٌ[4].

ويقول ابن كثير مرة أخرى: «خرج فى الناس إلى الشام مجاهداً، فشهد اليرموك فتشرَّفوا بحضوره، وكانت له بها اليد البيضاء والهمة العلياء، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتين، من أولهم إلى آخرهم»[5].

(١) أخرجه البخارى (٣٩٧٥).

(٢) السير للإمام الذهبى (١/ ٦٣).

(٣) علو الهمة/ د. سيد حسين (٣/ ٣٢٠).

(٤) البداية والنهاية (٧/ ١١).

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٢٦٠).

وفى فتح مصر (شجاعة نادرة)

«ولما قصد عمرو بن العاص مصر لفتحها كانت معه قوات تبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستمدُّ- يطلب المدد من الرجال- فأشفق عمر من قلة عدد قوات عمرو، فأرسل الزبير بن العوام فى اثنى عشر ألفًا، وقيل: أرسل عمر أربعة آلاف رجل، عليهم من الصحابة الكبار: الزبير، والمقداد بن الأسود، وعباده ابن الصامت، ومسلمة بن مخلد، وقال آخرون: خارجة بن حذافة هو الرابع. وكتب إليه «إنى أمددتك بأربعة آلاف، على كل ألفٍ منهم رجل مقام ألفٍ». وكان الزبير على رأس هؤلاء الرجال»[1].

وحين قدم الزبير على عمرو وجده محاصراً حصن (بابليون) فلم يلبث الزبير أن ركب حصانه وطاف بالخندق المحيط بالحصن، ثم فرق الرجال حول الخندق، وطال الحصار حتى بلغت مدته سبعة أشهر، فقيل للزبير: «إن بها الطاعون». فقال: «إنما جئنا للطعن والطاعون»[2].

«وأبطأ الفتح على عمرو بن العاص، فقال الزبير: إنى أهبُ نفسى لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين». فوضع سُلمًا وأسنده إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، فتحامل الناس على السُّلم حتى نهاهم عمرو؛ خوفًا من أن ينكسر، فلما رأى الروم أن العرب قد ظفروا بالحصن انسحبوا، وبذلك فتح حصن بابليون أبوابه للمسلمين، فانته بفتحه المعركة الحاسمة لفتح مصر، وكانت شجاعة الزبير النادرة السبب المباشر لانتصار المسلمين على المقوقس»[3].

ولله دَرُّ حسان حين يقول:

أقام على عهد النبى وهديه ... حواريُه والقولُ بالفعلِ يُعدلُ

أقام على منهاجه وطريقه ... يُوالى ولى الحق والحقُّ أعدلُ

هو الفارسُ المشهورُ والبطلُ الذى ... يصولُ إذا ما كان يومٌ محجَّلُ

إذا كشفتْ عن ساقها الحربُ حشها ... بأبيض سبَّاق إلى الموت يُرقل[4]

---

(١) فتح مصر والمغرب (ص٦١) ومعجم البلدان (٦/٣٧٦)، وقادة فتح الشام ومصر (ص٢٠٨، ٢٢٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ١٠٧)، والبلاذرى (ص٢١٥).

(٣) قادة فتح الشام ومصر (ص٢٠٩، ٢٢٧).

(٤) قال: أرقل القوم إلى الحرب إرقالاً: أسرعوا، والإرقال: ضرب من الخبب، وهى سرعة سير الإبل.

وإنَّ امرأً كانت صفيةُ أمَّهُ ... ومن أسدٍ في بيتها لمؤثل

له من رسول الله قربى قريبةٌ ... ومن نصرة الإسلام مجدٌ مؤثل

فكم كربةٍ ذبَّ الزبيرُ بسيفه ... عن المصطفى والله يعطى فيجزل

ثناؤك خيرٌ من فعال معاشرٍ ... وفعلك يا ابن الهاشمية أفضلُ[1]

غيرة الزبير بن العوام-رضى الله عنه

عن أسماء بنت أبى بكر الصديق- رضى الله عنها- قالت: تزوَّجنى الزبير- رضي الله عنه - وما له فى الأرض مالٌ ولا مملوك ولا شىء غير فرسه. قالت: فكنتُ أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسُوسُه، وأدقُّ النوى للناضحة، وأعلفه وأسقيه الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أحسن أخبزُ، فكان يخبز لى جاراتٌ من الأنصار، وكنَّ نسوةَ صدق. قالت: وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعهُ رسول الله ﷺ على رأسى، وهى على ثُلُثَى فرسخ. قالت: فجئتُ يومًا والنوى على رأسى، فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه فدعا له، ثم قال: «أخ أخ»؛ ليحملنى خلفه، فاستحييتُ أن أسير مع الرجال، وذكرتُ الزبير وغيرته. قالت: وكان من أغير الناس. قالت: فعرف رسولُ الله ﷺ أنى قد استحييتُ فمضى. فجئتُ الزبير فقلتُ: لقينى رسول الله ﷺ وعلى رأسى النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب معه، فاستحييتُ وعرفتُ غيرتك، فقال: والله لحملُك النوى كان أشدَّ علىَّ من ركوبك معه!! قالت: حتى أرسل إلىَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم، فكفتنى سياسة الفرس، فكأنما أعتقنى[2].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالعطاء والتضحية والفداء كان الموعد فى يوم الجمل فلقد شهد الزبير يوم الجمل مع طلحة وعائشة- رضى الله عنهم جميعًا- غير أنه عندما ذكَّره (على) ما قاله النبى ﷺ انصرف عنهم.

فعن أبى حرب بن الأسود الديلى، قال: شهدت الزبير خرج يُريد عليًا، فقال له علىٌّ: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقاتله وأنت له ظالم؟»، فقال: أذكر، ثم مضى الزبير منصرفًا[3].

(١) ديوان حسان (١٩٩- ٢٠٠) طبعة دار صادر البيروتية.

(٢) حياة الصحابة للكاندهولى (٢/ ٦٩١).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٦) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى.

وانصرف الزبير يوم الجمل عن عليٍّ، فلقيه ابنه عبد الله، فقال: جُبنًا، جُبنًا! قال: قد علم الناس أني لست بجبان، ولكن ذكَّرني (عليٌّ) شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ فحلفت أن لا أقاتله، ثم قال:

تركُ الأمور التي أخشى عواقبها ... في الله أحسن في الدنيا وفي الدِّين

وقيل: إنه أنشد:

ولقد علمتُ لو أن علمي نافعي ... أنَّ الحياةَ مِنَ المماتِ قريبُ

فلم ينشب أن قتله ابن جُرموز:

عن جون بن قتادة قال: كنت مع الزبير يوم الجمل، وكانوا يسلمون عليه بالإمرة، إلى أن قال: فطعنه ابن جرموز ثانيًا، فأثبته، فوقع، ودُفن بوادي السباع، وجلس (علي) رضي الله عنه يبكي عليه هو وأصحابه[1].

قاتل الزبير في النار

لقد أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ أن قاتل الزبير من أهل النار.

. وأخبر الحبيب ﷺ أن الزبير سيموت شهيداً.

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء. فتحرك. فقال رسول الله ﷺ: «اسكُن، حراءُ! فما عليك إلا نبيٌّ أو صدِّيقٌ أو شهيدٌ» وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص- رضي الله عنهم[2].

قال الإمام النووي- رحمه الله- وفي هذاالحديث معجزات لرسول الله ﷺ، منها إخباره أن هؤلاء شهداء، وماتوا كلهم غير النبي ﷺ وأبي بكر شهداء، فإن عمر وعثمان وعليًا وطلحة والزبير- رضي الله عنهم- قُتلوا ظلمًا شهداء، فقتل الثلاثة مشهور، وقُتل الزبير بوادي السباع بقرب البصرة منصرفًا تاركًا القتال، وكذلك طلحة اعتزل الناس تاركًا القتال، فأصابه سهم فقتله وقد ثبت أن من قُتل مظلومًا فهو شهيد[3].

وها هو قاتل الزبير (ابن جرموز)- عليه من الله ما يستحقه- يستأذن على (عليّ)

---

(1) السير للإمام الذهبي (1/ 60- 61).

(2) أخرجه مسلم (2417) كتاب فضائل الصحابة.

(3) مسلم مع شرح النووي (15/ 271- 272).

فقال: من هذا؟ فقال: ابن جرموز يستأذن، فقال: ائذنوا له. ليدخل قاتل الزبير فى النار. إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل نبى حوارى وإن حوارىَّ الزبير»[١].

وفى رواية: جىء برأس الزبير إلى علىّ، فقال علىّ: تبوأ يا أعرابىُّ مقعدك من النار، حدثنى رسول الله ﷺ أن قاتل الزبير فى النار[٢].

قال الشعبى- رحمه الله-: أدركت خمس مئة أو أكثر من الصحابة يقولون: علىٌّ، وعثمان، وطلحة، والزبير فى الجنة.

قال الإمام الذهبى: قلت: لأنهم من العشرة المشهود لهم بالجنة، ومن البدريين، ومن أهل بيعة الرضوان، ومن السابقين الأولين الذين أخبر الله تعالى أنه رضى عنهم ورضوا عنه، ولأن الأربعة قُتلوا، ورزُقوا الشهادة، فنحن مُحبون لهم، باغضون للأربعة الذين قتلوا الأربعة[٣].

وقالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل، وكانت تحت الزبير بن العوام، وكان أهل المدينة يقولون: من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة بنت زيد، كانت عند عبد الله بن أبى بكر فقُتل عنها، ثم كانت عند عمر ابن الخطاب فقُتل عنها، ثم كانت عند الزبير فقُتل عنها، فقالت:

غدر ابن جرموز بفارس بُهمة	يوم اللقاء وكان غير مُعرِّدِ
يا عمرو لو نبَّهته لوجدته	لا طائشًا رعش الجنان ولا اليد
ثكلتك أمك هل ظفرت بمثله	فيمن مضى فيما تروحُ وتغتدى؟
كم غمرةٍ قد خاضها لم يثنه	عنها طرادُك يا ابن فقع القفدد
والله ربك إن قتلت لمسلمًا	حلت عليك عقوبةُ المتعمد[٤]

(١) رواه الحاكم (٣/ ٣٦٧) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) قال الأرنؤوط: الفضل بن أبى الحكم روى عنه غير واحد، وقال أبو حاتم: شيخ بصرى، وذكره ابن حبان فى الثقات، وباقى رجال الإسناد ثقات.

(٣) السير للإمام الذهبى (١/ ٦٢).

(٤) الطبقات لابن سعد (٣/ ٨٣).

حرصه على أداء دينه عند الموت

عن عبد الله بن الزبير قال: جعل الزبير يوم الجمل يوصينى بدينه، ويقول: إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاى. قال: فوالله ما دريت ما أراد، حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ قال: الله. قال: ما وقعت فى كُربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه فيقضيه. وإنما دينه الذى كان عليه: أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه فيقول الزبير: لا، ولكنه سلف فإنى أخشى عليه الضيعة. قال: فحسب ما عليه من الدين فوجدته ألفى ألف ومائتى ألف. فقُتل ولم يدع ديناراً ولا درهمًا إلا أرضين، فبعتهما (يعنى: وقضيت دينه) فقال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا. فقلت: والله لا أقسم بينكم حتى أنادى بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه.

فجعل كل سنة ينادى بالموسم فلما مضى أربع سنين قسم بينهم.

وكان للزبير أربع نسوة، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف. فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف[1].

وكيف لا يحرص الزبير- رضي الله عنه - على أداء الدَّين وهو الذى كان يغدق الأموال على الفقراء واليتامى والمساكين.

فعن نهيك قال: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم. يقول: يتصدق بها، وفى رواية أخرى فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله ليس معه منه شيء.

وعن جويرية قالت: باع الزبير داراً له بستمائة ألف. قال: فقيل له: يا أبا عبد الله غُبنت. قال: كلا والله لتعلمن أنى لم أغبن هى فى سبيل الله[2].

وهكذا رحل الشهيد المبارك عن دنيانا ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه- رضى الله عنهم- فى جنة الرحمن إخوانًا على سُرر متقابلين.

فرضى الله عن الزبير وعن سائر الصحابة أجمعين

* * *

(١) أخرجه البخارى (٣١٢٩) فرض الخمس- باب بركة الغازى بماله حيًا وميتًا.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٤١).

خاتمة

وهكذا رأينا أيها الأحبة فى الله. أن الحرب على الصحابة متمثلة فى التشكيك فى مقومات إيمانهم.. فرأينا من يتهم بعضهم وهم الصحابة الأكرمين.. بالنفاق أو التحايل إلى آخر قائمة الإتهامات فضلاً عن إتهام بعضهم بالجهل بدين الله. وهم من هم وفى حقيقة الأمر. أن الحرب على صحابة رسول الله هى حرب على الإسلام ذاته.. ومحاولة هدم قاماتهم على الإسلام ذاته.. ومحاولة هدم قاماتهم هى فى حقيقتها محاولة لهدم الدين بالكلية.. والقضية بسيطة إذا ما سألنا أنفسنا سؤالاً بسيط وهو.. من بلغ عن رسول الله؟.. من هم أولاء الذين بلغونا فروض ديننا إن لم يكن كلها فبعضها؟.. إنهم الصحابة.. فإذا جاء أحدهم اليوم وأخذ يشكك فى مقدرتهم وإيمانهم وصدقهم فهو بالتالى يحاول التشكيك فى كل ما أبلغوه عن رسول الله.. فتبدأ بالتبعية البلبلة والذبذبة فى نفوس الكثير من الناس خاصة فى نفوس البسطاء أو ضعاف الإيمان بل وضعاف النفوس.. وكما قلت فى المقدمة إن الحرب على الإسلام وعلى رموزه لا تكاد تهدأ وبكل الأساليب.

وفى حقيقة الأمر إن كل ما سبق على مدى صفحات هذا الكتاب هى محاولة متواضعة للفت الانتباه.. وصفير إنذار.. وننتظر المزيد من مشايخنا وأستاذتنا..

الفهــرس